



كلية الآداب - قنا
قسم الدراسات الإسلامية

مباحث في علوم القرآن الكريم

إعداد:

د. أماني محسوب العطيفي

العام الجامعي 2022م - 2023م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الكلية : تربية عام

شعبة : اللغة العربية

الفرقة : الثانية

مقرر : الدراسات الإسلامية

العام الجامعي : 2022-2023

عدد صفحات المقرر: 243

مقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.... وبعد.

فإنّ القرآن الكريم كتاب: هداية ومشكاة نور ومنهج حياة، بيّن الله فيه للناس ما يجب لهم وما يجب عليهم، وما يحل لهم وما يحرم عليهم، وذلك في قواعد كلية، تتدرج تحتها فروع لا تنحصر من الأحكام التي لا غنى لهم عنها في أي عصر من العصور.

فما من صغيرة ولا كبيرة يحتاج الناس إليها إلا شملها تشريعه، ووسعها بيانه. قال تعالى: ﴿ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء وهدىً ورحمةً وبشرى للمسلمين﴾ [النحل:89].

لهذا كان من الواجب على كل مسلم، آمن بالله وكتبه ورسله أن يتدبر معانيه ويتفقه فيه، ويتعلم منه أحكام دينه وأمور دنياه، ويرجع إليه في كل قضية من قضاياها الخاصة والعامة، ويجعله ربيع قلبه وأنيسه في وحشته، وإمامه في حله وترحاله.

وانطلاقاً من هذا الواجب، بذل العلماء من الصحابة والتابعين جهودهم في حفظه ومدارسته، واستخلاص ما فيه من العظات والعبر، واستنباط ما تضمنته آياته من الأحكام التكليفية من عقائد وعبادات ومعاملات، مسترشدين فيما غمض عليهم فهمه بأقوال النبي ﷺ وأفعاله، فقدموا لطلاب الدين والدنيا تراثاً حافلاً، لا ينضب معينه من أنواع العلم وألوان المعرفة، وفتحوا لهم أبواباً واسعة للتأمل والنظر فيما جد ويجد من شؤون الحياة.

وبين أيدينا من هذا التراث الخالد ما لا يكاد يحصى في شتى العلوم، ومختلف الفنون، وكلها لا غنى عنها، لمن يريد فهم أحكام الدين بوجه خاص وشؤون الدنيا بوجه عام.

فأفضل ما تجب العناية به، والاهتمام بمدارسته ومعايشته: هو كتاب الله عز وجل، فهو كتاب لا تنتضي عجائبه، ولا تنتهي غرائبه ولا يمله قارئه ولا سامعه، من علم علمه سبق، ومن قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن هدى إليه، فقد هدى إلى صراط مستقيم.

ولما كانت "علوم القرآن الكريم" هي طوائف المعارف المتصلة بالقرآن، والتي تعين على فهمه، والوقوف على بعض أسرارها، حسب ما يفتح للبشر، فقد حاولنا في هذه الدراسة المعنونة بـ "مباحث في علوم القرآن" أن نقدم وصفاً لهذا المصطلح "علوم القرآن الكريم" وذلك بإيجاز غير مخل.

الدراسات السابقة:

وبالرغم من وجود دراسات معاصرة، سابقة كثيرة ومفيدة على هذا الجهد المتواضع، إلا أن هذه الدراسة أعدت لتكون مناسبة لطلبة الأقسام الشرعية، وفيما يلي أهم الدراسات السابقة حول القرآن الكريم:

1. مناهل العرفان في علوم القرآن للشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني.
2. المعجزة الكبرى ، محمد أبو زهرة .
3. المدخل لدراسة القرآن الكريم: للدكتور محمد محمد أبو شهبه.
4. مباحث في علوم القرآن: للدكتور صبحي الصالح.
5. مباحث في علوم القرآن : مناع القطان .
6. لمحات في علوم القرآن، تأليف الشيخ محمد الصباغ.
7. مدخل إلى علوم القرآن والتفسير للدكتور فاروق حمادة.

إلى غير ذلك من المصنفات المهمة الأخرى ، التي تميزت بالتراثية (البرهان للزركشي – الاتقان للسيوطي وغيرهما).

وقد راعى المصنف المناهج العلمية في إعداد الكتاب، فكان المنهج الاستقرائي الغالب على الكتاب، مع الاستعانة بالمنهج التحليلي والاستنباطي، مع الأخذ في الاعتبار، أن هناك أدوات قد استخدمت في تطبيق المناهج العلمية، مثل: تخريج الأحاديث النبوية تخريجا علميا، وإثبات الآيات القرآنية بالصورة العثمانية، وتوثيق المعلومات توثيقا علميا؛ بالاعتماد على المراجع الأصيلة.

كما راعى المصنف أن تكون خطة الكتاب مناسبة لموضوعاته فجاءت في تمهيد وبابين، وقد انقسم البابين إلى مجموعة من الفصول، على النحو التالي:

المشتملات:

التمهيد: وفيه تمت دراسة كلمة (قرآن) من حيث الاصطلاح، ثم مصطلح "علوم قرآن" من حيث النشأة والتطور، ثم بينا أسماء القرآن الكريم وأوصافه، ثم أسماء سوره والفرق بين القرآن الكريم والحديث القدسي وذلك من خلال مباحث.

الفصل الأول: الوحي وفيه: (تعريفه، كفيته، صورته).

الفصل الثاني: نزول القرآن الكريم وفيه: (نزوله جملة ومفرداً والحكمة من ذلك، نزوله على سبعة أحرف وأقوال العلماء في ذلك، الحكمة، فوائد اختلاف القراءات).

الفصل الثالث: المكي والمدني وفيه: (التعريف، الصفات والضوابط).

الفصل الرابع: جمع القرآن وترتيبه (مراحل الجمع، صفات كل مرحلة) وفيه أيضاً: ترتيب الآيات والسور، الرسم العثماني.

الفصل الخامس: أسباب النزول وفيه: (اهتمام العلماء بأسباب النزول، تعريف السبب، عموم اللفظ وخصوص السبب، فوائد معرفة أسباب النزول).

الفصل السادس: المحكم والمتشابه وفيه: (التعريف، أقوال العلماء، الحكمة من المتشابه)

الفصل السابع: الناسخ والمنسوخ وفيه: (التعريف، أقسام النسخ، أنواع النسخ، الحكمة).

الفصل الثامن: القصص في القرآن الكريم وفيه: (تعريفها، أنواعها، القصة القرآنية حقيقة لا خيال، نقد لمذهب هدام).

الفصل التاسع: المثل في القرآن الكريم وفيه: (أهمية المثل، أقسام المثل).

الفصل العاشر: القسم في القرآن الكريم وفيه: (الغاية من القسم، أنواع القسم، حذف جواب القسم)

الفصل الحادي عشر: الجدل في القرآن الكريم وفيه: (تعريف الجدل، طريق القرآن في الجدل).

الفصل الثاني عشر: المطلق والمقيد.

الفصل الثالث عشر: فواتح وخواتيم السور والمناسبات.

الفصل الرابع عشر: إعجاز القرآن الكريم وفيه: (التعريف، وجوه الإعجاز العلمي، البلاغي، التشريعي).

الفصل الخامس عشر: مصطلح "علم تفسير القرآن، وفيه: (تاريخ التفسير - تطوره، وأقسامه، مصادر التفسير وأهم المؤلفات فيه).

وقد حاول المصنف . في كل ما سبق . أن يقدم المعلومة سهلة ومبسطة؛ كي يتمكن الطلاب الأعزاء من الاستفادة من كل ما قُدم، كما راعي توثيق المعلومات لمن أراد الاستزادة، كل ذلك اشتمله منهج مبسط أكاديمي، مرتب على حسب الأصول العلمية.

أضرع إلى الله عز وجل أن يحقق للمسلمين النجاح والتوفيق ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِأَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴾ [الطلاق: 3] .

المؤلف

الأهداف العامة لدراسة مقرر "مباحث في علوم القرآن".

يتوقع من الدارسين لهذا المقرر:

أولاً: أن يتعرفوا على مصطلحي "القرآن الكريم" و "علوم القرآن الكريم"، كما يتعرفون على أسماء القرآن وصفاته وأقسامه.

ثانياً: أن يقفوا على صور الوحي وطرق إثباته، والفرق بين القرآن المكي والمدني، وكيفية نزول القرآن وجمعه وتدوينه.

ثالثاً: أن يتعرفوا على أسباب النزول، وضوابطه، وهل لكل آية سبب، وما فوائد معرفة الأسباب؟

رابعاً: أن يدركوا معاني المحكم والمتشابه، وماذا تعني مصطلحات: النسخ وأنواعه، والقسم والجدل في القرآن.

خامساً: أن يتعرفوا على القصص القرآني، وما حكمته.

سادساً: أن يدركوا ويستفيدوا من دراسة أوجه الإعجاز القرآني، وشروط المعجزة القرآنية.

سابعاً: أن يفرقوا بين مناهج المفسرين المتعددة لتفسير القرآن الكريم، كما يتعرفون على شروط المفسر وآدابه.

ثامناً: أن يتعرفوا على مجموعة من النقاسير، ذات المناهج المختلفة.

تاسعاً: القدرة على الرد على الشبهات المثارة حول القرآن وعلومه.

عاشراً : الاستفادة من مباحث العلوم القرآنية في المناهج الدراسية .

التمهيد

وفيه مباحث:

المبحث الأول: علوم القرآن.... التعريف والنشأة والتطور.

المبحث الثاني: القرآن الكريم... أسماءه وأوصافه (وسوره).

المبحث الثالث: الحديث القدسي: تعريفه، والفرق بينه وبين القرآن الكريم.

التمهيد

المبحث الأول: علوم القرآن.... التعريف والنشأة والتطور

المطلب الأول: تعريف علوم القرآن:

علوم القرآن، مركب إضافي جاء علماً على هذا العلم الذي نحن بصدد دراسته، ولفهم هذا المركب لابد من تعريف جزئيه .

أولاً: تعريف كلمة "علوم":

علوم جمع علم، قال ابن فارس: "الْعَيْنُ وَاللَّامُ وَالْمِيمُ" أَصْلٌ صَحِيحٌ وَاحِدٌ، يُدُلُّ عَلَى أَثَرِ بِالشَّيْءِ يَنْمَيُّ بِهِ عَنْ غَيْرِهِ، وَالْعِلْمُ: نَقِيضُ الْجَهْلِ⁽¹⁾.
والعلم في الاصطلاح: "هو إدراك الشيء على ما هو به، وقيل: زوال الخفاء من المعلوم"⁽²⁾.

ثانياً: تعريف كلمة "قرآن"

القرآن في اللغة: مصدر كالغفران، تقول: قرأ قراءة وقرآنا بمعنى واحد⁽³⁾، ثم صارت بعد المصدرية، اسم علم يطلق على النظم الكريم، وهذا هو الغالب.
أما القرآن في الاصطلاح: "هو كلام الله المنزل على محمد μ المنقول بالتواتر، المتعبد بتلاوته، المتحدى بأقصر سورة منه"⁽⁴⁾.

تعريف علوم القرآن بالمعنى الإضافي:

هو مجموعة المباحث التي تتعلق بالقرآن الكريم من ناحية نزوله وترتيبه، وجمعه وكتابته، وقراءاته، ومحكمه ومتشابهه، وناسخه ومنسوخه، وإعجازه،...⁽⁵⁾ إلخ.
فضله: إن شرف العلوم بشرف موضوعها، وموضوع علوم القرآن هو القرآن الكريم، وعليه، فعلوم القرآن الكريم من أفضل العلوم وأشرفها وأسمأها، كما قال ابن الجوزي -رحمه الله

(1) مقاييس اللغة، لابن فارس، 4/109.

(2) التعريفات، للجرجاني، 155.

(3) لسان العرب، لابن منظور، 1/128، مادة(قرأ) المصباح المنير، للفيومي، ص259، مادة: (قرأ).

(4) عرف العلماء القرآن الكريم بتعريفات عدة، أطنب بعضهم، وتوسط آخرون، وأوجز البعض من حيث ذكر الخصائص والإعجاز والتواتر والكتابة. ينظر هذه الآراء في: مناهل العرفان، للزرقاني، 1/19-20.

(5) ينظر : المصدر السابق، 1/133.

تعالى: "لما كان القرآن العزيز أشرف العلوم، كان الفهم لمعانيه أوفى الفهوم؛ لأن شرف العلم بشرف المعلوم" (1).

فائدته: لا نخطئ التعبير إن قلنا: إن علوم القرآن، تعد مفتاح التفسير، إذ لا يستطيع أحد أن يلج إلى التفسير إلا بهذا العلم، فلا بد للمفسر من التسلح بعلوم القرآن الكريم، ليستطيع الولوج إلى التفسير، والدفاع عن كتاب الله، ودحض الشبهات التي يثيرها الأعداء وغيرهم حول ساحته.

المطلب الثاني: نشأة علوم القرآن:

لهذا العلم مرحلتان:

الأولى: ما قبل التدوين:

كان الصحابة رضي الله تعالى عنهم على دراية تامة بعلوم القرآن، فقد أقبلوا على القرآن الكريم منذ نزوله، تلاوة وحفظاً ودراسة وتدبراً، وكانوا يفهمون القرآن الكريم بسليقتهم العربية، فقد كانوا عرباً خلصاً، وهبهم الله ملكة تامة للحفظ، وذكاء في القريحة، فكانوا يزنون الكلام ويتذوقون البيان، فضلاً عن ملازمتهم لدروس الرسول ρ كما تبين الأحاديث. وتدل لنا الأخبار التالية على أن الصحابة كانوا على دراية تامة بعلوم القرآن.

فقد روي عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: كَانَ الرَّجُلُ مِمَّا إِذَا تَعَلَّمَ عَشْرَ آيَاتٍ، لَمْ يُجَاوِزْهُنَّ حَتَّى يَعْرِفَ مَعَانِيَهُنَّ وَالْعَمَلَ بِهِنَّ (2). فقلوه (تعلم)، (ويعرف) دليل واضح على طريقة التعلم والفهم ومصدرهما.

وروى أبو عبد الرحمن السلمي (3) قال: " حَدَّثَنَا الَّذِينَ، كَانُوا يُقْرُونََنَا أَنَّهُمْ كَانُوا يُسْتَقْرُونَ مِنَ النَّبِيِّ ρ ، فَكَانُوا إِذَا تَعَلَّمُوا عَشْرَ آيَاتٍ، لَمْ يَخْلُفُوهَا حَتَّى يَعْمَلُوا بِمَا فِيهَا مِنَ الْعَمَلِ، فَتَعَلَّمْنَا الْقُرْآنَ وَالْعَمَلَ جَمِيعًا" (4). وفي ذلك إشارة واضحة للتعلم بمرحلتيه النظرية والعملية.

ويقول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: " وَالَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ مَا نَزَلَتْ سُورَةٌ مِنَ الْقُرْآنِ إِلَّا وَأَنَا أَعْلَمُ حَيْثُ أَنْزَلَتْ، وَلَا آيَةٌ وَأَعْلَمُ فِيمَنْ نَزَلَتْ، وَلَوْ أَعْلَمُ أَحَدًا أَعْلَمَ بِكِتَابِ اللَّهِ مِنِّي تَبْلُغُهُ الْإِبِلُ لَرَكِبْتُ إِلَيْهِ" (5).

(1) زاد المسير، لابن الجوزي، 3/1.

(2) تفسير الطبري: 80/1 . وقال الشيخ أحمد شاكر: "إسناده موقوف على ابن مسعود".

(3) هو: أبو عبد الرحمن السلمي، عبد الله بن حبيب، من قراء القرآن وأهل الورع في السر والإعلان. مات سنة أربع وسبعين. مشاهير علماء الأمصار، ص 164.

(4) المصدر السابق، وقال الشيخ أحمد شاكر: "هذا إسناد صحيح متصل".

(5) صحيح البخاري: كتاب فضائل القرآن، باب القراء من أصحاب النبي ρ 187/6، ح 5002.

ويقول علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- وهو على المنبر: "سَلُونِي فَوَاللَّهِ لَا تَسْأَلُونِي عَنْ شَيْءٍ يَكُونُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِلَّا حَدَّثْتُكُمْ بِهِ وَسَلُونِي عَنْ كِتَابِ اللَّهِ، فَوَاللَّهِ مَا مِنْ آيَةٍ إِلَّا وَأَنَا أَعْلَمُ بِلَيْلٍ نَزَلَتْ أَمْ بِنَهَارٍ وَأَمْ فِي سَهْلٍ، أَمْ فِي جَبَلٍ"⁽¹⁾.

فهذه الأخبار وغيرها تثبت أن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا على دراية تامة بعلوم القرآن ومعارفه.

وبهذا يتضح لنا: أن علوم القرآن ظهرت منذ نزل القرآن على الرسول p، وعلى رأس هذه العلوم: علم التفسير.

وكان الصحابة رضي الله عنهم يعتمدون على المشافهة في تعلم علوم القرآن الكريم، ولم يدونوا شيئاً من هذه العلوم، ويرجع ذلك إلى أسباب منها⁽²⁾:

1- أغلب الصحابة كان أمياً، لا يعرف القراءة ولا الكتابة.

2- أن الرسول p نهاهم عن كتابة شيء غير القرآن بقوله p: "لا تكتبوا عني، ومن كتب عني غير القرآن فليمحاه"⁽³⁾.

الثانية: عهد التدوين:

في هذا العهد بدأ تدوين العلوم، وكان أول علم يدون هو علم التفسير، وقد دون في أول أمره على أنه باب من أبواب الحديث، وممن دونه في هذه المرحلة: يزيد بن هارون السلمي"ت117هـ"، وشعبة بن الحجاج"ت160هـ" ووكيع بن الجراح"ت197هـ"، وسفيان ابن عيينة"ت198هـ"، وغيرهم، وكان جمعهم للتفسير جمعاً لباب من أبواب الحديث.

ثم دون التفسير مستقلاً، ويأتي على رأس المدونين العلامة محمد بن جرير الطبري"310هـ"، فيعد تفسيره للقرآن من أقدم ما وصل إلينا كاملاً شاملاً، جمع فيه صاحبه ما ورد عن الصحابة والتابعين، ووجه الأقوال، ورجح بعضها على بعض، وأورد أسباب النزول، وذكر الإعراب، والأحكام... وغير ذلك.

وقد اتجهت همم كثير من العلماء إلى التدوين في بعض مباحث علوم القرآن، وإليك بعض

هذه المؤلفات:

(1) ألف الحسن البصري (ت110هـ) في "القراءة".

(2) وعطاء بن أبي رباح (ت114هـ) في "غريب القرآن".

(1) تفسير عبد الرزاق 234/3، ح 2970 .

(2) مناهل العرفان، للزرقاني، 246/1، دراسات في علوم القرآن، للرومي، ص 33 .

(3) صحيح مسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب التثبت في الحديث وحكم كتابة العلم، 228/8، ح 3004.

- (3) وقتادة بن دعامة السدوسي (ت117هـ) في "الناسخ والمنسوخ".
- (4) وعبد الله بن عامر اليحصبي (ت118هـ) "المقطوع والموصول".
- (5) وعلي بن المديني (ت234هـ) في "أسباب النزول".
- (6) وابن قتيبة (ت276هـ) "تأويل مشكل القرآن".

المطلب الثالث: ظهور اصطلاح علوم القرآن:

إذا كان اصطلاح علوم القرآن يطلق على: مجموعة العلوم التي تخدم القرآن الكريم، كعلم أصول التفسير، والقراءات، والناسخ والمنسوخ، والمكي والمدني، وأسباب النزول، والرسم العثماني وإعجاز القرآن.. وغير ذلك. وهذه العلوم، وإن كانت قد ظهرت في وقت مبكر، إلا أنها لم تجمع في كتاب واحد، وتظهر كفن مدون، إلا في أواخر القرن الثالث وأوائل القرن الرابع الهجري حين ألف محمد بن خلف بن المرزبان "ت309هـ" كتابه "الحاوي في علوم القرآن"⁽¹⁾.

ثم توالى المصنفات في علوم القرآن ومن أهمها:

- (1) "المختزن في علوم القرآن"، لأبي الحسن الأشعري (ت324هـ).
- (2) "الأمد في علوم القرآن" لعبيد الله بن جرو الأسدي (ت387هـ).
- (3) "فنون الأفتان في علوم القرآن" لابن الجوزي (ت597هـ).
- (4) "البرهان في علوم القرآن" لبدر الدين الزركشي (ت794هـ)، وهو كتاب فريد في نوعه، جميل في جمعه وترتيبه، اشتمل على سبعة وأربعين نوعاً من أنواع علوم القرآن، قال عنه مؤلفه: "ضمنته من المعاني الأنبيقة والحكم الرشيقية ما يهز القلوب طرباً ويبهر العقول عجباً، ليكون مفتاحاً لأبوابه وعنواناً على كتابه معيناً للمفسر على حقائقه ومطلعاً على بعض أسراره ودقائقه"⁽²⁾، وهو من أفضل المؤلفات في علوم القرآن الكريم ومن أحسنها تنظيمًا وتبويبًا وأسلوبًا.
- (5) "الإنتقان في علوم القرآن" لجلال الدين السيوطي (ت911هـ) وهذا الكتاب عمدة الباحثين والكاتبين في هذا الفن. ذكر فيه السيوطي: ثمانين نوعاً من أنواع علوم القرآن على سبيل الإجمال والإدماج ثم قال: ولو نوعت باعتبار ما أدمجته فيها لزادت على الثلاثمائة⁽³⁾.
- (6) وألف محمد عبد العظيم الزرقاني (ت1948م) «مناهل العرفان في علوم القرآن» - رحمه الله - وهو كتاب حافل، غير أنه لم يستوعب أنواع علوم القرآن، إلا أنه أوسع فيه القول،

(1) دراسات في علوم القرآن، للرومي، ص 41 .

(2) البرهان في علوم القرآن، للزركشي، 9/1.

(3) الإنتقان، للسيوطي، 31/1 .

وأظنّب في بعض موضوعاته، ولا سيما في الرد على الشبه والمشكلات التي أثّرت حول «القرآن».

وقد انتعشت المصنّفات القرآنية كثيرًا في السنوات الأخيرة بما يدعو إلى التفاضل وصدق الله العظيم (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) [الحجر: ٩].

ومن أهم هذه المؤلفات:

1. علوم القرآن، للدكتور، عدنان زرزور.
2. دراسات في علوم القرآن، للدكتور فهد الرومي.
3. دراسات في علوم القرآن، للدكتور محمد بكر إسماعيل.
4. علوم القرآن والحديث للشيخ أحمد محمد علي داود.

المبحث الثاني: القرآن الكريم أسماؤه وأوصافه (وسوره).

المطلب الأول: تعريف القرآن الكريم:

بداية نقرر سؤالاً يمكن أن يطرح على مستوى التعريفات اللازمة لكل مصطلح، وهو هل نحن بحاجة حقيقية إلى معرفة لفظ القرآن؟ وألا يكفي في التعريف به أن نشير إلى ما بين دفتي المصحف ونقول: هذا هو القرآن؟ أو أن نقول: إن القرآن هو قولنا: بسم الله الرحمن الرحيم - الحمد لله رب العالمين... إلى أن نختم قولنا بأخر كلمات القرآن: "من الجنة والناس" سورة الناس. ربما لم تكن هناك حاجة حقيقية لتعريف عامة المسلمين بالقرآن وتوقيفهم على مدلول هذا اللفظ بأكثر مما سبق، حيث يكفي المسلم العادي حين يسمع أو يقرأ كلمة "قرآن" أن يعرف أنها تعني ذلك المكتوب في المصحف المشار إليه، أو ذلك المقروء باللسان والمحفوظ في الصدور، ويكون بذلك قد وقع على تعريف القرآن تعريفاً تحديدياً. ولكن الحاجة تصبح ضرورية لدى المسلم الدارس، ليس من ضرورة أن لفظ القرآن من الكليات التي تحدها التعاريف المنطقية ذات الأجناس والفصول، ولكن من الضرورة تقريب معناه وتمييزه عن بعض ما عداه، مما قد يشاركه في الاسم ولو توهما، وبيان صفاته التي امتاز بها عن هذه الأنواع.

إن لفظ القرآن في اللغة - أصلاً - مصدر كالفقران، تقول: قرأ قراءة وقرآنا بمعنى واحد⁽¹⁾ قال تعالى: (إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (17) فَإِذَا قَرَأَهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ) [القيامة: 17-18] أي: قراءته.

ثم صار بعد مصدريته، اسم علم يطلق على النظم الكريم، وهذا هو الغالب، ومنه قوله تعالى: (إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ) [الإسراء: 9].

(1) لسان العرب، لابن منظور، 128/1، مادة (قرأ) المصباح المنير، للفيومي، ص 259، مادة (قرأ).

كما يطلق على الجزء منه بطريق الاشتراك اللفظي كقوله تعالى: (وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) [الأعراف: 204] ، يعني أي جزء منه، ولهذا صح أن يقال لمن قرأ اللفظ المنزل كله: إنه قرأ قرآنا، ولمن قرأ ولو آية واحدة منه: إنه قرأ قرآنا، وعلى هذا يفهم قول الفقهاء مثلاً: تحرم قراءة القرآن على الجنب، فإنهم يقصدون حرمة قراءته كله أو بعضه على حد السواء. ويطلق على النظم الرباني لفظ "الكتاب" كما في قوله تعالى (آلم) (1) ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ [البقرة: 1-2] ، وذلك لجمعه أنواعاً من القصص والآيات والأحكام والأخبار على وجه مخصوص. ومما هو معلوم أن تسمية النظم الرباني "بالقرآن" روعي فيه كونه متلواً بالألسن، كما روعي في تسميته "بالكتاب" كونه مكتوباً، فكلتا التسميتين من تسمية الشيء بالمعنى الواقع عليه، وفي تسميته بهذين الاسمين إشارة إلى أنه من حقه العناية بحفظه في موضعين لا في موضع واحد، أي: حفظه في الصدور والسطور معاً، فلا بد من توافق الحفظين⁽¹⁾. وقد عرف العلماء القرآن الكريم بتعريفات عدة⁽²⁾، وأفضل هذه التعريفات هو: أن القرآن الكريم: "كلام الله المنزل على محمد ρ المنقول بالتواتر، المتعبد بتلاوته، المتحدى بأقصر سورة منه".

دلالة التعريف⁽³⁾:

"الكلام" جنس شامل لكل الكلام، وإضافته إلى الله تميزه عن كلام من سواه من الأنس والجن والملائكة.

"المنزل" مخرج للكلام الإلهي الذي استأثر الله به في نفسه، أو ألقاه إلى ملائكته ليعملوا به لا لينزلوه على أحد من البشر؛ إذ ليس كل كلامه تعالى منزلاً، بل الذي أنزل منه قليل من كثير. "على محمد ρ " أي بلفظه ومعناه، مخرج ما نزل على غيره كالتوراة والإنجيل والزيور، وصحف إبراهيم وموسى، وما نزل بمعناه كالأحاديث القدسية.

"التواتر" ما رواه جمع عن جمع تحيل العادة تواطؤهم على الكذب، ويدخل ضمن ما تواتر القراءات العشر، وتخرج القراءات الشاذة ولا تسمى قرآنا.

"المتعبد بتلاوته" أي الأمور بقراءته في الصلاة وغيرها على وجه العبادة والذكر، وإخراج ما لم نؤمر بتلاوته من منسوخ التلاوة والأحاديث القدسية المسندة إلى الله عز وجل إن قلنا: إنها منزلة من عند الله بألفاظها، فإن قلنا: إنها منزلة بمعناها فحسب فهي خارجة بالقيود الأولى، فلا تعتبر كلاماً لله من حيث كانت ألفاظها من عند رسول الله ρ ، فهي حرية أن تنسب

(1) ينظر: النبأ العظيم، د. محمد عبد الله دراز ص 12 - 13، بتصرف.

(2) أطنب بعضهم، وتوسط آخرون، وأوجز البعض من حيث ذكر الخصائص والإعجاز والتواتر والكتابة. ينظر هذه الآراء في: مناهل العرفان، للزرقاني، 1/19-20.

(3) ينظر: علوم القرآن، مدخل إلى تفسير القرآن، وبيان إعجازه، د. عدنان زرزور، ص 46-47..

إليه؛ لأن الكلام إنما ينسب إلى واضعه الذي ألفه على نحو خاص، ولو كان فيه من المعنى من خارج نفسه.

"المتحدى بأقصر سورة منه" لأنه معجز للبشر، فقد طلب من العرب أن يأتوا بمثل أقصر سورة منه فعجزوا عن الإتيان بها. وصدق الله تعالى (قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا (88)) [الإسراء: 88].

المطلب الثاني: أسماء القرآن الكريم:

بلغت أسماء القرآن عند كثير من العلماء أكثر من تسعين اسمًا، وعند البعض الآخر خمسًا وخمسين⁽¹⁾، وأرى أن هذا العدد ما بين أسماء وصفات للقرآن وربما أدخلت الأسماء في الصفات. وعلى جميع الأحوال، فالأمر فيه سعة فمن نطق الاسم يريد الصفة فلا بأس، وهذه بعض الأسماء:

- 1- القرآن: قال تعالى (إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّذِينَ هِيَ أَقْوَمُ) [الإسراء: 9].
- 2- الكتاب: قال تعالى (لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ) [الأنبياء: 10].
- 3- الذكر: قال تعالى (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) [الحجر: 9].
- 4- الفرقان: قال تعالى (تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ) [الفرقان: 1].
- 5- «التنزيل»، قال تعالى (وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ) [الشعراء: 192].

المطلب الثالث: أوصافه:

وصف الله تعالى القرآن الكريم بأوصاف كثيرة، وكل وصف من هذه الأوصاف يدل على معنى من المعاني التي تضمنها القرآن الكريم، منها:

- 1 - «عربي، وبشير، ونذير» قال تعالى: (كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (3) بَشِيرًا وَنَذِيرًا) [فصلت: 3 - 4].
- 2 - و"هدى" و"شفاء" و"رحمة" و"موعظة": (يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ (57)) [يونس: 57].
- 3 - و«نور»: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا) [النساء: 174].
- 4 - و"بشرى". (مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ) [البقرة: 97].

(1) ينظر: البرهان للزركشي 273/1، لطائف الإشارات للقسطلاني 18/1، الإتيان، للسيوطي، 67/1.

5 - و"عزيز".. (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ (41)) فصلت [41].

6 - و"مبارك".. (وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقٌ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ) [الأنعام 92].

7 - و"مجيد".. (بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ) [البروج 21].

المطلب الرابع: سور القرآن:

السورة: تهمز ولا تهمز، فمن همزها جعلها من أسأرت: أي أفضلت، وكأنها قطعة من القرآن. ومن لم يهمزها جعلها من المعنى المتقدم وسهل همزها. ومنهم من يشبهها بسور البناء: أي القطعة منه. وقيل: من سور المدينة لإحاطتها بآياتها واجتماعها. وقيل: لارتفاعها: لأنها كلام الله والسورة المنزلة الرفيعة. وقيل: لتكريب بعضها على بعض، ومن التسور بمعنى التصاعد والتكريب. إلى غير ذلك من الأقوال⁽¹⁾.

ويمكن تعريفها اصطلاحاً:

قال الجعبري: السورة بعض قرآن يشتمل على أي، ذي فاتحة وخاتمة وأقلها ثلاث آيات. وقيل: السورة الطائفة المترجمة توقيفاً، أي الطائفة من القرآن المسماة باسم خاص بتوقيف من النبي صلى الله عليه وسلم.

وقيل: السورة بعض من كلام منزل مبين أوله وآخره، إعلاماً من الشارع، قرآناً كان أو غيره⁽²⁾. وقيل: إنها طائفة مستقلة من آيات القرآن، ذات مقطع ومطلع، وهي مأخوذة من سور المدينة؛ وذلك إما لما فيها من وضع كلمة بجانب كلمة، وآية بجانب آية، كالسور توضع كالبنية فيه بجانب لبنة، ويقام كل صف منه على صف⁽³⁾.

وسور القرآن أقسام أربعة هي:

أ- السبع الطوال: البقرة، آل عمران، النساء، المائدة، الأنعام، الأعراف، والسابعة قيل: الأنفال وبراءة؛ لأنهم كانوا يعدونها سورة واحدة لعدم الفصل بينهما بالبسملة، وقيل: السابعة يونس.

ب- المئون: التي تزيد آياتها على مائة أو تقاربها.

ج- المثاني: هي التي تلي المثين في عدد الآيات، سميت بذلك؛ لأنها تتثنى في القراءة وتكرر أكثر من الطوال والمئين.

(1) لسان العرب، ابن منظور، 384/4، تهذيب اللغة، الأزهرى، 36/13، الإتيان، للسيوطي، 69/1.

(2) كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، التهانوي، 989/1.

(3) مناهل العرفان، للزرقاني، 320/1-324.

د- المفصل: وفيه خلاف؛ فمن قائل: من أول سورة"ق" وقيل: من أول"الحجرات" وسمي بالمفصل لكثرة الفصل بين سوره بالبسملة، وقيل: لقلّة المنسوخ فيه، ولذا يسمى المحكم أيضًا.

وهو ثلاثة أقسام: طوال وأوساط وقصار. فطواله من أول"الحجرات" إلى سورة"البروج" وأوساطه من سورة"الطارق" إلى سورة"لم يكن" وقصاره من سورة"إذا زلزلت" إلى آخر القرآن⁽¹⁾.
تنبيه: تحديد أوائل هذه الأقسام وأواخرها باجتهاد من العلماء.

أسماء السور:

قد يكون للسورة من القرآن الكريم اسم واحد وهو كثير. وقد يكون لها اسمان فأكثر، وكثرة الأسماء ترجع لبعض المعاني الخاصة بالسورة القرآنية، وهذا شبيه بفعل العرب. فالفاتحة لها أسماء كثيرة: منها فاتحة الكتاب، أم القرآن، أم الكتاب، السبع المثاني، الكافية، الواقية، الشافية، سورة المناجاة، الوافية، الكنز، إلى غير ذلك من الأسماء.

وسورة المائدة تسمى: سورة العقود.

وسورة الأنفال تسمى: سورة بدر.

وسورة النحل تسمى: سورة النعم.

وسورة الشعراء تسمى: سورة الجامعة.

وسورة النمل تسمى: سورة سليمان.

وسورة غافر تسمى: سورة المؤمن.

وسورة الرحمن تسمى: عروس القرآن.

وسورة الطلاق تسمى: النساء الصغرى.

وسورة عم يتساءلون تسمى: النبأ والتساؤل.

وسورة الفلق، والناس، تسميان"المعوذتان".

وقد سميت سور بأسماء الأنبياء وذلك؛ لأن السور احتوت قصصهم مثل سورة نوح وسورة هود وسورة إبراهيم ويونس ويوسف.

وهناك أقوال كثيرة وتأويلات حول أسماء السور القرآنية كلها تحتاج إلى مستند من الأثر، فلذا ابتعدنا عنها⁽²⁾.

(1) الإيتقان، للسيوطي، 1/ 75، الفوز الكبير في أصول التفسير، للدهلوي، ص140، دراسات في علوم القرآن ،

فهد الرومي، ص107، محاضرات في علوم القرآن، غانم قدوري، ص75.

(2) الإيتقان، للسيوطي، 1/ 70 وما بعدها.

المطلب الخامس: هل تسمية السور القرآنية توقيفية أم اجتهادية؟

للعلماء في ذلك قولان:

الأول: ذهب كثير من العلماء إلى أن تسمية السور توقيفية، ومن هؤلاء الطبري⁽¹⁾،
والزركشي⁽²⁾، والسيوطي⁽³⁾ وغيرهم

واستدلوا على ذلك بتسمية النبي ρ لبعض السور، كفاتحة الكتاب، وسورة البقرة، وآل
عمران، والنساء، وغيرها.

الثاني: أن أسماء السور اجتهادية، ولعلمهم اعتمدوا في هذا على عدم ورود اسم كل سورة
من طريق التوقيف، وإن وقع هذا لبعض السور.

والذي نميل إليه هو أن أسماء السور على ثلاث مراتب:

1 - منها ما ثبت تسميته عن النبي ρ .

2 - منها ما ثبت تسميته عن الصحابة، مثل ما ورد في صحيح البخاري أن سعيد بن
جبير قال: "سألت ابن عباس عن سورة الأنفال، فقال: تلك سورة بدر"⁽⁴⁾، فسامها ابن عباس سورة
بدر.

3 - منها ما ثبت عمّن دون الصحابي بدءًا من التابعين إلى يومنا هذا، ومما يلحظ أنه
يغلب عليها أن تسمى ببدايات السورة، مثل: سورة (لم يكن)، سورة (أرأيت)، سورة (عم) وهكذا،
والاصطلاح على تسمية سورة باسم جائز؛ لأنه لم يرد نهي من النبي ρ في ذلك، وما زال
العمل عند المسلمين على هذا من عهد الصحابة والتابعين إلى يومنا هذا، فليس في هذا إشكال
ولا نكير⁽⁵⁾.

(1) جامع البيان، للطبري، 100/1 .

(2) البرهان في علوم القرآن، للزركشي، 270/1.

(3) معترك الأقران في إعجاز القرآن، للسيوطي، 276/2.

(4) صحيح مسلم، كتاب التفسير، باب في سورة براءة والأنفال والحشر، 2322/4، ح 3031 .

(5) شرح مقدمة التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي، ص63، المحرر في علوم القرآن، مساعد بن سليمان،

ص170.

المبحث الثالث: الحديث القدسي.

المطلب الأول: تعريفه، ووجه التسمية:

هو ما يضيفه النبي ρ إلى الله تعالى⁽¹⁾.

وجه التسمية: سمي بالحديث نظرًا؛ لأن الرسول ρ هو الحاكي له.

وسمي بالقدسي: نسبة إلى القدس، وهو الطهر، والتقديس: التطهير، ومنه قوله تعالى: (وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ) [البقرة: 30]، وَقَالَ الرَّجَاجُ: معنى نُقَدِّسُ لَكَ، أي: نُطَهِّرُ أَنْفُسَنَا لَكَ⁽²⁾.

والأحاديث القدسية: تقديس الله وتنزيه ذاته العلية عن النقائص وما لا يليق به سبحانه.

مثاله: ما رواه أبو هريرة أن رسول الله ρ قال: قال الله تعالى: "أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر"⁽³⁾.

وإليك مجموعة من الحقائق قبل أن نشعر في إبراز الفرق بين القرآن الكريم والحديث القدسي: أ. لا خلاف بين العلماء جميعًا في أن لفظ القرآن الكريم ومعناه من عند الله تعالى، أنزلهما على الرسول ρ بواسطة الوحي مشافهة ومدارسة.

ب. لا خلاف أيضًا في أن معنى الحديث القدسي من عند الله تعالى، أنزله على الرسول ρ بواسطة الوحي مشافهة أو بوحى الإلهام.

ج. كل ما صدر عن الرسول ρ فمعناه من عند الله تعالى، سواء كان قرآنًا أم حديثًا قدسيًا أم نبويًا، إلا أن القرآن الكريم لفظه من عند الله تعالى، كما أن الحديث النبوي لفظه من عند الرسول ρ .

المطلب الثاني: الفرق بين القرآن الكريم والحديث القدسي:

1. القرآن الكريم تعبدنا الله تعالى بتلاوته، بخلاف الحديث القدسي.

2. القرآن الكريم كلام الله لفظًا ومعنى، أما الحديث القدسي فمعناه من الله ولفظه من النبي ρ .

3. القرآن معجزة باقية على مر العصور، محفوظة من التغيير والتبديل، بخلاف الحديث القدسي فليس فيه معنى الإعجاز، إذ لم يثبت بشأنه التحدي والإعجاز.

4. القرآن الكريم ثبت بطريق التواتر فهو قطعي الثبوت، أما الحديث القدسي فمنه الصحيح والضعيف والموضوع.

(1) تحرير علوم الحديث، للجديع، 37/1 .

(2) لسان العرب، لابن منظور، 168/6، المعجم الوسيط 719/2 .

(3) صحيح البخاري: كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة، 118/4، ح 3244 .

5. القرآن لا يضاف إلا إلى الله تعالى، بخلاف الحديث القدسي فقد يضاف إلى الله، وقد يضاف إلى الرسول p؛ لأنه المخبر به عن الله عز وجل.
6. القرآن لا تجوز روايته بالمعنى ولا يجوز تبديل حرف بحرف آخر بخلاف الحديث القدسي فيجوز روايته بالمعنى عند جمهور المحدثين⁽¹⁾.
7. القرآن الكريم جاحده كافر، بخلاف الحديث القدسي فجاحده غير كافر.
8. القرآن الكريم لا تجوز الصلاة إلا به، بخلاف الحديث القدسي إذا قرئ شيء منه في الصلاة فأبطلها.
9. القرآن الكريم، الجملة منه تسمى آية وعدد مخصوص من الآيات يسمى سورة، بخلاف الحديث القدسي، فلا تسمى الجملة منه آية، ولا المقدار المخصوص من الجمل منه سورة⁽²⁾.

(1) فالحديث القدسي في ذلك كشأن الحديث النبوي الذي تجوز روايته بالمعنى بشرط أن يكون الراوي عالمًا بقواعد اللغة العربية، وأن يكون عالمًا بمدلولات الألفاظ ومقاصدها.

ينظر: الكفاية، للخطيب البغدادي، ص 259 وما بعدها، أصول السرخسي 355/1، الإلماع، للقاضي عياض ص 179، المحدث الفاصل، الرامهرمزي، ص 348-350، الرسالة، للشافعي، ص 174، تدريب الراوي، للسيوطي 100/2، نصب الراية للزيلعي، 200/4.

(2) ينظر: بيان المعاني، لابن ملاً حويش، 293/2، نفحات من علوم القرآن، لمحمد معبد ص 15.

أسئلة للمناقشة

- 1) عرف علوم القرآن لغة واصحاحًا، ثم وضح فضله.
- 2) ما فائدة دراسة علوم القرآن.
- 3) كان الصحابة على دراية بعلوم القرآن، دلت على ذلك.
- 4) ما أسباب عدم تدوين الصحابة لعلوم القرآن؟
- 5) متى ظهر اصطلاح علوم القرآن؟ ومن أول من ألف فيه.
- 6) ما أهم المصنفات في علوم القرآن الكريم؟
- 7) عرف القرآن، ثم اشرح التعريف.
- 8) ماذا تعني كلمة "التواتر" في تعريف القرآن الكريم؟
- 9) ما أسماء القرآن الكريم؟
- 10) لم سمي القرآن الكريم بهذا الاسم؟
- 11) اذكر ثلاثة أوصاف للقرآن الكريم مع ذكر الدليل من القرآن الكريم.
- 12) ما أهم صفات القرآن الكريم، كما ذكرها الله تعالى.
- 13) اذكر المصطلح العلمي لما يأتي.
- 14) (.....) بعض قرآن يشتمل على آي، ذو فاتحة وخاتمة وأقلها ثلاث آيات .
- 15) وضح المراد بالمصطلحات الآتية:
السبع الطوال، المئون، المئاني، المفصل.
- 16) سميت سورة الفاتحة بأسماء عدة. اذكر خمسة منها.
- 17) هل تسمية السور القرآنية توقيفية أم اجتهادي؟، وضح آراء العلماء في ذلك مع بيان الراجح.
- 18) عرف الحديث القدسي، وبيّن وجه تسميته بالقدسي.
- 19) اذكر خمسة فروق بين الحديث القدسي والقرآن الكريم.

الفصل الأول: الوحي

المبحث الأول: تعريف الوحي، كيفيته وصوره، إثباته

المطلب الأول: تعريف الوحي:

الوحي لغة: تستعمل كلمة الوحي في اللغة العربية في معنى أعم من مفهومها الشرعي الخاص بالنبوة، حيث تستعمل بمعنى الإشارة والكتابة والرسالة والإلهام والكلام الخفي وكل ما ألقىته إلى غيرك⁽¹⁾.

وهذا الاتساع في المعنى استخدمه القرآن على النحو التالي:

1 - الإلهام الغريزي: كالوحي إلى النحل؛ قال الله تعالى ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴾ {النحل: 68}.

2 - الإلهام الفطري؛ كالوحي إلى أم موسى: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ .. ﴾ [القصص: 7].

3 - وسوسة الشيطان وتزيينه الشر في نفس الإنسان: ﴿..وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ.. ﴾ [الأنعام: 121].

4 - الإشارة السريعة على سبيل الرمز، كإحياء زكريا عليه السلام لقومه: ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾ [مريم: 11].

5 - وما يلقىه الله إلى ملائكته من أمر ليفعلوه: ﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَتَبَيَّنُوا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ [الأنفال: 126].

أما الوحي اصطلاحًا: فهو "إعلام الله تعالى لنبي من أنبيائه بحكم شرعي ونحوه"⁽²⁾.

وقيل: إنه الإعلام الخفي السريع، الخاص بمن يوحي إليه، بحيث يخفى على غيره⁽³⁾.

وقد روعي في وحي الله تعالى إلى أنبيائه، المعنيان الأصليان لهذه المادة، وهما: الخفاء والسرعة، ولهذا فإن معنى الوحي - شرعا - لا يتضمن أكثر من تكليم الله سبحانه لأحد عباده بطريق من طرق الوحي.

(1) مقاييس اللغة، لابن فارس، ج6، ص70، لسان العرب، لابن منظور، ج15، ص379، تاج العروس، للزبيدي، 169 / 40 .

(2) مناهل العرفان، للزرقاني، 63/1، الواضح في علوم القرآن، مصطفى الديب، ص17، دراسات في علوم القرآن - فهد الرومي، ص177 .

(3) ينظر: الوحي المحمدي، رشيد رضا، ص34.

المطلب الثاني: كفيته وصوره:

ما هي كيفية الوحي الذي يوحى إلى رسول الله ﷺ؟

إذا كان السؤال عن طبيعة الوحي وذاته، فالإجابة غير متوافرة؛ لأن الوحي نوع من الممارسة الذاتية لم تتوافر إلا للأنبياء، وبالإضافة إلى أن تجربة الوحي روحية خالصة، والروح وما يتصل بها من تجارب ووقائع هي في التصور الإسلامي من أمر الله كما نص القرآن ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: 85].

أما كفيته التي تعني صورته ومظاهره، فهي كما وردت في الصحاح. قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بَأُذُنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾. الشورى: 51.

فقد ذكرت هذه الآية صور الوحي وهي:

أ. النَّفْثُ فِي رُوحِ النَّبِيِّ، أَوْ إِقَاءِ الْإِلْهَامِ فِي قَلْبِهِ عَلَى صُورَةٍ غَيْرِ مُشْكُوكٍ فِيهَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ. ويروي السيوطي أن رسول الله ﷺ قال: إن روح القدس كان ينفث في روعه الكلام نفاثًا. كما روى أن الله كان يكلمه، كما حدث في ليلة الإسراء والمعراج. (1)

وهذه الصورة تتم بطريقتين:

الأولى: بالإلهام.

قال ﷺ: "إِنَّ رُوحَ الْقُدُسِ نَفَثَ فِي رُوعِي أَنَّ نَفْسًا لَنْ تَمُوتَ حَتَّى تَسْتَكْمَلَ رِزْقَهَا، فَانْقُوا اللَّهَ وَأَجْمَلُوا فِي الطَّلَبِ (2)".

الثانية: بالرؤيا الصادقة.

ودليلها: قوله تعالى في شأن إبراهيم وولده إسماعيل: ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى﴾ [الصافات: 102].

وكما في حديث عائشة قالت: أَوَّلُ مَا بُدِيَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْوَحْيِ الرَّؤْيَا الصَّالِحَةُ فِي النَّوْمِ، فَكَانَ لَا يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ (3)

أي تحققت بصورة غاية في الوضوح.

ب. تكليم الله لأنبيائه من وراء حجاب

(1) الإتيان، للسيوطي، 59/1.

(2) مسند الشهاب، القضاعي 185/2، والإتيان، للسيوطي، 59/1.

(3) أخرجه البخاري في صحيحه: بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم،

7/1، ح3، وكتاب التفسير، سورة العلق، 4/1894، ح4670، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان - باب بدء

الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، 97/1، 160.

ودليل هذه الصورة: قوله تعالى في شأن «موسى» عليه السلام (وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى (9) إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدٍ عَلَى النَّارِ هُدًى (10) فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى (11) إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (12) وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى (13) إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي (14)) [طه: ٩ - ١٤].

ج . الوحي بواسطة ملك، وله صورتان:

أ . أن يأتيه مثل صلصلة (1) الجرس . ب . أن يتمثل له الملك رجلاً .

روت السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها:

أَنَّ الْحَارِثَ بْنَ هِشَامٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَيْفَ يَأْتِيكَ الْوَحْيُ؟

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أحيانًا يأتيني مثل صلصلة الجرس، وهو أشده عليّ، فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال، وأحيانًا يتمثل لي الملك رجلاً، فيكلمني فأعي ما يقول. قالت عائشة رضي الله عنها: ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد، فيفصم عنه وإن جبينه ليتصد عرقاً (2).

فالأولى: أن يأتيه الملك في مثل صلصلة الجرس، وكان أشده عليه حتى إن جبينه ليتصد عرقاً، وحتى إن راحلته لتبرك به إلى الأرض، إن كان راكبها.

والثانية: أن يأتيه جبريل ويتمثل له رجلاً، فيخاطبه.

وكان جبريل عليه السلام يأتيه أحياناً في صورة دحية بن خليفة الكلبي. وكان رجلاً جميلاً وسيماً، وفي هذه الحالة كان يراه الصحابة أحياناً.

وقد يرى الملك في صورته التي خلقه الله عليها، فيوحي إليه ما شاء الله أن يوحيه، وهذا وقع مرتين كما ذكر الله سبحانه في سورة النجم وفي سورة التكوير، ففي صحيح مسلم عن مسروق قال: كُنْتُ مُنْكَبًا عِنْدَ عَائِشَةَ، فَقَالَتْ: يَا أَبَا عَائِشَةَ، ثَلَاثَ مَنْ تَكَلَّمَ بِوَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ فَقَدْ أَعْظَمَ عَلَى اللَّهِ الْفُرْيَةَ.

قُلْتُ: مَا هُنَّ؟

قَالَتْ: مَنْ زَعَمَ أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ رَأَى رَبَّهُ، فَقَدْ أَعْظَمَ عَلَى اللَّهِ الْفُرْيَةَ.

(1) قال الخطابي: وهو صوت متدارك يسمعه ولا يثبت أول ما يسمعه حتى يفهمه بعد. الإتيان، للسيوطي، 59/1.

(2) صحيح البخاري، بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى الرسول ﷺ، 6/1، ح2، ومسلم، كتاب الفضائل، باب عرق النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْبَرْدِ وَحِينَ يَأْتِيهِ الْوَحْيُ، 82/7، ح2333.

قَالَ: وَكُنْتُ مُتَكِنًا فَجَلَسْتُ، فَقُلْتُ: يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ، أَنْظِرِينِي وَلَا تَعْجَلِينِي، أَلَمْ يَقُلِ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: (وَلَقَدْ رَأَهُ بِالْأَفُقِ الْمُبِينِ) (التكوير: 23) (وَلَقَدْ رَأَهُ نَزْلَةً أُخْرَى) (النجم: 13).

فَقَالَتْ: أَنَا أَوَّلُ هَذِهِ الْأُمَّةِ، سَأَلَ عَنْ ذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: إِنَّمَا هُوَ جِبْرِيْلُ، لَمْ أَرَهُ عَلَى صُورَتِهِ الَّتِي خُلِقَ عَلَيْهَا غَيْرَ هَاتَيْنِ الْمَرَّتَيْنِ، رَأَيْتُهُ مُنْهَبِطًا مِنَ السَّمَاءِ سَادًّا عِظْمَ خَلْقِهِ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ.

فَقَالَتْ: أَوْلَمْ تَسْمَعْ أَنَّ اللَّهَ يَقُولُ: (لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ) (الأنعام: 103)، أَوْ لَمْ تَسْمَعْ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: (وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكْلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) [الشورى: 51]؟

قَالَتْ: وَمَنْ زَعَمَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَتَمَ شَيْئًا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ، فَقَدْ أَعْظَمَ عَلَى اللَّهِ الْفُرْيَةَ، وَاللَّهُ يَقُولُ: (يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ) ⁽¹⁾ [المائدة، الآية 67].

المبحث الثاني: إثبات وإمكان ظاهرة الوحي.

المطلب الأول: هل يمكن أن تتحقق ظاهرة الوحي؟

إن الإيمان بذلك يقتضي أولاً: الإيمان بالله الخالق وبعالم الغيب، ومن ثم كان من البدهي أن الجاحدين لوجود الخالق، المفسرين لوجود الكون تفسيراً مادياً أزلماً ينكرون عالم الغيب، ومن ثم ينكرون إمكان الاتصال به؛ لأنه عندهم حديث خرافة وأساطير ووهم لا حقيقة وراءه. ويصور القرآن الكريم فكرتهم والحياة في قوله تعالى: (وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ) [الجمعة: 24].

ولم تخرج دعوى المنكرين للوحي على مرّ العصور عن مجمل ذلك، وذلك لأنهم حصروا أفكارهم في الوجود المادي الذي يعايشونه.

وقد تعرض المنكرون للوحي وإمكانه على اختلاف عصورهم واتجاهاتهم إلى مختلف مظاهر الوحي وآثاره بمحاولة تفسيرها على نحو مادي يتمشى مع ما يؤمنون به من حصر الوجود والعلم به في هذا الكون المادي وفي عالم الحس الذي يعايشونه.

(1) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب معنى قول الله عز وجل: {ولقد رآه نزلة أخرى} 159/1، ح 287.

المطلب الثاني: أدلة إمكان الوحي وتقريبه للعقول:

1- "نقرر بوثوق: أن الوحي القرآني بإعجازه هو بنفسه دليل عقلي على مصداقيته، وذلك بما توافر له من براهين إعجازه بعد التحدي به وإعلان عجز الثقلين عن الإتيان بمثله، وصدق الله الفائل في كتابه المعجز: (قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا) (الإسراء: 88).

2. إن المعاصرين للوحي شاهدوا مظاهره، ونُقِلَ بالتواتر المستوفي لشروطه بما يفيد العلم القطعي إلى الأجيال اللاحقة، ولمست الإنسانية أثره في حضارة أمته، وقوة أتباعه، وعزتهم ما استمسكوا به، وانهايار كيانهم وخذلانهم ما فرطوا في جنبه، مما لا يدع مجالاً للشك في إمكان الوحي وثبوته. وضرورة العودة إلى الاهتداء به إطفاء للظمأ النفسي بمثله العليا، وقيمه الروحية.

العلم يؤكد إمكان الوحي:

1. توصل العلم الحديث إلى اختراع أجهزة حديثة تنقل الصوت، أو الصوت والصورة عبر المسافات البعيدة بدقة عالية (كوسائل الاتصالات المختلفة، والمذياع، والتلفاز، وغيرها)، فيكلم الإنسان من في أقصى الأرض، ويسمع كلامه، ولا يسمع الحاضرون شيئاً، ولا يستطيع أحد من الحاضرين أن ينكر ذلك، فإذا كان هذا من صنع الإنسان على عجزه، أفنستبعد بعد ذلك على الله- تعالى- أن يُعلم خواص عبادته بما شاء من وحيه؟؟

2. استطاع العلم أيضا أن يملأ بعض اسطوانات من الجماد الجامد بأصوات وأنغام وبقرآن وكلام، على وجه يجعلها حاكية له بدقة وإتقان، وبين أيدينا من ذلك شيء كثير لا سبيل إلى إنكاره يسمونه بالفونوغراف.

أبعد هذه المخترعات القائمة يستبعد على القادر تعالى بوساطة ملك ومن غير وساطة ملك أن يملأ بعض نفوس بشرية صافية من خواص عبادته بكلام مقدس⁽¹⁾.

المطلب الثالث: بعض الأدلة التي تثبت أن الوحي من الله تعالى، وليس للنبي p من أمر

الوحي شيء:

1. كانت تنزل بالنبي p نوازل يتطلب لها حلاً، وكذلك كل من حوله، ولكنه لا يجد في شأنه قرآناً يقرؤه على الناس.

ومن هذه النوازل والأزمات حديث الإفك عن زوجته السيد المصونة عائشة رضي الله عنها، فقد أبطأ الوحي، وطال الانتظار والناس يخوضون في هذا الحديث المؤذي، ويلوكون عرض النبي النقي، حيث بلغت القلوب الحناجر، وهو لا يستطيع أن ينهي هذه المشكلة، ويحسم

(1) مناهل العرفان، للزرقاني، 69/1، النبأ العظيم، د. محمد عبد الله، 104، المدخل لدراسة القرآن الكريم، لأبي شهبه، ص 88.

هذا الموضوع، ومضى شهر بأكمله أو أكثر، وهو ينتظر خبر السماء، وما زاد على أن قال لها آخر الأمر " يَا عَائِشَةُ، فَإِنَّهُ بَلَغَنِي عَنْكَ كَذًا وَكَذًا، فَإِنْ كُنْتِ بَرِيئَةً فَسَيُبْرِئُكَ اللَّهُ، وَإِنْ كُنْتِ أَلَمَّمْتِ فَاسْتَغْفِرِي اللَّهُ وَتُوبِي إِلَيْهِ" (1).

هذا كلام رجل من البشر لا يعلم الغيب، وكلام المتثبت الذي لا يتبع الظن ولا يقول ما ليس له به علم، على أنه لم يغادر مكانه بعد أن قال هذه الكلمات، حتى نزل صدر سورة النور معلناً براءتها ومصدرًا الحكم المبرم بشرفها وطهارتها.

فماذا كان يمنعه - لو أن أمر القرآن إليه - أن يقول هذه الكلمة الحاسمة من قبل ليحامي بها عرضه، ويذب بها عن عرينه، ويقطع بها ألسنة القاذفين المتخرصين وينسبها إلى الوحي؟ ولكنه ما كان ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله.

2. وفي مرات أخرى كان يجيئه القول فيها على غير ما يحبه ويهواه ويخطئه في الرأي يراه، ويأذن له في الشيء الذي لا يميل إليه، فمن ذلك قوله تعالى: (عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَّبِعَنَّ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعَلَّمَ الْكَاذِبِينَ) [التوبة: 43] ، وقوله تعالى: (لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعَدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ) [التوبة: 42] .

لو كانت هذه المعاتبات المؤلمة صادرة عن وجدانه، معبرة عن ندمه حين بدا له خلاف ما فرط من رأيه: أكان يعلنها عن نفسه بهذا التهويل؟ ألم يكن له في السكوت عنها ستر على نفسه واستبقاء لحرمة آرائه؟؟ (2).

(1) ينظر حديث الإفك في صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب حديث الإفك، 116/5، ح 4141، صحيح

مسلم، كتاب التوبة، باب في حديث الإفك وقبول توبة القاذف، 112/8، ح 2770 .

(2) النبأ العظيم، دراز، 53-54 .

أسئلة للمناقشة

- (1) يطلق الوحي في اللغة على معان عدة اذكرها .
- (2) ما معنى الوحي في الآيات التالية؟
قال الله تعالى: (وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ) [القصص: 7] ، وقال الله تعالى: (وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيَجَادِلُوكُمْ) [الأنعام: 121]، وقال الله تعالى: (فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا) [مريم: 11]، قال الله تعالى: (إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ) [الأنفال: 126].
- (3) عرف الوحي اصطلاحًا، ثم بين صورته.
- (4) ما معنى صلصلة الجرس؟
- (5) ما أشد حالات الوحي على النبي صلى الله عليه وسلم.
- (6) هل يمكن أن تتحقق ظاهرة الوحي؟
- (7) اذكر أدلة إمكانية الوحي.
- (8) اذكر بعض الأدلة التي تثبت أن الوحي من الله تعالى، وليس للنبي p من أمر الوحي شيء .

الفصل الثاني: نزول القرآن

مقدمة:

العلم بنزول القرآن من أهم المباحث، فهو أساس الإيمان بالقرآن و أصل لسائر المباحث القرآنية، فهو أساس البناء.

معنى النزول:

في سورة الإسراء قال الله تعالى: (وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَّلْنَا) [الإسراء: 105]، وقال: (وَقُلْنَا رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ) [المؤمنون: 29].

ويطلق النزول -لغة- على انحدار الشيء من علو إلى أسفل. ولكن معنى الحلول في المكان والإيواء والانحدار، لا يليق إرادته هنا في إنزال القرآن الكريم؛ لأن القرآن ليس جسمًا. وعلى ذلك فالإنزال معناه، الإعلام. قال ابن كثير: يقول الله تعالى مخبرًا عن كتابه العزيز وهو القرآن المجيد إنه بالحق نزل، أي: متضمنًا للحق.. ومتضمنًا علم الله الذي أراد أن يطلعكم عليه من أحكامه وأمره ونهيه.. بل وصل إليك بالحق، فإنه نزل به شديد القوى، الأمين المكين المطاع..⁽¹⁾.

المبحث الأول: تنزلات القرآن:

المطلب الأول: التنزيل الأول:

إلى اللوح المحفوظ، ودليل ذلك قوله جل شأنه: (بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ (21) فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ (22)) [البروج 21-22]. واللوحة المحفوظ هو السجل الجامع لكل ما قضى الله وقدر، وكل ما كان وما يكون من عوالم الإيجاد والتكوين .

وأهمية هذه المرحلة تبرز في دلالة الإيمان بهذا اللوح، فهو مظهر من أروع المظاهر الدالة على عظمة الله عز وجل، ولا ريب أن الإيمان به يقوى إيمان العبد بربه، كما يحمل الناس على السكون والرضا تحت سلطان القدر والقضاء، وصدق الله العظيم إذ يقول: (بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ (21) فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ (22)) [البروج 21-22].

(1) لسان العرب، لابن منظور، 656/11، المصباح المنير، للفيومي، ص309، المعجم الوسيط 915/2، تفسير ابن كثير 68/3.

المطلب الثاني: التنزيل الثاني:

كان هذا التنزيل الثاني إلى بيت العزة في السماء الدنيا جملة.

والدليل قوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾ (البقرة: 185).

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾ [الدخان: 3].

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾ [لقدر: 1].

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾ (البقرة: 185).

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾ [البقرة: 185].

دللت هذه الآيات الثلاث على أن القرآن أنزل في ليلة واحدة، توصف بأنها مباركة، وتسمى (ليلة القدر) وهي من ليالي رمضان، ويتعين أن يكون هذا النزول هو النزول الأول إلى بيت العزة في السماء؛ لأنه لو أريد به النزول الثاني على النبي ρ لما صح أن يكون في ليلة واحدة، وفي شهر واحد هو (شهر رمضان)؛ لأن القرآن إنما نزل في مدة طويلة (ثلاثة وعشرين عامًا) ونزل في غير رمضان في جميع الأشهر، فتعين أن يكون المراد به (النزول الأول) وقد جاءت الأخبار الصحيحة تؤيد مكان النزول في بيت العزة من السماء الدنيا:

- أ. عن ابن عباس τ أنه قال: **فُصِّلَ الْقُرْآنُ مِنَ الذِّكْرِ، فَوُضِعَ فِي بَيْتِ الْعِزَّةِ فِي السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَجَعَلَ جِبْرِيلُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - يُنْزِلُهُ عَلَى النَّبِيِّ ρ ، وَيُرْتَلُهُ تَرْتِيلًا⁽¹⁾.**
- وعن ابن عباس τ أنه قال: **"أُنزِلَ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، وَكَانَ بِمَوْقِعِ النُّجُومِ، وَكَانَ اللَّهُ يُنْزِلُهُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ρ بَعْضُهُ فِي أَثَرِ⁽²⁾.**
- ج. وروى عن ابن عباس τ أنه قال: **"أُنزِلَ الْقُرْآنُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ، فِي شَهْرِ رَمَضَانَ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا جُمْلَةً، ثُمَّ أُنْزِلَ نُجُومًا"⁽³⁾ قوله نجومًا: أي أجزاء متفرقة.**

حكمة نزوله إلى بيت العزة جملة:

قال السيوطي: "ولولا أن الحكمة الإلهية اقتضت وصوله (أي: القرآن) إليهم منجمًا بحسب الوقائع لهبط به إلى الأرض جملة كسائر الكتب المنزلة قبله، ولكن الله سبحانه باين

(1) المستدرك على الصحيحين للحاكم، 667/2، ح 4216، وقال: "صحيح الإسناد ولم يخرجاه"، ووافقه الذهبي، وينظر الإتيان، للسيوطي، 53/1.

(2) المستدرك على الصحيحين للحاكم، 242/2، ح 2878، وقال: "هذا حديث صحيح على شرطهما، ولم يخرجاه" ووافقه الذهبي، وينظر الإتيان، للسيوطي، 53/1.

(3) المعجم الأوسط، للطبراني، 131/2، ح 1479، قال الهيثمي في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد 140/7: "فيه عمران القطان، وثقه ابن حبان وغيره وفيه ضعف، وبقية رجاله ثقات". وينظر الإتيان، للسيوطي، 53/1.

(أي خالف) بينه وبينها (أي: التوراة والإنجيل)، فجعل له أمرين: إنزاله جملة، ثم إنزاله مفرداً،
تسريعاً للمنزل عليه" (1).

(1) الإتيان، للسيوطي، ص 54، 55.

المطلب الثالث: التنزيل الثالث:

وأما التنزيل الثالث فقد كان من السماء الدنيا على قلب النبي ρ منجماً (أي: مفرقاً) في

مدة ثلاث وعشرين سنة وهي المرحلة الأخيرة التي شع منها النور على العالم، وهي من حين

البعثة إلى حين وفاته صلوات الله وسلامه عليه وكان هذا النزول بواسطة جبريل، ودليل ذلك

قوله تعالى: ﴿وَمَا نُنزِّلُ الْقُرْآنَ إِلَّا فِي نَهْرٍ مِّن مَّاءٍ حَمِيمٍ﴾

﴿الشعراء: ١٩٣ - ١٩٥﴾.

وكان من وراء نزول القرآن منجماً أهداف، نستعرضها في المبحث التالي.

المبحث الثاني: نزوله منجماً

المطلب الأول: أدلة نزول القرآن منجماً .

والدليل على هذا النزول وأنه نزل منجماً قول الله تعالى: ﴿وَمَا نُنزِّلُ الْقُرْآنَ إِلَّا فِي نَهْرٍ مِّن مَّاءٍ حَمِيمٍ﴾

﴿الشعراء: ١٩٣ - ١٩٥﴾.

﴿الإسراء: 106﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا نُنزِّلُ الْقُرْآنَ إِلَّا فِي نَهْرٍ مِّن مَّاءٍ حَمِيمٍ﴾

﴿الشعراء: ١٩٣ - ١٩٥﴾.

﴿الله الرمن الرجمن﴾ [الفرقان: 32].

روي أن اليهود والمشركين عابوا على النبي ρ نزول القرآن مفرقاً، واقترحوا عليه أن ينزل

جملة واحدة حتى قال اليهود له: يا أبا القاسم لولا أنزل هذا القرآن جملة واحدة كما أنزلت التوراة

على موسى، فأنزل الله هاتين الآيتين رداً عليهم⁽¹⁾، وهذا الرد - كما يقول الزرقاني - يدل على

أمرين:

أحدهما: أن القرآن نزل مفرقاً على النبي ρ .

والثاني: أن الكتب السماوية من قبله نزلت جملة، كما اشتهر ذلك بين جمهور العلماء

حتى كاد يكون إجماعاً.

(1) تفسير ابن أبي حاتم 2689/8، ح 15127 .

ووجه الدلالة على هذين الأمرين: أن الله تعالى لم يكذبهم فيما ادعوا من نزول الكتب السماوية جملة، بل أجابهم ببيان الحكمة من نزول القرآن مفرقاً، ولو كان نزول الكتب السماوية مفرقاً كالقرآن لرد عليهم بالتكذيب، وبإعلان أن التجسيم هو سنة الله فيما أنزل على الأنبياء من قبل، كما رد عليهم حين طعنوا على الرسول وقالوا: "ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق" رد عليهم بقوله: (وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا) [الفرقان: ٢٠] (1).

المطلب الثاني: الحكمة من نزول القرآن منجماً:

ولنزول القرآن الكريم منجماً حكم جليلة، وأسرار عديدة(2). نستطيع أن نجملها فيما يأتي وهي:

الحكمة الأولى: وهي (تثبيت فؤاد النبي (ﷺ) فقد ذكرتها الآية الكريمة في معرض الرد على المشركين، حين اقترحوا أن ينزل القرآن جملة واحدة كما نزلت الكتب السماوية السابقة فرد الله عليهم بقوله: (

﴿مَنْ يَرْثُ يُبْذَرِ فَمَا يَصِمْصِمُ إِلَّا الْأَعْيُنُ عَنَّا حُمَلَاءُ خِفَاءٍ﴾ [الفرقان: ٣٢]، وتثبيت قلب النبي (ﷺ) إنما هو رعاية من

الله، وتأييد لرسوله أمام تكذيب خصومه له وإيذائهم الشديد له ولأتباعه. فقد كانت الآيات الكريمة تنزل على رسول الله (ﷺ) (تسلياً) له وشحذاً لهمته للمضي في طريق الدعوة مهما اعترضته المصاعب والشدائد، وتقوية لقلبه الشريف، فقد تعهده الله سبحانه وتعالى بما يخفف عنه الشدائد والآلام فكان إذا اشتد الأذى عليه نزلت الآيات تسلياً له وتخفيفاً عما يلقاه، وكانت التسلياً تارة عن طريق قصص الأنبياء والمرسلين ليقنني بهم في صبرهم وجهادهم كما قال تعالى: (وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأَوَدُوا حَتَّىٰ اتَّاهُمْ نَصْرُنَا) [الأنعام: 34].

وتارة تكون التسلياً عن طريق إخبار الرسول باندحار أعدائه وانهزامهم كما في قوله تعالى: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ [القمر: 45]، وقوله: (قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَهَابٌ مُمْسِكٌ وَلَهُمْ أَعْيُنٌ عَلَىٰ آلِهِمُ لَا يَبْصُرُونَ لَوْ أَنَّهُمْ رَأَوْا أَنَّهُمْ يُبْعَثُونَ وَسِعْتُمُ الْمَبْدِئَةَ الْأُولَىٰ وَمَا تُبْعَثُونَ لَوْ أَنَّهُمْ رَأَوْا أَنَّهُمْ يُبْعَثُونَ وَسِعْتُمُ الْمَبْدِئَةَ الْآخِرَىٰ لَا يَبْصُرُونَ لَوْ أَنَّهُمْ رَأَوْا أَنَّهُمْ يُبْعَثُونَ وَسِعْتُمُ الْمَبْدِئَةَ الْآخِرَىٰ لَا يَبْصُرُونَ لَوْ أَنَّهُمْ رَأَوْا أَنَّهُمْ يُبْعَثُونَ وَسِعْتُمُ الْمَبْدِئَةَ الْآخِرَىٰ لَا يَبْصُرُونَ) [آل عمران: 12]، إلى آخر ما هنالك من ألوان التخفيف عن قلب الرسول، وتطبيب نفسه وفؤاده، ولا شك أن في تجدد نزول الوحي، وتكرر هبوط الأمين جبريل بالآيات البينات، التي فيها تسلياً للنبي (ﷺ) وفيها الوعد بالنصر والحفظ والتأييد، كان لها أعظم الأثر في تثبيت قلب الرسول لمتابعة الدعوة، والمضي في تبليغ الرسالة الإلهية؛ لأن الله معه، وهل يشعر بالخذلان والفتور من كانت عناية الله تحوطه وعينه ترعاه؟

(1) مناهل العرفان، للزرقاني، 53/1 .

(2) مناهل العرفان، للزرقاني، 53/1، المحرر في علوم القرآن، لمساعد الطيار ص 76، دراسات في علوم القرآن للرومي، ص 208 علوم القرآن الكريم، عتر، ص 25 .

الحكمة الثانية وهي (التلطف بالنبى ρ) عند نزول الوحي، فقد كانت بسبب روعة القرآن وهيبته، كما قال تعالى: (**إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا**) [المزمل: 5]، فالقرآن -كما هو مقطوع به- كلام الله المعجز، الذي له جلال ووقار، وهيبة وروعة وهو الكتاب الذي لو نزل على جبل لتفتت وتصدع من هيبته وجلاله كما قال تعالى: (**لَوْ أَنزَلْنَاهُ كَمَا نَزَّلْنَا لَفُضَّيْحًا لَاجِرًا**) [الحشر: 21]، فكيف إذن بقلب النبي الرقيق، هل يستطيع أن يتلقى جميع القرآن دون أن يتأثر ويضطرب ويشعر بروعة القرآن وجلاله!! ولقد أوضحت السيدة عائشة حال الرسول حين ينزل عليه القرآن، وما يلاقيه من شدة وهول من أثر التنزيل فقالت: " **يُنزَلُ عَلَيْهِ الْوَحْيُ فِي الْيَوْمِ الشَّدِيدِ الْبُرْدِ، فَيَفْصِمُ (أَي يَنْفَصِلُ) عَنْهُ وَإِنَّ جَبِينَهُ لَيَتَفَصَّدُ عَرَقًا**" (1).

الحكمة الثالثة وهي (التدرج في التشريع) فهي جلية واضحة، حيث سلك القرآن الكريم مع البشرية -وخاصة منهم العرب- طريق الحكمة ففطمهم عن الشرك، وأحيا قلوبهم بنور الإيمان، وغرس في نفوسهم حب الله ورسوله، والإيمان بالبعث والجزاء، ثم انتقل بهم بعد هذه المرحلة -مرحلة تثبيت دعائم الإيمان- إلى العبادات فبدأهم بالصلاة قبل الهجرة، ثم تثنى بالصوم وبالزكاة في السنة الثانية من الهجرة، ثم ختم بالحج في السنة السادسة منها، وكذلك فعل في العادات المتوارثة. زجرهم أولاً عن الكبائر، ثم نهاهم عن الصغائر في شيء من الرفق، وتدرج بهم في تحريم ما كان مستأصلاً في نفوسهم كالخمر والربا والميسر، تدرجاً حكيماً، استطاع بذلك أن يقتلع الشر والفساد من جذوره اقتلاعاً كاملاً.

الحكمة الرابعة: فهي (مسايرة الحوادث والوقائع في حينها) والتنبيه على الأخطاء في وقتها، فإن ذلك أوقع في النفس وأدعي إلى أخذ العظة والعبرة منها عن طريق (الدرس العملي) فكلما جدّ منهم جديد نزل من القرآن ما يناسبه، وكلما حدث منهم خطأ أو انحراف، نزل القرآن بتعريفهم وتنبيههم إلى ما ينبغي فعله وما ينبغي تركه، ويبين لهم مواطن الخطأ في ذلك، خذ مثلاً على ذلك (غزوة حنين) فقد دخل الغرور إلى نفوس المسلمين، وقالوا قولة الإعجاب والاعتزاز لما رأوا عددهم يزيد على عدد المشركين أضعافاً مضاعفة، حينذاك داخلهم العجب فقالوا: (لن نغلب اليوم من قلة) وكانت النتيجة انكسارهم وانهزامهم وتولييتهم الأدبار، وفي ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿ **لَمَّا رَأَوْا كَثِيرًا وَكُنَّا عَيْنًا يُبْتِغَى الْوَجْهَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ عَيْنُنَا يُبَلَّغُونَ إِلَيْنَا الْحَبْرَ لِيُنزِلُوا فِي الْيَوْمِ الَّذِي كَانُوا يُعَذِّبُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَلَّتْ بِالطُّغْيَانِ** ﴾ [الأنفال: 17].

(1) يتفصّد عرقاً - يعني: يسيل عرقاً، ومنه الفصد: قطع العرق . شرح صحيح البخارى لابن بطال 51/1، والحديث أخرجه البخاري في صحيحه، بدء الوحي 6/1، ح.2.

نزل جملة واحدة لما أمكن التنبية على الخطأ في حينه، إذ كيف يتصور أن تنزل الآيات في شأن المؤمنين واغترارهم ولم تحدث بعد تلك الواقعة أو الغزوة؟ وكذلك الحال في أخذ الفداء من الأسرى في (بدر) حيث نزل التوجيه السماوي الرائع: ﴿لَا يَأْتِيكُمُ الْقُرْآنُ أَجْزَاءً﴾ [الأنفال: 67].

الحكمة الخامسة: (الإرشاد إلى مصدر القرآن الكريم وأنه تنزيل الحكيم الحميد) وفي هذه الحكمة الجليلة يجدر بنا أن ننقل نص ما كتبه الشيخ (محمد عبد العظيم الزرقاني) في كتابه: "مناهل العرفان" حيث جاء برائع البيان فقال رحمه الله تعالى: (الإرشاد إلى مصدر القرآن، وأنه كلام الله وحده، وأنه لا يمكن أن يكون كلام محمد μ ولا كلام مخلوق سواه.. وبيان ذلك: أن القرآن الكريم نقرؤه من أوله إلى آخره فإذا هو محكم السرد، دقيق السبك، متين الأسلوب، قوي الاتصال، أخذ بعضه برقاب بعض في سوره وآياته وجمله، يجري دم الإعجاز فيه كله من ألفه إلى يائه، كأنه سبيكة واحدة، ولا يكاد يوجد بين أجزائه تفكك ولا تناخل، كأنه سمط وحيد، وعقد فريد، يأخذ بالأبصار، نظمت حروفه وكلماته، ونسقت جملة وآياته.. وهنا نتساءل: كيف اتسق القرآن هذا التأليف المعجز؟ وكيف استقام له هذا التناسق المدهش؟ على حين أنه لم ينتزل جملة واحدة، بل تنزل آحادًا مفرقة تفرق الوقائع والحوادث في أكثر من عشرين عامًا!!

المطلب الثالث: ملاحظة على مدة التنزيل:

تتابع الوحي إلى رسول الله μ بالقرآن على مدى ثلاث وعشرين سنة تقريبًا: هي الفترة ما بين بدء الوحي ووفاته μ في السنة الحادية عشرة للهجرة⁽¹⁾ وذلك في أرجح الروايات؛ لأنه μ مكث بمكة -قبل أن يهاجر إلى المدينة- ما يقرب من ثلاث عشرة سنة. ثم أقام بالمدينة بعد الهجرة قرابة عشر سنين حتى توفي. ويتفق الرواة على أن رسول الله μ أقام بالمدينة عشر سنين لكن هناك شيئاً من الخلاف في الفترة التي أقامها بمكة بعد بدء الوحي إليه، هل هي عشر سنين، أم ثلاث عشرة، أم خمس عشرة سنة، ونحن وإن كنا رجحنا فترة الثلاث عشرة سنة -تبعًا لأكثر العلماء- فإننا نشير إلى أنه ليس لهذا الاختلاف في الرواية أي نتيجة عملية فيما يتصل بآيات القرآن والتاريخ المبكر للدعوة الإسلامية؛ لأن كلا من الفترات الثلاث المرورية في إقامته

(1) ينظر: التقويم العربي قبل الإسلام وتاريخ ميلاد الرسول وهجرته، العلامة محمود باشا الفلكي، وينظر: مدخل إلى الدراسات الإسلامية د. محمد بلتاجي، ص 155 وما بعدها.

بمكة بعد البعثة تتسع لنزول القرآن المكي الذي نزل بها، كما تتسع لكل الأحداث التي مرت بالدعوة الإسلامية ورسول الله ﷺ في مكة قبل الهجرة.

ولو كان لهذا الخلاف الزمني أي نتيجة عملية تتصل بالوحي وآيات القرآن ولو أنه كان يمكن الوصول فيه إلى يقين أو ما يشبهه - لعرضنا له بالتفصيل والاستدلال. على أن هناك دلائل قوية ترجح ما انتهينا فيه وهو فترة الثلاث عشرة سنة. وأياً ما كان الأمر، فقد تتابع الوحي على رسول الله ﷺ حتى قبيل وفاته.

المطلب الرابع: بين العبرة من نزول القرآن منجماً والواقع المعاصر:

وإذا كان لنا أن نأخذ العبرة من مراعاة الوحي لظروف البيئة وعاداتها في التدرج في التشريع على النحو السابق، فإننا يجب أن ننتهي إلى أن أية دعوة إلى إعادة تطبيق التشريع الإسلامي على حياة المسلمين في كل مجالاتها يجب أن تضع في اعتبارها عاداتهم التي عايشتها أجيالهم المتتابة والتي بعدت عن الأوضاع الإسلامية الخالصة، بحيث أصبح من التفكير غير الواقعي أن يتصور إنسان أنه يستطيع إرجاع هذه العادات والأوضاع والأخلاق وأنماط السلوك والتفكير إلى أحكام التشريع الإسلامي بكلمة واحدة وقرار واحد، يفجأ الناس ويفرض عليهم في لحظة واحدة فينصاعون له جميعاً راضين أو ساخطين، إنما الأمر في الحقيقة يحتاج إلى إصلاح عقائد الناس أولاً، وإقناعهم بطرح ما فيها من زيف وضلال. وبعد أن تخلص العقيدة من كل ما يشوبها فإنه يصبح من الممكن بطريق تدريجي تراعى فيه الغاية المقصودة - كما تراعى فيه سيطرة العادات المتحكمة على النفوس - ترويض عادات الناس، بتهيئة الظروف الملائمة التي يقتنعون بها - في مجموعهم - بوجوب تحكيم مفاهيم الإسلام الخالصة في شتى مجالات حياتهم، وتحقيق هذه المفاهيم - حين تطبق بصورة سليمة - لكل ما يهدف إليه الإنسان في حياته الأولى والآخرة من خير وكفاية وسلام نفس وطمأنينة، وإذا صلحت نيات القائمين على ذلك وصح تفكيرهم وإخلاصهم، وتوفرت لهم ظروف ملائمة اقتنع جمهور الناس فيها بهذا الإخلاص ورضوا عنه، فإن هذا التحول نحو الإسلام الخالص في العقيدة والعمل سوف يتحقق بصورة أسرع مما يتصور أكثر الناس تقاؤلاً في هذا الأمر؛ لأن أحكام الإسلام ملائمة تماماً لفطرة الناس الأصلية التي خلقهم الله عليها، وما تزال بذرة الإسلام حية في نفوس الناس. إن تطبيق الشريعة الإسلامية لا بد أن يبدأ، فالقرآن بدأ بتثبيت العقيدة أولاً ثم جاء دور الأحكام فأنعم به من كتاب دستور حياة وطريق مستقيم.

المبحث الثالث: معرفة أول وآخر ما نزل، وفوائده:

المطلب الأول: أول ما نزل من القرآن على الإطلاق:

للعلماء في ذلك أقوال عدة، نجلها فيما يلي:

القول الأول: أن أول ما نزل من القرآن سورة (العلق)، وهو قول (ابن عباس، علي، وعائشة، وابن الزبير، وعبيد بن عمير، وعطاء بن يسار، ومحمد بن عباد بن جعفر، وإبراهيم النخعي، والحسن البصري وعكرمة، ومجاهد، والزهري)⁽¹⁾.

دليله: أخرجه البخاري في صحيحه عن عائشة زوج النبي ع قالت: كَانَ أَوَّلَ مَا بُدِيَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الرُّؤْيَا الصَّادِقَةُ فِي النَّوْمِ، فَكَانَ لَا يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ، ثُمَّ حُبِبَ إِلَيْهِ الْخَلَاءُ، فَكَانَ يَلْحَقُ بِعَارِ حِرَاءٍ، فَيَتَحَنَّنُ فِيهِ، قَالَ: وَالَّتْحَنُّنُ التَّعَبُّدُ اللَّيَالِي ذَوَاتِ الْعَدَدِ، قَبْلَ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى أَهْلِهِ، وَيَتَزَوَّدُ لِذَلِكَ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى خَدِيجَةَ، فَيَتَزَوَّدُ بِمِثْلِهَا، حَتَّى فَجِئَهُ الْحَقُّ وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءٍ، فَجَاءَهُ الْمَلَكُ فَقَالَ: اقْرَأْ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، قَالَ: فَأَخَذَنِي فَعَطَّنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدُ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: اقْرَأْ، فُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، فَأَخَذَنِي فَعَطَّنِي الثَّانِيَةَ، حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدُ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: اقْرَأْ، فُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، فَأَخَذَنِي فَعَطَّنِي الثَّالِثَةَ، حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدُ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ:

﴿قَالَ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ﴿العلق: 1 - 5﴾ (2) ... الحديث.

القول الثاني: أن أول ما نزل من القرآن هو قوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [المدثر: 1].

دليله: ما أخرجه الشيخان⁽³⁾ عن يحيى بن أبي كثير قال: سألت أبا سلمة أي القرآن أنزل أول؟ فقال: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ﴿العلق: 1﴾ فقال أبو سلمة: سألت جابر بن عبد الله: أي القرآن أنزل أول؟ فقال: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ﴿العلق: 1﴾ فقال: أنبئت أنه: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

(1) تفسير الطبري 521/24، تفسير السمعاني 255/6، تفسير البغوي 4/ 506، زاد المسير، لابن الجوزي: 175/9، تفسير القرطبي 118/20، الإتيان، للسيوطي 74/1.

(2) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب التفسير، سورة العلق، 4/1894، ح 4670.

(3) صحيح البخاري: كتاب التفسير، سورة المدثر، باب وريك فكبر 4/1875، ح 4640، صحيح مسلم: كتاب الإيمان، باب بدء الوحي إلى الرسول ع 1/ 143، ح 257. واللفظ للبخاري.

﴿.....﴾ فَقَالَ: لَا أُخْبِرُكَ إِلَّا بِمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: جَاوَرْتُ فِي حِرَاءٍ، فَلَمَّا قَضَيْتُ جَوَارِي، هَبَطْتُ، فَاسْتَبَطَنْتُ الْوَادِي، فَتَوَدَيْتُ، فَتَنْطَرْتُ أَمَامِي وَخَلْفِي وَعَنْ يَمِينِي وَعَنْ شِمَالِي، فَإِذَا هُوَ جَالِسٌ عَلَى عَرْشٍ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، فَأَتَيْتُ خَدِجَةَ فَقُلْتُ: دَبِّرُونِي وَضَبُّوا عَلَيَّ مَاءً بَارِدًا، وَأَنْزِلْ عَلَيَّ: (.....) ﴿.....﴾

﴿.....﴾ [المدثر: 1-3].

وهذا القول لم يحظ بقبول من العلماء فقد أجاب عنه العلماء بعدة بأجوبة عدة منها:

الأول: قد جاءت عبارات وشواهد في روايات أخرى من قول جابر نفسه ترد هذا القول وهي قوله: "وهو يحدث عن فترة الوحي"، وقوله: "فَإِذَا الْمَلِكُ الَّذِي جَاءَنِي بِحِرَاءٍ.." (1) ففي هذه العبارات دلالة على أن سورة المدثر ليست أول ما نزل.

الثاني: أن مراد جابر بالأولية أولية مخصوصة بما بعد فترة الوحي، لا أولية مطلقة.

الثالث: أن المراد أولية مخصوصة بالأمر بالإنذار، وعبر بعضهم عن هذا بقوله: أول

ما نزل للنبوذة ﴿.....﴾ وأول ما نزل للرسالة: (.....) ﴿.....﴾.

الرابع: أن المراد أول ما نزل بسبب متقدم، وهو ما وقع من التدثر الناشئ عن الرعب

وأما [أقرأ] فنزلت ابتداء بغير سبب متقدم، ذكره الحافظ ابن حجر.

(1) صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، سورة المدثر، باب وثيابك فطهر، 6 / 162، ح 4925.

الخامس: أن جابرًا ٢ استخرج ذلك باجتهاده وليس هو من روايته، فيقدم عليه ما روته عائشة رضي الله عنها⁽¹⁾.

القول الثالث: أول ما نزل من القرآن هو سورة "الفاتحة".

قال الإمام الزمخشري: "أكثر المفسرين على أن الفاتحة أول ما نزل ثم سورة القلم"⁽²⁾.
دليل هذا القول:

ما أخرجه البيهقي في الدلائل عن أبي ميسرة عمرو بن شرحبيل أن رسول الله قال لخديجة: إِذَا خَلَوْتُ وَخَدِي سَمِعْتُ نِدَاءَ خَلْفِي: يَا مُحَمَّدُ، يَا مُحَمَّدُ، فَأَنْطَلِقُ هَارِبًا فِي الْأَرْضِ فَقَالَ: -ورقة- لا تَفْعَلْ، فَإِذَا أَتَاكَ فَأَثْبِتْ حَتَّى تَسْمَعَ مَا يَقُولُ، ثُمَّ انْتِنِي فَأَخْبِرْنِي، فَلَمَّا خَلَا نَادَاهُ يَا مُحَمَّدُ قُلْ: {بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [الفاتحة: 2] حَتَّى بَلَغَ {وَلَا الضَّالِّينَ} [الفاتحة: 7]"⁽³⁾. قال الإمام البيهقي: "إن كان محفوظًا يحتمل أن يكون خبرًا عن نزولها بعدما نزلت عليه اقرأ والمدثر"⁽⁴⁾.

وهذا القول لم يحظ بالقبول من العلماء.

قال الحافظ ابن حجر: "وأما الذي نسبته - أي الزمخشري - إلى الأكثر، فلم يقل به إلا عدد أقل من القليل بالنسبة إلى من قال بالأول"⁽⁵⁾.

وقال الإمام الصالحي: "وشذ صاحب الكشاف فقال: إن أكثر المفسرين على أن أول سورة نزلت الفاتحة. وهذا وهم بلا شك"⁽⁶⁾.

وقال الشيخ الزرقاني: "هذا الحديث لا يصلح للاحتجاج به على أولية ما نزل مطلقًا وذلك من وجهين:

أحدهما: أنه لا يفهم من هذه الرواية أن الفاتحة التي سمعها الرسول ٤ كانت في فجر النبوة أول عهده بالوحي الجلي، وهو في غار حراء، بل يفهم منها أن الفاتحة كانت بعد ذلك العهد، وبعد أن أتى الرسول إلى ورقة وبعد أن سمع النداء من خلفه غير مرة وبعد أن أشار عليه ورقة أن يثبت عند هذا النداء حتى يسمع ما يلقي إليه، وليس كلامنا في هذا إنما هو فيما نزل أول مرة.

(1) فتح الباري، لابن حجر، 678/8، الإتيان، للسيوطي، 75-76، مرقاة المفاتيح، للقاري، 526/10، مباحث

في علوم القرآن، للقطان، ص 67.

(2) الكشاف، للزمخشري، 4/781.

(3) دلائل النبوة، للبيهقي، 2/158، الإتيان، للسيوطي، 1/76، قال الحافظ السيوطي: "مرسل، رجاله ثقات.

(4) المصدر السابق، 1/76.

(5) فتح الباري، لابن حجر، 8/714.

(6) سبل الهدى والرشاد، للصالحي، 2/241.

الثاني: أن هذا الحديث مرسل، سقط من سنده الصحابي فلا يقوى على معارضة حديث عائشة السابق في بدء الوحي وهو مرفوع إلى النبي ﷺ، فبطل إذاً هذا الرأي الثالث وثبت الأول أيضاً⁽¹⁾.

القول الرابع: هو القول الأول القائل: إن أول ما نزل سورة العلق لقوة أدلته، وسلامته من الاعتراض.

قال الإمام النووي: "أول ما نزل من القرآن قرأ وهذا هو الصواب الذي عليه الجماهير من السلف والخلف"⁽²⁾.

وقال الإمام البغوي⁽³⁾ والإمام الخازن⁽⁴⁾: "أكثر المفسرين على أن هذه السورة أول سورة نزلت من القرآن".

المطلب الثاني: آخر ما نزل:

اختلف العلماء في آخر ما نزل من القرآن على أقوال هي:

1. أن آخر ما نزل آية الدين وهي قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ) [البقرة: 282]، ودليله ما أخرجه الإمام الطبري عن سعيد بن المسيب: "أَنَّهُ بَلَغَهُ أَنَّ أَحَدَتِ الْقُرْآنَ بِالْعَرْشِ آيَةَ الدِّينِ"⁽⁵⁾.
 2. أن آخر ما نزل قول الله تعالى (وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ) ([البقرة: 281] وهو قول ابن عباس، فقد أخرج الإمام النسائي عن ابن عباس قال: أَخْرَجُ شَيْءٍ نَزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ (وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ) ⁽⁶⁾.
 3. أن آخر ما نزل من القرآن هو قوله تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ) [البقرة: 278].
- أخرج الإمام البخاري قال: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: أَخْرَجُ آيَةَ نَزَلَتْ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ آيَةَ الرِّبَا⁽¹⁾.

(1) مناهل العرفان، للزرقاني، ج1، ص69 .

(2) شرح النووي على صحيح مسلم: ج2، ص199 .

(3) تفسير البغوي: ج4، ص506 .

(4) لباب التأويل في معاني التنزيل، الخازن: ج7، ص267

(5) تفسير الطبري، 41/6، ح6316، وإسناده ضعيف لإرساله؛ إذ لم يذكر ابن المسيب من حديثه به.

(6) السنن الكبرى للنسائي: كتاب التفسير، قوله تعالى: واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله. 07/6، ح11057 .

4. أن آخر آية نزلت قوله تعالى: (يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ) [النساء: 176]. ودليله ما رواه البراء τ قال: أَخْرُ آيَةٌ نَزَلَتْ: (يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ) وَأَخْرُ سُورَةَ نَزَلَتْ بَرَاءَةً⁽²⁾.

القول الراجح: بالنظر إلى الأقوال السابقة يتبين لنا:

أولاً: أن القول الأول القائل: إن آخر ما نزل هو آية الدين، قول مردود لضعفه.

ثانياً: وأما قول من قال: إن آخر ما نزل (يستفتونك)، فمراده آخر آية في المواريث⁽³⁾، فهي آخريه مقيدة لا مطلقة.

قال الزرقاني: "يمكن نقض هذا الاستدلال بحمل الخبر المذكور على أن الآية آخر ما نزل في المواريث وأن السورة آخر ما نزل في شأن تشريع القتال والجهاد فكلاهما آخر إضافي لا حقيقي⁽⁴⁾."

ثالثاً: أما الأقوال الأخرى فللعلماء فيها رأيان:

الأول: هو الجمع بين هذه الأقوال:

قال السيوطي: ولا منافاة عندي بين هذه الروايات؛ لأن الظاهر أنها نزلت دفعة واحدة كترتيبها في المصحف؛ ولأنها قصة⁽⁵⁾.

القول الثاني: هو الترجيح بينها:

إن أرجح هذه الأقوال هو قول من قال: إن آخر ما نزل من القرآن قوله تعالى [وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ] {البقرة آية 281}.

(1) المراد بها قوله تعالى: (يَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا)، والحديث في صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، سورة البقرة، باب واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله، ص 32/6، 4544.

(2) صحيح البخاري: كتاب التفسير سورة براءة، 4/1709، ح 4377.

(3) ينظر: فتح الباري لابن حجر، 8/205، الكوثر الجاري إلى رياض أحاديث البخاري، للكوراني، 8/46، منحة الباري بشرح صحيح البخاري، للسنيكي، 7/446.

(4) مناهل العرفان، للزرقاني، 1/99.

(5) الإتيان في علوم القرآن، للسيوطي، 1/102.

قال الشيخ الزرقاني: أقول ولكن النفس تستريح إلى أن آخر هذه الثلاثة نزولا هو قول الله تعالى: (وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ) [البقرة: 281] وذلك لأمرين:

أحدهما: ما تحمله هذه الآية في طياتها من الإشارة إلى ختام الوحي والدين بسبب ما تحث عليه من الاستعداد ليوم المعاد وما تنوّه به من الرجوع إلى الله واستيفاء الجزاء العادل من غير غبن ولا ظلم وذلك كله أنسب بالختم من آيات الأحكام المذكورة في سياقها.
ثانيهما: التنصيص في رواية ابن أبي حاتم السابقة على أن النبي عاش بعد نزولها تسع ليال فقط ولم تظفر الآيات الأخرى بنص مثله⁽¹⁾.

قلت: الذي تميل إليه النفس هو الجمع بين قول من قال: إن آخر ما نزل آية الربا، وقول من قال: إن آخر ما نزل آية: (وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ)؛ لأنها متصلة بآية الربا اتصالاً تاماً، وأن القولين مرويان عن ابن عباس.
وقد تنبه إلى ذلك الإمام البخاري فقد ترجم لحديث ابن عباس في آية الربا بقوله باب: (وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ)⁽²⁾.

قال الحافظ ابن حجر: "ولعله أراد أن يجمع بين قولي ابن عباس فإنه جاء عنه ذلك من هذا الوجه وجاء عنه من وجه آخر، آخر آية نزلت على النبي ﷺ واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله"⁽³⁾.

المطلب الثالث: أوائل موضوعية.

تناول العلماء أوائل ما نزل بالنسبة إلى موضوعات خاصة، ومن ذلك:

أول ما نزل في الأطفمة:

آية الأنعام: (قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهْلًا لغيرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) [الأنعام: 145].

ثم آية النحل: (فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنَّ كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ) (114) إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ [النحل: 114:115].

(1) الإتيان، للسيوطي، 1/ 99، مدخل إلى التفسير وعلوم القرآن، عبد الجواد خلف ص181، مناهل العرفان، للزرقاني، 70/1.

(2) صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، سورة البقرة، باب: واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله. 32/6، 4544.

(3) فتح الباري، لابن حجر، 8/ 205.

ثم آية البقرة: (إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهْلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) [البقرة: 173].

ثم آية المائدة: (حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْفُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَبْسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنَ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنْ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) [المائدة: 3].

أول ما نزل في الخمر:

آية البقرة: (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا) [البقرة: 219].

ثم آية النساء: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرُبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ) [النساء: 43].

ثم آية المائدة: (إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رَجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ) [المائدة: 90-91].

أول ما نزل في القتال:

قال ابن عباس: أول آية نزلت في القتال (أُوذِيَ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ) [الحج: 39] (1).

فوائد معرفة أول ما نزل وآخر ما نزل:

1 . بيان العناية الكبرى التي نالها القرآن الكريم، حيث قام علماء الأمة وعلى رأسهم الصحابة الكرام بالضبط والصيانة للقرآن الكريم، حرفاً حرفاً وآية آية، فوعوا حروف القرآن وآياته، وأماكن نزوله، وكان من ثمار ذلك أن سلم القرآن من التحريف والتبديل مصداقاً لقوله تعالى: (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) [الحجر: 9].

2 . الوقوف على أسرار التشريع، فلقد نزل القرآن الكريم لمعالجة الأمراض التي توغلت في النفوس البشرية، ونجح القرآن في انتزاع هذه الأمراض والقضاء عليها بأرقى الأساليب التي عرفت البشرية، واستطاع بمنهجه الحكيم الترقى بالبشرية إلى الكمال، حتى تستقيم الحياة البشرية على المحجة البيضاء.

(1) لم نذكر جميع الروايات ، واكتفينا ببعض، وعلى من يريد الاستزادة فليراجع الموضوع في: مناهل العرفان، للزرقاني، ج1، ص71.

3 . تمييز الناسخ من المنسوخ: فقد ترد الآياتان أو الآيات في موضوع واحد، ويختلف الحكم في إحداها عن الأخرى، فإذا عرف ما نزل أولاً وما نزل آخرًا، كان حكم ما نزل ناسخًا لحكم ما نزل أولاً.

المبحث الرابع: القراءات القرآنية، والأحرف السبعة

المطلب الأول: تعريف القراءات، وعلاقتها بالقرآن

أولاً: تعريف القراءات لغةً: جمع قراءة، وهي مصدر: قرأ قراءةً وقرآنًا، بمعنى: تلا تلاوةً، وهي في الأصل بمعنى: الجمع والضم. تقول: قرأت الماء في الحوض، أي: جمعته فيه، وسُمِّي القرآن قرآنًا، لأنه يجمع الآيات والسور، ويضم بعضها إلى بعض (1).

ثانياً: تعريف القراءات اصطلاحًا، ومكانتها:

قال العلامة ابن الجزري -رحمه الله-: هو علم بكيفية أداء كلمات القرآن واختلافها معزواً لناقلها (2). وإن شرف العلوم من شرف موضوعها، وموضوع علم القراءات كتاب الله تعالى الذي (لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ) [فصلت: 42]، لذا فإن هذا العلم من أشرف العلوم قدرًا وأعظمها شأنًا.

ثالثاً: علاقتها بالقرآن الكريم: القرآن والقراءات حقيقتان بمعنى واحد؛ لأن القرآن مصدر مرادف للقراءة، والقراءات جمع قراءة. إذن فهما حقيقتان بمعنى واحد، كما أن أحاديث نزول القرآن على الأحرف السبعة تدل دلالة واضحة على أنه لا فرق بينهما (3).
الدليل على ذلك:

أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أبي بن كعب: أن النبي ﷺ كَانَ عِنْدَ أَضَاةٍ بَنِي غِفَارٍ (4). قَالَ: فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَقْرَأَ أُمَّتَكَ الْقُرْآنَ عَلَى حَرْفٍ، فَقَالَ: أَسْأَلُ اللَّهَ مُعَافَاتَهُ وَمَغْفِرَتَهُ وَإِنَّ أُمَّتِي لَا تُطِيقُ ذَلِكَ ثُمَّ أَتَاهُ الثَّانِيَةَ فَقَالَ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَقْرَأَ أُمَّتَكَ الْقُرْآنَ عَلَى حَرْفَيْنِ فَقَالَ: أَسْأَلُ اللَّهَ مُعَافَاتَهُ وَمَغْفِرَتَهُ، وَإِنَّ أُمَّتِي لَا تُطِيقُ ذَلِكَ. ثُمَّ جَاءَهُ الثَّلَاثَةَ فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَقْرَأَ أُمَّتَكَ الْقُرْآنَ عَلَى ثَلَاثَةِ أَحْرَفٍ، فَقَالَ: أَسْأَلُ اللَّهَ مُعَافَاتَهُ

(1) لسان العرب، لابن منظور، 130/1، مادة (قرأ) مختار الصحاح، الرازي، ص 220 مادة (قرأ) .

(2) منجد المقرئين ومرشد الطالبين، لابن الجزري ص 9 .

(3) جمع القرآن الكريم في عهد الخلفاء الراشدين، لعبد القيوم السندي، ص 13، موسوعة علوم القرآن، عبد القادر منصور، ص 196 .

(4) وأضاة بني غفار هي بفتح الهمزة والضاد المعجمة بغير همز وآخره تاء تأنيث، وهو موضع بالمدينة النبوية ينسب إلى بني غفار بكسر المعجمة وتخفيف الفاء لأنهم نزلوا عنده. فتح الباري، لابن حجر، ج 9، ص 28.

وَمَغْفِرَتُهُ، وَإِنَّ أُمَّتِي لَا تُطِيقُ ذَلِكَ. ثُمَّ جَاءَهُ الرَّابِعَةُ فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَقْرَأَ أُمَّتَكَ الْقُرْآنَ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرَفٍ فَأَيُّمَا حَرْفٍ قَرَأْتُمْ عَلَيْهِ فَقَدْ أَصَابُوا(1).

يتضح من هذا الحديث أنه لا فرق بين القرآن والقراءات، وأن كلاهما وحي من الله تعالى.

المطلب الثاني: أقسام القراءات، وأركان القراءة الصحيحة، و هل القراءات السبع هي

الأحرف السبعة:

أولاً: أقسام القراءات:

1. متواترة، وهي التي تتوافر فيها أركان القراءة الصحيحة.

2. شاذة، وهي التي فقدت ركناً من أركان القراءة الصحيحة.

ثانياً: أركان القراءة الصحيحة:

وضع العلماء أركاناً للقراءة، وذلك للتمييز بين القراءات الصحيحة والشاذة، وهي:

1. صحة سندها بالتواتر إلى رسول الله p من أول السند إلى آخره.

بأن يرويها عدول ضابطون عن مثلهم من أول السند إلى آخره من غير شذوذ ولا علة

قادرة.

2. موافقة أحد المصاحف العثمانية ولو احتمالاً.

إن موافقة الرسم قد تكون تحقيقاً أو تقديراً، كما في قوله تعالى: "مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ" الفاتحة:

4 « [قراءة حذف الألف "ملك" لنافع وابن كثير وأبي عمرو وابن عامر وحمزة وأبي جعفر. هذه

القراءة تحتل اللفظ تحقيقاً.

وقراءة "مالك" لعاصم والكسائي ويعقوب وخلف في اختياره تحتل إثبات الألف تقديراً.

وقد تكون القراءة ثابتة في المصاحف العثمانية دون بعض ومثال ذلك الآية من سور

التوبة: وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ

اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ [التوبة: 100].

قرأ ابن كثير المكي جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ بزيادة) من (وهي ثابتة في المصحف المكي

دون غيره من المصاحف.

(1) كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب بيان أن القرآن أنزل على سبعة أحرف، 562/1، ح 274 .

مثال ذلك قراءة ابن عامر: (وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ) البقرة: 116] بغير واو، في المصحف الشامي فقط⁽¹⁾، وفي بقية المصاحف بالواو، فلو كانت مخالفة لرسم جميع المصاحف العثمانية، لحكم بشذوذها.

3 . موافقة اللغة العربية ولو بوجه.

سواء أكان هذا الوجه مجمعا عليه، أم مختلفا فيه اختلافا لا يضر مثله مع قوته، ولا يشترط في قبول القراءة أن تكون موافقة لأفصح الأوجه، أو لوجه مجمع عليه بين النحاة، ولذلك لا يُعبأ بقدر بعض النحاة في بعض الأوجه⁽²⁾.

وقد لخصها ابن الجزري بقوله:

فكل ما وافق وجه نحو	وكان للرسم احتمالا يحوي
وصح إسنادا هو القرآن	فهذه الثلاثة الأركان
وحيثما يختل ركن أثبت	شذوذه لو أنه في السبعة ⁽³⁾

ومتى اختل ركن من هذه الأركان الثلاثة أطلق على القراءة ضعيفة أو شاذة أو باطلة⁽⁴⁾:

ثالثا: هل القراءات السبع هي الأحرف السبعة؟

يعتقد بعض الناس أن القراءات السبع هي الأحرف السبعة، وهذا خطأ. قال العلامة مكي بن أبي طالب" إن هذه القراءات كلها التي يقرأ بها الناس اليوم، وصحت روايتها عن الأئمة، إنما هي جزء من الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن، ووافق اللفظ بها خط المصحف، مصحف عثمان الذي أجمع الصحابة، فمن بعدهم عليه⁽⁵⁾.

المطلب الثالث: حكم تعلم القراءات:

تعلم القراءات فرض كفاية، فإن لم يكن يصح له إلا واحد، تعين عليه، وإن كان جماعة يحصل المقصود ببعضهم، فإن امتنعوا كلهم أثموا، وإن قام به بعضهم سقط الحرج عن الباقيين، وإن طلب من أحدهم وامتنع فأظهر الوجهين أنه لا يَأثم لكن يكره له ذلك إن لم يكن له عذر⁽⁶⁾.

(1) مختصر التبيين لهجاء التنزيل، لأبي داود الأندلسي، 202/2 .

(2) الهادي شرح طيبة النشر في القراءات العشر، لمحمد سالم محيسن، 19/1 .

(3) طيبة النشر في القراءات العشر، لابن الجزري ص32 .

(4) النشر في القراءات العشر، لابن الجزري 9/1 .

(5) الإبانة عن معاني القراءات، لمكي بن أبي طالب ص32 .

(6) منجد المقرئين ومرشد الطالبين، لابن الجزري ص16.

المطلب الرابع: أهم المؤلفات في علم القراءات:

كثرت المؤلفات في القراءات ما بين منظوم ومنثور، ومطوّل ومختصر؛ كما تنوعت اتجاهاته.

وأهم المؤلفات في علم القراءات:

- (1) (السبعة في القراءات) لأحمد بن موسى بن العباس التميمي، ابن مجاهد البغدادي، المتوفى سنة أربع وعشرين وثلاثمائة.
- (2) (الإبانة عن معاني القراءات) لمكي بن أبي طالب بن القيسي المتوفى سنة سبع وثلاثين وأربعمائة.
- (3) (حزر الأمانى ووجه التهاني) نظم في القراءات السبع، للإمام الشاطبي، المتوفى سنة ثمان وأربعين وخمسمائة.
- (4) (إبراز المعاني من حزر الأمانى - شرح على الشاطبية) لعبد الرحمن بن إسماعيل الشهير بأبي شامة المتوفى سنة خمس وستين وستمائة.
- (5) (تعبير التيسير في القراءات العشر من طريق الشاطبية والدرّة) وكتاب (النشر في القراءات العشر) وهما للإمام محمد بن محمد بن الجزري المتوفى سنة اثنين وثلاثين وثمانمائة.

المطلب الخامس: الأحرف السبعة

أولاً: المراد بالأحرف السبعة:

قال القرطبي: "اختلف الناس في المراد بالأحرف السبعة على خمسة وثلاثين قولاً..."⁽¹⁾، وقال السيوطي: "اختلف في معنى الحديث على نحو أربعين قولاً"⁽²⁾

أهم هذه الأقوال:

القول الأول: أن المراد بالأحرف السبعة سبع قراءات. وهو قول الخليل بن أحمد، واختاره الخازن⁽³⁾

وهذا القول ضعيف، ضعفه كثير من العلماء. بل ذهب الإمام الزركشي إلى أنه أضعف الأقوال⁽⁴⁾. وقال الإمام القرطبي: "وهذا ليس بشيء لظهور بطلانه"⁽¹⁾.

(1) تفسير القرطبي 42/1 .

(2) الإتيان، للسيوطي، 130/1 .

(3) التمهيد لابن عبد البر 274/8، لباب التأويل في معاني التنزيل، الخازن 12/1، البرهان في علوم القرآن، الزركشي، 214/1، الإتيان، للسيوطي، 130/1 .

(4) البرهان في علوم القرآن، الزركشي، 214/1 .

القول الثاني: المراد بالأحرف السبعة: معاني كتاب الله تعالى وهي: أمر، ونهي، ووعيد، ووعد، وقصص، ومجادلة، وأمثال"

ورد هذا القول كثير من أهل العلم: منهم الإمام الطبري⁽²⁾، والإمام ابن عطية⁽³⁾

القول الثالث: المراد سبع لغات من لغات العرب⁽⁴⁾ نزل عليها القرآن⁽⁵⁾

قال أبو بكر الباقلاني رحمه الله: "هذا باطل"⁽⁶⁾.

القول الرابع: المراد بالأحرف السبعة وجوه التغاير السبعة التي وقع فيها الاختلاف. وهو

قول الباقلاني⁽⁷⁾. وهو مردود؛ لأنه لا يتفق والحكمة من إنزال القرآن على سبعة أحرف.

القول الخامس: أن المراد بالأحرف السبعة التوسعة والتسهيل ولم يقصد به الحصر. وإليه

جرح القاضي عياض⁽⁸⁾.

وهو مردود؛ لأن المراد حقيقة العدد.

القول السادس: وهو القول الراجح: أن معنى الأحرف السبعة: سبعة أوجه من المعاني

المتفقة المتقاربة بألفاظ مختلفة نحو: أقبل، وتعال، وهلم، وإليّ، ونحوي، وقصدي، وقربي.

قال علي وابن عباس: «نزل القرآن بلغة كل حي من أحياء العرب»⁽⁹⁾.

وهو الذي عليه أكثر أهل العلم: ابن عباس، وعلي بن أبي طالب، وسفيان بن عيينة، وعبد الله

بن وهب، وابن جرير الطبري، والقرطبي، وابن كثير، والطحاوي، وابن عبد البر، ومال إليه

الحافظ ابن حجر⁽¹⁾.

(1) تفسير القرطبي، 46/1 .

(2) تفسير الطبري، 48/1 .

(3) المحرر الوجيز، لابن عطية، 4443/1 .

(4) اختلف القائلون بهذا في تعيين السبع فأكثر، وقال بعضهم: أصل ذلك وقاعدته قريش، ثم بنو سعد بن

بكر؛ لأن النبي ﷺ استرضع فيهم، ونشأ وترعرع، وهو مخالط في اللسان كنانة، وهذيل، وثقيفا، وخزاعة،

وأسدا، وضبة وألفافها، لقريهم من مكة، وتكرارهم عليها، ثم من بعد هذه تميمة، وقيسا، ومن انضاف إليهم

وسكن جزيرة العرب . البرهان في علوم القرآن، الزركشي، 219/1 .

(5) المحرر الوجيز، لابن عطية، 45/1، فتح الباري، لابن حجر، 27/9، روح المعاني، للألوسي، 21/1 .

(6) المحرر الوجيز، لابن عطية، 44/1، ونكت الانتصار للباقلاني (403هـ) ص119، ط(منشأ المعارف،

الإسكندرية، تحقيق د، محمد زغلول سلام .

(7) التمهيد لابن عبد البر 295/8، المحرر الوجيز، لابن عطية، 43/1، تفسير القرطبي، 45/1، البرهان في علوم

القرآن، الزركشي، 214/1 / عمدة القاري، البدر العيني، 259/12 .

(8) لباب التأويل في معاني التنزيل، للخازن، 12/1، عمدة القاري، البدر العيني، 259/12، عون المعبود،

للعظيم آبادي، 245/4، مناهل العرفان، للزرقاني، 121/1 .

(9) المرشد الوجيز إلى علوم تتعلق بالكتاب العزيز، لأبي شامة، 96/1 .

قال العلامة أبو شامة: «هذا هو الحق، لأنه إنما أبيح أن يقرأ بغير لسان قريش توسعة على العرب، فلا ينبغي أن يوسع على قوم دون قوم، فلا يكلف أحد إلا قدر استطاعته»⁽²⁾. قال البقاعي: "وهذا في غاية الموافقة للأحاديث الذاكرة أن السبب في المراجعة: التخفيف على الأمة"⁽³⁾.

قال الزرقاني: "وهذا القول منسوب لجمهور أهل الفقه والحديث"⁽⁴⁾. وقد اختاره من المتأخرين كل من الدكتور محمد سالم محيسن⁽⁵⁾، والدكتور محمد أبو شهبه⁽⁶⁾، وغيرهما، وأطالا في الاستدلال لصحته، ورد الاعتراضات الواردة عليه.

وله أدلة كثيرة تؤيده منها:

1. أخرج الإمام أبو عبيد بسنده عن عبد الله قال: سَمِعْتُ الْقِرَاءَةَ فَوَجَدْنَا هُمْ مُتَقَارِبِينَ، أَقْرَأُوا مَا عَلَّمْتُمْ، وَإِيَّاكُمْ وَالْتَنَطُّعُ وَالْإِخْتِلَافُ، فَإِنَّمَا هُوَ كَقَوْلِ أَحَدِهِمْ: هَلُمَّ وَتَعَالِ وَأَقْبِلْ⁽⁷⁾.
 2. وأخرج الإمام أحمد في مسنده عن أبي بكر: أَنَّ جَبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، أَقْرَأِ الْقُرْآنَ عَلَى حَرْفٍ. قَالَ مِيكَائِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: اسْتَرَدَّهُ. فَاسْتَرَدَّهُ قَالَ: أَقْرَأْهُ عَلَى حَرْفَيْنِ. قَالَ مِيكَائِيلُ: اسْتَرَدَّهُ. فَاسْتَرَدَّهُ حَتَّى بَلَغَ سَبْعَةَ أَحْرَفٍ، قَالَ: كُلُّ شَافٍ كَافٍ، مَا لَمْ تَخْتِمْ آيَةَ عَذَابٍ بِرَحْمَةٍ، أَوْ آيَةَ رَحْمَةٍ بِعَذَابٍ، نَحْوَ قَوْلِكَ: تَعَالِ وَأَقْبِلْ، وَهَلُمَّ وَأَذْهَبْ، وَأَسْرِعْ وَأَعْجَلْ⁽⁸⁾.
- قال الإمام الطبري: "فقد أوضح نصُّ هذا الخبر أنَّ اختلاف الأحراف السبعة، إنما هو اختلاف ألفاظ، كقولك "هلم وتعال" باتفاق المعاني، لا باختلاف معانٍ موجبة اختلاف أحكام"⁽⁹⁾.

(1) الاستذكار لابن عبد البر 482/2، البرهان في علوم القرآن، الزركشي، 220/1، فتح الباري، لابن حجر، 28/9، الإتيان، للسيوطي، 132/1 /سبل الهدى والرشاد، للصالح، 288/10، روح المعاني، للأوسى 20/1 .

(2) المرشد الوجيز إلى علوم تتعلق بالكتاب العزيز، لأبي شامة 97/1 .

(3) مساعد النظر للإشراف على مقاصد السور، للبقاعي 389/1 .

(4) مناهل العرفان، للزرقاني، 123/1.

(5) القراءات وأثرها في علوم العربية، محمد سالم محيسن 21/1 .

(6) المدخل لدراسة القرآن، لأبي شهبه ص202.

(7) فضائل القرآن لأبي عبيد، 173، ح716، وصححه الشيخ مجدي السيد، وينظر تفسير الطبري، 50/1، ح48 . قال الشيخ شاكر: "إسناده عال جدًا .

(8) مسند أحمد 146-147، ح20514، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد 151/7، وقال: "فيه علي ابن زيد بن جدعان وهو سيء الحفظ وقد توبع وبقية رجال أحمد رجال الصحيح"، وجوده السيوطي والقاري، ينظر: الإتيان، للسيوطي، 1/ 133، مرقاة المفاتيح، للقاري 455/1 .

(9) تفسير الطبري 50/1 .

ثانيا: بعض الأحاديث الواردة في نزول القرآن على سبعة أحرف:

أخرج الإمام البخاري بسنده عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، أن رسول ﷺ قال: «أَفْرَأَيْ جَبْرِيلُ عَلَى حَرْفٍ، فَرَأَجَعْتُهُ، فَلَمْ أَزَلْ أُسْتَزِيدُهُ وَيَزِيدُنِي، حَتَّى انْتَهَى إِلَى سَبْعَةِ أَحْرَفٍ» (1).

وعن أبي بن كعب: أن النبي ﷺ كَانَ عِنْدَ أَصَاةِ بَنِي غِفَارٍ قَالَ: فَأَتَاهُ جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَقْرَأَ أُمَّتَكَ الْقُرْآنَ عَلَى حَرْفٍ، فَقَالَ: أَسْأَلُ اللَّهَ مُعَافَاتَهُ وَمَغْفِرَتَهُ وَإِنَّ أُمَّتِي لَا تُطِيقُ ذَلِكَ ثُمَّ أَتَاهُ الثَّانِيَةَ فَقَالَ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَقْرَأَ أُمَّتَكَ الْقُرْآنَ عَلَى حَرْفَيْنِ فَقَالَ: أَسْأَلُ اللَّهَ مُعَافَاتَهُ وَمَغْفِرَتَهُ، وَإِنَّ أُمَّتِي لَا تُطِيقُ ذَلِكَ. ثُمَّ جَاءَهُ الثَّلَاثَةَ فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَقْرَأَ أُمَّتَكَ الْقُرْآنَ عَلَى ثَلَاثَةِ أَحْرَفٍ، فَقَالَ: أَسْأَلُ اللَّهَ مُعَافَاتَهُ وَمَغْفِرَتَهُ، وَإِنَّ أُمَّتِي لَا تُطِيقُ ذَلِكَ. ثُمَّ جَاءَهُ الرَّابِعَةَ فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَقْرَأَ أُمَّتَكَ الْقُرْآنَ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرَفٍ فَأَيُّمَا حَرْفٍ قَرَأُوا عَلَيْهِ فَقَدْ أَصَابُوا (2).

ثالثا: حكمة نزول القرآن على سبعة أحرف:

للتخفيف على هذه الأمة، وإرادة اليسر بها، والتهوين عليها شرفاً لها، وتوسعة ورحمة، وخصوصية لفضلها، وإجابة لقصد نبيها أفضل الخلق، وحبیب الحق؛ حيث أتاه جبريل فقال له: (إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على حرف. فقال ρ: أسأل الله معافاته ومعونته؛ إن أمتي لا تطيق ذلك...) (3).

وذلك أن الأنبياء -عليهم السلام- كانوا يبعثون إلى قومهم الخاصين بهم، والنبي، ρ، بعث إلى جميع الخلق: أحمرها، وأسودها، وعربيها، وعجميها، وكانت العرب الذين نزل القرآن بلغتهم: لغاتهم مختلفة وألسنتهم شتى، ويعسر على أحدهم الانتقال من لغته إلى غيرها أو من حرف إلى آخر.

بل قد يكون بعضهم لا يقدر على ذلك ولا بالتعليم والعلاج؛ لا سيما الشيخ والمرأة، ومن لم يقرأ كتاباً -كما أشار إليه ρ، فلو كلفوا العدول عن لغتهم، والانتقال عن ألسنتهم؛ لكان من التكليف بما لا يستطاع، وما عسى أن يتكلف المتكلف وتأبى الطباع (4).

(1) صحيح البخاري: كتاب الفضائل، باب أنزل القرآن على سبعة أحرف، 184/6، ح 4991.

(2) سبق تخرجه .

(3) صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، بيان أن القرآن على سبعة أحرف، 561/1، ح 274 .

(4) النشر في القراءات العشر، لابن الجزري 22/1 .

قال ابن قتيبة في كتاب (المشكل): فكان من تيسير الله تعالى أن أمر نبيه ρ ، بأن يُقْرَأ كل أمة بلغتهم، وما جرت عليه عادتهم.. ولو أن كل فريق من هؤلاء أمر أن يزول عن لغته، وما جرى اعتياده طفلاً وناشئاً وكهلاً؛ لاشتد ذلك عليه، وعظمت المحنة فيه؛ ولم يمكنه إلا بعد رياضة للنفس طويلة، وتذليل للسان وقطع للعادة، فأَنْزَلَ اللهُ بِرَحْمَتِهِ، ولطفه أن يجعل لهم متسعاً في اللغات، ومتصرفاً في الحركات كتيسيره عليه في الدين⁽¹⁾.

المطلب السادس: فوائد اختلاف القراءات وتعدد الحروف⁽²⁾:

- 1- فيها دليل قاطع على أن القرآن الكريم كلام رب العالمين قال تعالى: {أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا} [النساء:82].
- 2- ومنها ما في ذلك من عظيم البرهان وواضح الدلالة؛ إذ هو مع كثرة هذا الاختلاف وتنوعه لم يتطرق إليه تضاد ولا تناقض ولا تخالف، بل كله يصدق بعضه بعضاً، ويبين بعضه بعضاً، ويشهد بعضه لبعض على نمط واحد وأسلوب واحد، وما ذلك إلا آية بالغة، وبرهان قاطع على صدق من جاء به ρ .
- 3- فيها دلالة على عظمة هذه الأمة؛ حيث تلقت القرآن الكريم بالحروف المختلفة، ووعتها، وأحكمت ضبطها، وهي مُتَّقِبَةٌ عظيمة، وميزة لها كبرى، تنفرد بها عن سائر الأمم.
- 4- ومنها إعظام أجور هذه الأمة من حيث إنهم يفرغون جهدهم ليلبغوا قصدهم في تتبع معاني ذلك، واستنباط الحكم والأحكام من دلالة كل لفظ، واستخراج كمين أسراره وخفي إشاراته، وإنعامهم النظر وإمعانهم الكشف عن التوجه والتعليل والترجيح، والتفصيل بقدر ما يبلغ غاية علمهم، ويصل إليه نهاية فهمهم، والأجر على قدر المشقة.
- 5- أجل حكمة وأعظمها هي التيسير على الأمة في أمر القراءة والتخفيف عنها، روعي في ذلك اختلاف اللغات واللهجات، كما روعي في ذلك جميع الفئات: من شيخ كبير، وطفل صغير، وامرأة عجوز، ومن لم يقرأ كتاباً قط.
- 6- فيها سهولة الحفظ وتيسير النقل، فحفظ كلمة ذات وجوه مختلفة أيسر من حفظ جمل من الكلام على وجه واحد.
- 7- فيها يظهر إعجاز القرآن ويتجلى بإيجاز الكلام، فتقرأ كلمة واحدة بأكثر من وجه وهي برسم واحد، فتدل كل قراءة على حكم شرعي دون تكرار اللفظ وإعادة الخط، مثل كلمة (أرجلكم) في

(1) تأويل مشكل القرآن، لابن قتيبة ص 32 .

(2) النشر في القراءات العشر، لابن الجزري 53/1، الموسوعة القرآنية المتخصصة، مجموعة من الأساتذة المتخصصين، ط المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، 333/1، القراءات وأثرها في علوم العربية، لمحمد سالم محيسن 39/1 .

قوله تعالى: (**وَأَمْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ**) [المائدة 6]. فقد قرئت بالنصب والجر⁽¹⁾، فالنصب يقتضي فرض الغسل، عطفًا على الأيدي والوجه، أما الخفض فيقتضي فرض المسح، عطفًا على الرؤوس.

8- الجمع بين حكمين مختلفين، كقوله تعالى: (**وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ**) [البقرة 122] قال ابن خالويه: "قوله تعالى [**حَتَّى يَطْهُرْنَ**] يقرأ بالتشديد والتخفيف"⁽²⁾. فقراءة التخفيف (**يَطْهُرْنَ**) أي بانقطاع الحيض، وقراءة التشديد (**يَطْهُرْنَ**) تفيد الطهر بالماء، فلا بد من الطهرين كليهما في قرب النساء"⁽³⁾.

(1) فريدة الدهر في تأصيل وجمع القراءات، محمد إبراهيم سالم، 550/2.
(2) إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر، لشهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد الغني الدمياطي، دار الكتب العلمية - لبنان - 1419هـ/1998م، ط: الأولى، ص203 .
(3) مناهل العرفان، للزرقاني، 148/1.

المطلب السابع: مراتب القراءة.

ثلاثة: التحقيق، والحد، والتوسط.

أما التحقيق: التأني في القراءة بإشباع المدات، وتحقيق الهمزات، وإتمام الحركات، وتبيين الحروف، وتحقيق مخارجها وتوفية الغنات.

والتحقيق: هو قراءة النبي ρ فقد روى عن أم سلمة رضي الله عنها، أنها سألت عن قراءة النبي ρ ، فإذا هي تنعت قراءة مفسرة حرفاً، حرفاً⁽¹⁾.

وأما الحد: فهو إدراج القراءة والإسراع بها، وذلك بتخفيف الأحكام مما يصح في التجويد، القراءة به.

وأما التوسط: فهو مرتبة بين التحقيق والحد، وهو المختار عند أكثر أهل القراءة.

وقد اختلف علماء القراءات في أيهما أفضل: التحقيق أم الحد، فقال قوم: التحقيق؛ لأنه يساعد على الفهم.

وقال آخرون: الحد؛ لأنه يمكن القارئ من الإكثار من كمية المقروء من الآيات.

قال ابن القيم: الصواب في المسألة أن يقال إن ثواب قراءة الترتيل والتدبر (التحقيق) أجل وأرفع قدراً، وثواب كثرة القراءة (الحد)، أكثر عدداً، فالأول كمن تصدق بجوهرة عظيمة أو أعتق عبداً قيمته نفيسة جداً، والثاني كمن تصدق بعدد كثير من الدراهم، أو أعتق عدداً من العبيد، قيمتهم رخيصة⁽²⁾.

المطلب الثامن: آداب التلاوة.

ذكر العلماء مجموعة من الآداب لقارئ القرآن ومستمعه، نلخصها فيما يلي:

- يستحب الإكثار من قراءة القرآن وتلاوته، كل على حسب قدرته.
- صرح مجموعة من العلماء، بأن نسيانه كبيرة، لحديث "من قرأ القرآن ثم نسيه، لقي الله يوم القيامة أجزم"⁽³⁾.
- يستحب الوضوء لقراءة القرآن؛ لأنه أفضل الذكر.
- يُستحب أن يجلس مستقبلاً القبلة، متخشعاً بسكينة ووقار، مطرقاً رأسه.
- يُسن أن يستاك تعظيماً وتطهيراً، لحديث "إن أفواكم طرق للقرآن فطيبوها بالسواك"⁽⁴⁾.

(1) مسند أحمد، 190/44.

(2) زاد المعاد، ابن القيم، 131/1.

(3) سنن أبي داود، كتاب الصلاة، باب التشديد فيمن حفظ القرآن ثم نسيه، 549/1، ح1474.

(4) سنن ابن ماجه، أبواب الطهارة وسننها، باب السواك، 194/1، ح291.

- يُسن التعوذ قبل القراءة لقوله تعالى: (فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ) [النحل:98].
- المحافظة على قراءة البسملة أول كل سورة غير سورة "براءة".
- يُسن الترتيل في قراءة القرآن لقوله تعالى (وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا) [المزمل: 4].
- تُسن القراءة بالتدبر والتفهم، فهو المقصود الأعظم والمطلوب الأهم.
- لا بأس بتكرير الآية وترديدها.
- يستحب البكاء عند قراءة القرآن، والتباكي لمن لا يقدر عليه.
- يُسن تحسين الصوت بالقراءة لحديث الدارمي: "حسنوا القرآن بأصواتكم، فإن الصوت الحسن يزيد القرآن حسناً"⁽¹⁾.
- القراءة في المصحف أفضل من القراءة من حفظه؛ لأن النظر فيه عبادة.
- يكره قطع القراءة لمكالمة أحد، فضلاً عن الكراهية مع الضحك والعبث.
- لا تجوز قراءة القرآن بالأعجمية مطلقاً، سواء، أحسن العربية أم لا، في صلاة أو خارجها.
- يُسن الاستماع لقراءة القرآن، وترك اللغط والحديث بحضور القراءة.
- يُسن السجود عند قراءة آية السجدة.
- يُستحب التكبير من "الضحى" إلى آخر القرآن، ويسن صوم يوم الختم والدعاء عقبه.
- يُكره أن يقول نسيب آية كذا، بل أنسيبها، للنهي عن ذلك.

(1) مسند الدارمي، كتاب فضائل القرآن، باب التغمي بالقرآن، 2194/4، ح 3544 .

أسئلة للمناقشة:

- (1) ما تنزلات القرآن مع ذكر الدليل.
- (2) كيف توفق بين الآيات الآتية:
- (3) قال تعالى: (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ) [الدخان: 3]، وقوله تعالى: (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ) [القدر: 1]، وقوله تعالى: (شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ) [البقرة: 185].
- (4) ما حكمة نزوله إلى بيت العزة جملة؟
- (5) اذكر حكم نزول القرآن الكريم منجماً، وشرح اثنين منها بالتفصيل.
- (6) ما أول ما نزل من القرآن؟
- (7) كيف ترد على من زعم أن أول ما نزل من القرآن هو قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الْمَدَّثِرُ﴾ [المدثر: 1].
- (8) وضح أقوال العلماء في آخر ما نزل من القرآن.
- (9) ما أول ما نزل في الأظعمة؟ ، وما أول ما نزل في الخمر؟، وما أول ما نزل في القتال؟
- (10) بيّن فوائد معرفة أول ما نزل وآخر ما نزل.
- (11) عرّف القراءات، وبيّن علاقتها بالقرآن.
- (12) ما أقسام القراءات؟
- (13) ما أركان القراءة الصحيحة؟
- (14) كيف ترد على من زعم أن القراءات السبع هي الأحرف السبعة.
- (15) وضح المراد بالأحرف السبعة، وبيّن حكمة نزول القرآن على سبعة أحرف.
- (16) لاختلاف القراءات فوائد عدة، اذكر ثلاثة منها.
- (17) بيّن مراتب القراءة، وآداب التلاوة.

الفصل الثالث: المكي والمدني

ليس المقصود هنا أن نستقصي بالتفصيل آيات القرآن الكريم وسوره. وأن نحقق ما كان منها مكياً وما كان مدنياً، فتلك محاولة كبيرة جدية أن تغرد بالتأليف، وقد أفردتها فعلاً بالتأليف جماعة منهم عز الدين الديريني(694هـ) ومكي بن حموش القيسي (437هـ).
ولكن حسبنا هنا أن نتكلم على تعريفات المكي والمدني، وعلى فضل العلم بالمكي والمدني، وعلى الطريق الموصلة إليه، وعلى الضوابط التي يعرف بها، وعلى السور المكية والمدنية المختلف فيها، وعلى أنواع السور المكية والمدنية، وذلك في المباحث التالية.

المبحث الأول: تعريف المكي والمدني

للعلماء في تعريف المكي والمدني أقوال أهمها(1):

(الأول) أن المكي ما نزل بمكة ولو بعد الهجرة، والمدني ما نزل بالمدينة. ويدخل في مكة ضواحيها كالمنزل على النبي p بمنى وعرفات والحديبية. ويدخل في المدينة ضواحيها أيضاً كالمنزل عليه في بدر وأحد.

وهذا التقسيم لوحظ فيه مكان النزول كما ترى، لكن يرد عليه أنه غير ضابط ولا حاصر؛ لأنه لا يشمل ما نزل بغير مكة والمدينة وضواحيهما كقوله سبحانه في سورة التوبة: (لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ) [التوبة: ٤٢] إلخ فإنها نزلت بتبوك(2)، وقوله سبحانه في سورة الزخرف: (وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا) [الزخرف: ٤٥] إلخ فإنها نزلت ببيت المقدس ليلة الإسراء(3).

(الثاني) أن المكي ما وقع خطاباً لأهل مكة، والمدني ما وقع خطاباً لأهل المدينة، وعليه يحمل قول من قال: إن ما صدر في القرآن بلفظ {يَا أَيُّهَا النَّاسُ} فهو مكي؛ وما صدر فيه بلفظ {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} فهو مدني؛ لأن الكفر كان غالباً على أهل مكة فخطبوا بلفظ {يَا أَيُّهَا النَّاسُ}، وإن كان غيرهم داخلاً فيهم. ولأن الإيمان كان غالباً على أهل المدينة، فخطبوا بلفظ {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا}، وإن كان غيرهم داخلاً فيهم أيضاً. وألحق بعضهم {يَا بَنِي آدَمَ} بصيغة {يَا أَيُّهَا النَّاسُ}.

وهذا التقسيم لوحظ فيه المخاطبون كما ترى لكنه غير دقيق لورود أشكال من الخطاب غير الصيغ المذكورة نحو: (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ) [الأحزاب: ١] إلخ .

(1) مناهل العرفان، للزرقاني، 193/1، دراسات في علوم القرآن، للرومي، ص45.

(2) تفسير ابن كثير 361/2.

(3) السورة مكية.

ونحو قوله سبحانه في سورة المنافقين: (إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ) [المنافقون: ١] إلخ.

إضافة إلى أن هناك آيات مدنية صدرت بصيغة "يا أيها الناس"، وهناك آيات مكية صدرت بصيغة "يا أيها الذين آمنوا". مثال الأولى سورة النساء، فإنها مدنية وأولها "يا أيها الناس اتقوا ربكم"، وكذلك سورة البقرة مدنية وفيها "يا أيها الناس أعبدوا ربكم" ومثال الثانية سورة الحج فإنها مكية مع أن في أواخرها "يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا" إلخ ولو قيل أن المراد الغائب لصح.

(الثالث) وهو المشهور: أن المكي ما نزل قبل هجرته p إلى المدينة، وإن كان نزوله بغير مكة، والمدني ما نزل بعد هجرته p إلى المدينة وإن كان نزوله بغير المدينة. وهذا التقسيم كما ترى لوحظ فيه زمن النزول، وهو تقسيم صحيح، ولذلك اعتمده العلماء واشتهر بينهم.

وعليه فآية: (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا)

[المائدة: ٣] مدنية، مع أنها نزلت يوم الجمعة بعرفة في حجة الوداع.

وكذلك آية: (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا) [النساء: ٥٨]، مدنية مع أنها نزلت يوم الفتح في جوف الكعبة⁽¹⁾.

والواضح أن هذه التعريفات تميل إلى القياس الذي يعتمد على العقل، علماً بأن أفضل الطرق للمعرفة السليمة هما الاتجاهان السماعي والقياسي، السماعي: يعتمد على النقل، والقياسي، يعتمد على العقل وهما أساسا المعرفة السليمة.

المبحث الثاني: فائدة العلم بالمكي والمدني:

من فوائد العلم بالمكي والمدني:

أ. تمييز الناسخ من المنسوخ فيما إذا وردت آيتان أو آيات من القرآن الكريم في موضوع واحد، وكان الحكم في إحدى هاتين الآيتين أو الآيات مخالفاً للحكم في غيرها، ثم عُرف أن بعضها مكي وبعضها مدني، فإننا نحكم بأن المدني منها ناسخ للمكي نظراً إلى تأخر المدني عن المكي.

ب. معرفة تاريخ التشريع وتدرجه بوجه عام، وذلك يترتب عليه الإيمان بسمو السياسة الإسلامية في تربية الشعوب والأفراد.

(1) الإتيان، للسيوطي، 74-75.

ج. الثقة بهذا القرآن وبوصوله إلينا سالمًا من التغيير والتحريف، ويدل على ذلك اهتمام المسلمين به كل هذا الاهتمام، حتى ليعرفون ويتناقلون ما نزل منه قبل الهجرة وما نزل بعدها، وما نزل بالحضر وما نزل بالسفر؛ وما نزل بالنهار وما نزل بالليل، وما نزل بالشتاء وما نزل بالصيف، إلى غير ذلك⁽¹⁾.

المبحث الثالث: كيفية معرفة المكي والمدني، وضوابطهما.

المطلب الأول: كيفية معرفة المكي والمدني:

لا سبيل إلى معرفة المكي والمدني إلا بما ورد عن الصحابة والتابعين في ذلك (الاتجاه النقلية)؛ لأنه لم يرد عن النبي ρ بيان للمكي والمدني، وذلك لأن المسلمين في زمانه لم يكونوا بحاجة إلى هذا البيان، كيف وهم يشاهدون الوحي والتنزيل، ويشهدون مكانه وزمانه وأسباب نزوله عيانًا.

قال عبد الله بن مسعود τ « وَاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ، مَا أَنْزَلْتُ سُورَةً مِنْ كِتَابِ اللَّهِ: إِلَّا أَنَا أَعْلَمُ أَيَّنَ أَنْزَلْتُ، وَلَا أَنْزَلْتُ آيَةً مِنْ كِتَابِ اللَّهِ، إِلَّا أَنَا أَعْلَمُ فِيمَ أَنْزَلْتُ، وَلَوْ أَعْلَمُ أَحَدًا أَعْلَمَ مِنِّي بِكِتَابِ اللَّهِ، تَبَلَّغُهُ الْإِبِلُ، لَرَكِبْتُ إِلَيْهِ»⁽²⁾.

المطلب الثاني: ضوابط معرفة المكي والمدني⁽³⁾:

قد عرفنا فيما مضى أن مرد العلم بالمكي والمدني هو السماع عن طريق الصحابة والتابعين، بيد أن هناك علامات وضوابط يعرف بها المكي والمدني.

أولاً: ضوابط المكي:

1. كل سورة فيها لفظ "كلا" فهي مكية. وقد ذكر هذا اللفظ في القرآن ثلاث وثلاثين مرة، في خمس عشرة سورة كلها في النص الأخير من القرآن وذلك؛ لأن كلا للتهديد والتعنيف، وهو ما يليق بحال الجبابرة الذين هم بمكة، وهذا ضابط مطرد، فالسور المدنية ليس بها سجدة.
2. كل سورة فيها سجدة فهي مكية، وهذا ضابط مطرد، فالسور المدنية ليس بها سجدة.
3. كل سورة مفتتحة بالحمد فهي مكية، وهي خمس سور (الفاتحة، الأنعام، الكهف، سبأ، فاطر)
4. كل سورة في أولها حروف التهجي، فهي مكية سوى سورتي البقرة وآل عمران فإنهما مدنيتان بالإجماع. وفي الرعد خلاف.

(1) مناهل العرفان، للزرقاني، 195/1.

(2) صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب القراء من أصحاب النبي ρ ، 187/6، ح 5002.

(3) مساعد النظر للإشراف على مقاصد السور، للبقاعي، 161/1، مناهل العرفان، للزرقاني، 196/1، نفعات من علوم القرآن، لمحمد معبد، ص34، المدخل لدراسة القرآن الكريم، لأبي شهبه ص226، إتيان البرهان في علوم القرآن، لفضل عباس، الأردن، دار الفرقان، ط1، 1997م: 172/1.

5. كل سورة فيها قصص الأنبياء والأمم السابقة فهي مكية سوى سورتي البقرة وآل عمران.
6. كل سورة فيها قصة آدم وابلليس فهي مكية سوى سورة البقرة أيضًا.
7. كل سورة انفردت ب(يا أيها الناس) دون نداء المؤمنين فهي مكية مثل سورة يونس، وسورة الأعراف، أما إذا اجتمع النداء ان فالسورة مدنية كسورة البقرة وسورة النساء.
8. كل سورة فيها لفظ(يا بني آدم) بالنداء فهي مكية.

ثانيًا: ضوابط المدني: فكما يأتي:

1. كل سورة فيها الحدود والفرائض(الميراث)فهي مدنية، كسورة النساء، والمائدة، والنور.
2. كل سورة فيها (ياأيها الذين آمنوا) فقط وليس فيها (يا أيها الناس).
3. كل سورة فيها إذن بالجهاد وبيان لأحكام الجهاد فهي مدنية.
4. كل سورة فيها ذكر المنافقين فهي مدنية، ما عدا سورة العنكبوت فهي مكية ما عدا الآيات الإحدى عشرة الأولى منها، فإنها مدنية، وهي التي ذكر فيها المنافقون.

المطلب الثالث: مقاصد المكي والمدني⁽¹⁾:

اتسم القرآن الكريم بمنهج فريد في معالجة قضايا المجتمع، ويظهر لنا هذا بوضوح من خلال ما امتاز به المدني عن المكي.

أولاً: مقاصد المكي:

- 1- يعنى القرآن المكي أولاً بتريخ الأصول الاعتقادية التي جاءت بها جميع الشرائع السماوية، وهي توحيد الله - عز وجل، وإفراده بالعبادة، وتثريهه عن كل ما لا يليق بذاته تعالى، وتصديق الرسل في كل ما جاءوا به، والإيمان بالكتب المنزلة، والإيمان باليوم الآخر، والإيمان بالقدر، إلى آخر ما هنالك من الأصول الاعتقادية.
- 2- وعُنِي القرآن المكي أيضًا كلَّ العناية بالقضاء على ما ورثوه عن آبائهم، وما ابتدعوه من عند أنفسهم من عادات سيئة، ومعتقدات فاسدة، كسفك الدماء، وأكل مال اليتيم، ووَاد البنات، والتطفيف في الكيل والميزان، وغير ذلك من الرذائل.
- 3- ودعاهم إلى أصول التشريعات العامة، والآداب السامية، بوصفها برهانًا عمليًا على سلامة الفطرة وصحة الاعتقاد، وجاء التفصيل لهذه الأصول في القرآن المدني، ووضع لها الشروط والقواعد والضوابط.

(1) مناهل العرفان، للزرقاني، 202/1، صفحات من علوم القرآن، لمحمد معبد، ص34، المدخل لدراسة القرآن الكريم، لأبي شهبة ص227 .

4- ولتثبيت هذه الأصول والمعتقدات الصحيحة في قلوب الناس جميعًا؛ مؤمنين وكافرين، كما عُني القرآن المكي عناية فائقة بأخبار الأنبياء والأمم السابقة، لما فيها من عظاتٍ وعبرٍ وتبيانٍ لسنة الله تعالى في هلاك المكذبين، ونجاة المؤمنين.

5- ومن خواص هذا القسم قِصْرُ معظم آياته وسوره، ولا سيما أوائل ما نزل، ولعل ذلك كان كذلك ليتمكن المؤمنون من حفظه بسهولة ويسر، فهم في أول عهدهم به لم تتعود ألسنتهم على النطق به مرتلاً، كما أمر الله تعالى أن يُتلى، وفيهم الشيخ الكبير، والمرأة المسنة، والطفل الصغير، وأكثرهم أميُّون، فكيف يستطيعون قراءة الآيات الطويلة المقاطع، وهم لم يتعودوا بعد على مثل ذلك، فكان من رحمة الله بهم أن أنزل الله هذه السور القصيرة في آياتها ومقاطعها ليتمكنوا من حفظها وتلاوتها في يسر ونشاط.

ثانيًا: أما مقاصد القرآن المدني فهي -كما قلنا- تابعة للمقاصد السابقة، ومبنية عليها، ومبيّنة لمجملها، ويمكننا أن نجملها فيما يلي:

1- بيان الأحكام العقديّة والشرعية بالتفصيل، بيانًا يكشف دقائقها وأسبابها، وشروط صحتها، والحكمة من تشريعها.

2- ظهرت في العهد المدني تشريعات لم تكن في العهد المكي، مثل مشروعية الصوم، ومشروعية القتال، وفريضة الحج، وتحريم الخمر، وتحريم الربا، وغير ذلك.

3- الكشف عن أحوال المنافقين، الذين كانوا أشدَّ الناس خطرًا على الإسلام والمسلمين، وبيان ما انطوت عليه نفوسهم من خبث ومكر وخداع، وحرصٍ وطمع، وإعلام المسلمين بمآلهم بعد إعلامهم بحالهم، إيصائهم باتخاذ الحيطة والحذر من كيدهم وألعايبهم، ومراقبتهم في جميع تصرفاتهم المغرضة، ومجاهدتهم بالحجة والبرهان، والإغلاظ عليهم في القول والمعاملة، مع بذل النصح لهم بالرجوع إلى الله تعالى، والتمسك بدينه الحنيف.

4- دعوة أهل الكتاب إلى الإسلام ومجادلتهم بالحجّة والبرهان في معتقداتهم الباطلة، وشبههم المزيفة، وبيان جنائياتهم على الكتب السماوية بالتحريف والتبديل، وردّهم عن غيِّهم إلى الرشد الذي جاءهم به الإسلام.

المطلب الرابع: مقاصد الشريعة والعلاقة بين المكي والمدني:

لاحظ الشاطبي -رحمه الله- تلك العلاقة، فمقاصد التشريع العليا، وأسس الكبرى، تم إرساؤها في القرآن المكي، جنبًا إلى جنب مع أصول العقيدة وأسسها. ثم بيّن ذلك - رحمه الله- بإرجاع الأصول الخمسة إلى أدلتها من القرآن المكي:

أما حفظ الدين وتصحيح الإيمان وتثبيته في القرآن المكي، فمسألة أشهر وأوضح من أن تحتاج إلى دليل أو مثال، حتى لقد شاع - خطأ - أن القرآن المكي لا يحتوي إلا على هذا، وهي الفكرة

التي يصححها الإمام الشاطبي من خلال بيان ما اشتمل عليه القرآن المكي من قواعد وكميات تشريعية.

وأما حفظ النفس، فقد نص عليه في كثير من الآيات المكية كقوله تعالى: (وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ) [الإسراء: ٣٣] وقوله: (وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ (8) بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ) [التكوير: ٨ - ٩]، وغيرهما.

وحفظ النفس يتضمن حفظ العقل. وأما "تكميل" حفظ العقل، فقد جاء في المدينة بتحريم المسكرات، وإقامة الحد عليها. فالحفظ الأول أساس الحفظ الثاني، وهذا هو المراد بيانه في هذا السياق. حفظ النسل، أيضًا، جاء بمكة، بتحريم الزنى، والأمر بحفظ الفروج عن الحرام. وكذلك حفظ المال، يحققه ما جاء في المكي من تحريم الظلم، وأكل مال اليتيم والإسراف، والبغي، ونقص المكيال والميزان، والفساد في الأرض.

ومن هذا الباب أيضًا: أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهما ضروريان لحفظ الأصول المتقدمة، قد جاء النص عليهما بمكة، كما في الآية: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَقِمُوا الصَّلَاةَ وَآمُرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ) [لقمان: ١٧]. وما الجهاد الذي شرع بالمدينة إلا فرع من فروع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

حتى موضوع "النسخ"، استصحب الشاطبي معه مقاصده وكمياته: فأعاد التذكير -في المسألة الأولى من مسائل النسخ- بأن "القواعد الكلية هي الموضوعة أولاً، والتي نزل بها القرآن على النبي μ بمكة، ثم تبعها أشياء بالمدينة، كملت بها القواعد التي وضع أصلها بمكة. وليس هذا من الشاطبي مجرد تكرار لفكرته عن التشريع بين المكي والمدني، على أهميتها، وإنما أعاد الفكرة هنا، وفصل فيها أكثر، لما يريد أنه يبينه عليها في موضوع النسخ، وذلك قوله -في المسألة الثانية-: "لما تقرر أن المنزل بمكة من أحكام الشريعة هو ما كان من الأحكام الكلية، والقواعد الأصولية في الدين، على غالب الأمر، اقتضى ذلك أن النسخ فيها قليل لا كثير؛ لأن النسخ لا يكون في الكميات وقوعاً، وإن أمكن عقلاً.

ويدل على ذلك الاستقراء التام، أن الشريعة مبنية على حفظ الضروريات والحاجيات والتحسينيات، وجميع ذلك لم ينسخ منه شيء، بل إنما أتى بالمدينة ما يقويها ويحكمها ويحصنها. وإذا كان كذلك. لم يثبت نسخ لكلي البتة. ومن استقرى كتب الناسخ والمنسوخ تحقق هذا المعنى، فإنما يكون النسخ في الجزئيات منها، والجزئيات المكية قليلة.

وعند تطرقه إلى الحديث عن السنة -بعد الحديث عن القرآن- وقف وقفة أخرى، استخدم فيها النظرة "المقاصدية"، في الربط بين أدلة الشريعة، قرآناً وسنة، وفي الربط بين مناحي البناء التشريعي بكمياته وجزئياته.

فكما أنه -رحمه الله- لاحظ أن القرآن المدني بتفصيلاته، قد بني على القرآن المكي وكمياته،

لاحظ أيضًا -وبين- أن السنة قد بنيت -بشكل تام- على القرآن الكريم؛ لأن مدارهما واحد، هو مقاصد الشريعة في إقامة المصالح الضرورية والحاجية والتحسينية⁽¹⁾.

أسئلة للمناقشة:

- 1) اذكر أقوال العلماء في تعريف المكي والمدني، مع بيان الراجح.
- 2) ما فوائد العلم بالمكي والمدني؟
- 3) ما طرق معرفة المكي والمدني؟
- 4) للمكي والمدني ضوابط عدة، اذكر ثلاثة منها.
- 5) ما مقاصد المكي والمدني؟
- 6) قارن بين المكي والمدني من حيث التعريف، والضوابط، والمقاصد.
- 7) ميز المكي من المدني فيما يأتي مع ذكر السبب.
قال تعالى: (إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ).
قال تعالى: (وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ) الانشقاق: ٢١.
قال تعالى: (ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ) [القلم، 1].
قال تعالى: (كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ) [القيامة: ٢٠].
قال تعالى: (ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ) [ق: ١].

(1) ينظر: الموافقات، الشاطبي 46/3-47، نظرية المقاصد عند الشاطبي، أحمد الريسوني، 151/1 وما بعدها.

الفصل الرابع: في جمع القرآن وكتابته وترتيبه

المبحث الأول: جمع القرآن.

مدخل: تطلق كلمة "جمع" ويراد بها كتابة حروف القرآن وكلماته وآياته وسوره، وقد يراد بها حفظه واستظهاره في الصدور. والأولى مقصود هنا. وقد حدث الجمع في ثلاث مرات: الأولى في عهد النبي p، والثانية في خلافة أبي بكر الصديق، والثالثة في عهد عثمان بن عفان رضي الله عنهما، وقد نسخت المصاحف في المرة الثالثة وأرسلها عثمان إلى الآفاق.

المطلب الأول: جمع القرآن في الصدور:

لقد بلغ من حرص النبي p على حفظ القرآن، أنه كان يحرك لسانه به في أشد حالات حرجه وشدته، وهو يعاني ما يعاني من الوحي وشدته، كان فعله استعجالاً لحفظه وجمعه في قلبه، حتى اطمأن إلى ذلك من خلال وعد ربه له قال تعالى: (لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَتَّعَلَ بِهِ (16) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (17) فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (18) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ (19)). [القيامة: ١٦ - ١٩] (1).

أما الصحابة رضي الله عنهم، فكان اهتمامهم شديداً بالقرآن الكريم، فكانوا يتنافسون في حفظه وفهمه وتلاوته حتى كان لهم به دوى كدوي النحل، ووصل الأمر أن جعلوا القرآن مهر الزوجة؛ يعلمها إياها (2).

لقد حفظ القرآن مجموعة كبيرة من الصحابة، جمعوه في قلوبهم ووعوه بعقولهم؛ لأن هذه الأمة أناجيلهم في صدورهم، ولأن الاعتماد في نقل القرآن على حفظ القلوب والصدور لا على حفظ المصاحف والكتب.

منهم: الخلفاء الأربعة وحذيفة، وسالم مولى أبي حذيفة، وابن مسعود، وأبو هريرة، وابن عباس، وابن الزبير، وابن عمر، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وأبوه، وغيرهم من المهاجرين، ومن الأنصار: أبي بن كعب، وزيد بن ثابت، ومعاذ بن جبل، وأبو الدرداء، وأبو زيد.

أما رواية أنس عند البخاري والتي جاء فيها عن قتادة قال: سَأَلْتُ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: مَنْ جَمَعَ الْقُرْآنَ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ قَالَ: أَرْبَعَةٌ كُلُّهُمْ مِنَ الْأَنْصَارِ: أَبِي بْنُ كَعْبٍ، وَمُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ، وَزَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ، وَأَبُو زَيْدٍ (3).

فقد أجاب عنها العلماء بعدة أجوبة هي:

1 - فلا يلزم أن يكون غيرهم جمعه.

(1) سورة القيامة آية 16-17

(2) مسند الشافعي 3/33.

(3) صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب القراء من أصحاب النبي p، 187/6، ح 5003.

- 2 - المراد لم يجمعه على جميع الوجوه والقراءات التي نزل بها إلا أولئك.
- 3 - إن المراد بجمعه تلقيه من في رسول الله صلى الله عليه وسلم بلا واسطة بخلاف غيرهم.
- 4 - أنهم تصدوا لإلقائه وتعليمه فاشتبهوا به، وخفي حال غيرهم.
- 5 - المراد بالجمع الكتابة، فلا ينفي أن يكون غيرهم جمعه حفظا على ظهر قلب، وأما هؤلاء فجمعه كتابة وحفظوه عن ظهر قلب⁽¹⁾.
- 6 - قال ابن حجر: "المراد إثبات ذلك للخزرج دون الأوس فقط، بقريظة المفخرة⁽²⁾، فلا ينفي ذلك من غير القبيلتين من المهاجرين ومن جاء بعدهم"⁽³⁾.

كتابته في عهد الرسول p:

اتخذ النبي p مجموعة من أصحابه ليقوموا بمهمة كبيرة، هي كتاب القرآن الكريم، وعرفوا هؤلاء بـ"بكتّاب الوحي" فكان النبي p عليه شيء من القرآن أمرهم بكتابته، زيادة في التوثيق. منهم: معاوية بن أبي سفيان، وأبان بن سعيد، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت، وثابت بن قيس، وخالد بن الوليد، وعلي بن أبي طالب، وكانوا يكتبون على العُسْب⁽⁴⁾ واللِّخَاف⁽⁵⁾ والرِّقَاع⁽⁶⁾، والأكتاف⁽⁷⁾، وقطع الأديم⁽⁸⁾. ومما هو معلوم أن النبي p كان يدلهم على موضع المكتوب من سورتة.

- (1) الإتيان في علوم القرآن، 246/1، سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، الصالحى، 334/11، المدخل لدراسة القرآن الكريم، أبو شهبه، ص264.
- (2) وحديث المفخرة في المستدرك على الصحيحين 80/4 ح7069 ونصه عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: افْتَحَرَ الْحَيَّانِ مِنَ الْأَنْصَارِ الْأَوْسَ وَالْخَزْرَجَ، فَقَالَتِ الْأَوْسُ: مِنَّا مَنْ اهْتَرَّ لِمَوْتِهِ عَرْشُ الرَّحْمَنِ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ، وَمِنَّا مَنْ حَمَتُهُ الدَّبْرُ عَاصِمُ بْنُ ثَابِتِ بْنِ الْأَفْلَحِ، وَمِنَّا مَنْ غَسَلَتْهُ الْمَلَائِكَةُ حَنْظَلَةُ بْنُ الرَّاهِبِ، وَمِنَّا مَنْ أُجِيرَتْ شَهَادَتُهُ بِشَهَادَةِ رَجُلَيْنِ حَزِيمَةَ بْنُ ثَابِتٍ، وَقَالَ الْخَزْرَجِيُّونَ: مِنَّا أَرْبَعَةٌ جَمَعُوا الْقُرْآنَ لَمْ يَجْمَعُوهُ غَيْرُهُمْ أَبِي بْنُ كَعْبٍ وَمُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ وَزَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ وَأَبُو زَيْدٍ. قال الحاكم صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.
- (3) فتح الباري لابن حجر، 51/9.
- (4) العُسْب: جريد النخل، كانوا يكشطون الخوص ويكتبون على الطرف العريض منه. تهذيب اللغة، الأزهرى، 68/2.
- (5) اللِّخَاف: حجارة بيض رفاق. تهذيب اللغة، الأزهرى، 168/7.
- (6) الرِّقَاع: جمع رُقْعَة، وهي التي يكتب فيها، وتكون من جلد أو كاغد. لسان العرب، 1705/3، مادة (رَقع).
- (7) الأكتاف: جمع كتف، وهو عظم عريض يكون في أصل كتف الحيوان من الناس والدواب، كانوا يكتبون فيه لِقْلَةَ الْقَرَّاطَيْسِ. لسان العرب، لابن منظور، 294/9.
- (8) الأديم: الجلد المدبوغ والجمع: أدم. المصباح المنير، للفيومي ص11.

وهكذا انقضى العهد النبوي الزاهر والقرآن مجموع على هذا النمط، بيد أنه لم يكتب في مصاحف، بل كتب منثورًا كما رأينا.

وفي علة عدم كتابته في مصحف، يقول الخطابي "إنما لم يجمع القرآن في المصحف لما كان يترقبه من ورود ناسخ لبعض أحكامه أو تلاوته، فلما انقضى نزوله بوفاته ألهم الله الخلفاء الراشدين ذلك وفاء بوعده الصادق بضمن حفظه من الله على هذه الأمة (1).

ويبين زيد بن ثابت طريقته في كتابة القرآن فيقول: " كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ نُؤَلِّفُ الْقُرْآنَ مِنَ الرَّقَاعِ" (2).

وكان هذا التأليف عبارة عن ترتيب الآيات حسب إرشاد النبي ﷺ، وكان هذا الترتيب بتوقيف من جبريل عليه السلام، فقد ورد أن جبريل عليه السلام كان يقول "ضعوا كذا في موضع كذا" ولا ريب أن جبريل كان لا يصدر في ذلك إلا عن أمر الله عز وجل.

وهذا ما دعا البيهقي لقول: شبه أن يكون المراد به تأليف ما نزل من الآيات المفارقة في سورها وجمعها فيها بإشارة النبي ﷺ (3).

المطلب الثاني: جمع القرآن في عهد أبي بكر الصديق ؓ:

دارت الحرب بين المسلمين وأهل الردة من أتباع مسيلمة الكذاب، واستشهد فيها كثير من القراء. هال ذلك المسلمين وأزعجهم، خشية ضياع القرآن بموت حفظته، فاقترح عمر بن الخطاب على أبي بكر أن يجمع القرآن الكريم.

لقد تردد أبو بكر رضي الله عنه أول الأمر وما ذلك إلا؛ لأنه كان شديد الاتباع لرسول ﷺ. لذا تردد كثيرًا في هذا الأمر، وما زال عمر رضي الله عنه به حتى شرح الله صدره، لأن جمع القرآن من أعظم الوسائل النافعة إلى حفظ الكتاب الشريف والمحافظة عليه من الضياع والتحريف وأنه ليس من محدثات الأمور.

تنفيذ الاقتراح:

كان لا بد أن يفكر أبو بكر الصديق في من يقوم بهذه المهمة، وكان لا بد أن يمتلك من يقوم بهذا العمل المؤهلات التي تؤهله لهذا العمل الجليل، وتتمثل فيه مواهب واستعدادات خاصة، قد لا تجتمع في غيره من الرجال.

وها نحن ندع المجال لزيد بن ثابت ليحدثنا عن هذه الواقعة:

(1) الإتيان، للسيوطي، 202/1.

(2) المستدرک علی الصحیحین، کتاب تواریخ المتقدمین من الأنبياء والمرسلین، ذکر أخبار سيد المرسلین صلی الله علیه وآله وسلم، تألیف القرآن في عهد رسول الله ﷺ، 611/2، ح 4240.

(3) شعب الإيمان 343/1.

روى البخاري في صحيحه عن زيد بن ثابت رضي الله عنه، قال : أَرْسَلَ إِلَيَّ أَبُو بَكْرٍ، مَقْتَلِ أَهْلِ الْيَمَامَةِ، فَإِذَا عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ عِنْدَهُ، قَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إِنَّ عُمَرَ أَتَانِي فَقَالَ: إِنَّ الْقَتْلَ قَدْ اسْتَحَرَّ يَوْمَ الْيَمَامَةِ بِقِرَاءِ الْقُرْآنِ، وَإِنِّي أَخْشَى أَنْ يَسْتَحِرَّ الْقَتْلُ بِالْقِرَاءِ بِالْمَوَاطِنِ، فَيَذْهَبَ كَثِيرٌ مِنَ الْقُرْآنِ، وَإِنِّي أَرَى أَنْ تَأْمُرَ بِجَمْعِ الْقُرْآنِ. قُلْتُ لِعُمَرَ: كَيْفَ تَفْعَلُ شَيْئًا لَمْ يَفْعَلْهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ؟ قَالَ عُمَرُ: هَذَا وَاللَّهِ خَيْرٌ، فَلَمْ يَزَلْ عُمَرُ يُرَاجِعُنِي حَتَّى شَرَحَ اللَّهُ صَدْرِي لِذَلِكَ، وَرَأَيْتُ فِي ذَلِكَ الَّذِي رَأَى عُمَرُ، قَالَ زَيْدٌ: قَالَ أَبُو بَكْرٍ: إِنَّكَ رَجُلٌ شَابٌّ عَاقِلٌ لَا نَتَهَمُكَ، وَقَدْ كُنْتَ تَكْتُبُ الْوَحْيَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَتَتَّبِعُ الْقُرْآنَ فَاجْمَعُهُ. فَوَاللَّهِ لَوْ كَلَّفُونِي نَقْلَ جَبَلٍ مِنَ الْجِبَالِ مَا كَانَ أَثْقَلَ عَلَيَّ مِمَّا أَمَرَنِي بِهِ مِنْ جَمْعِ الْقُرْآنِ. قُلْتُ: كَيْفَ تَفْعَلُونَ شَيْئًا لَمْ يَفْعَلْهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ؟ قَالَ: هُوَ وَاللَّهِ خَيْرٌ، فَلَمْ يَزَلْ أَبُو بَكْرٍ يُرَاجِعُنِي حَتَّى شَرَحَ اللَّهُ صَدْرِي لِلَّذِي شَرَحَ لَهُ صَدْرَ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فَتَتَّبَعْتُ الْقُرْآنَ أَجْمَعُهُ مِنَ الْعُسْبِ وَاللِّخَافِ وَصُدُورِ الرِّجَالِ، حَتَّى وَجَدْتُ آخِرَ سُورَةِ التَّوْبَةِ مَعَ أَبِي حُرَيْمَةَ الْأَنْصَارِيِّ، لَمْ أَجِدْهَا مَعَ أَحَدٍ غَيْرِهِ ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ [التوبة: 128]، حَتَّى خَاتَمَةَ بَرَاءَةَ، فَكَانَتْ الصُّحُفَ عِنْدَ أَبِي بَكْرٍ حَتَّى تَوَفَّاهُ اللَّهُ، ثُمَّ عِنْدَ عُمَرَ حَيَاتِهِ، ثُمَّ عِنْدَ حَفْصَةَ بِنْتِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ⁽¹⁾.

سبب جمع القرآن الكريم في عهد أبي بكر الصديق:

دللت الأحاديث الواردة في جمع القرآن الكريم في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه على أن سبب جمعه يعود إلى خوف الصحابة رضوان الله عليهم من ذهاب شيء من القرآن بذهاب حفاظه باستشهادهم في المعارك أو موتهم، فكتابه مجموعا في مصحف واحد فيه أمان وحفظ له مما قد يحصل في المستقبل، ويدل لهذا ما أفصح عنه عمر رضي الله عنه - كما في الحديث السابق - بقوله: "إن القتل قد استحَرَ يوم اليمامة بقرآء القرآن، وإنني أخشى أن يستحَرَ القتل بالقرآء بالمواطن فيذهب كثير من القرآن" فذهاب بعض القرآء قد يعني ذهاب الآخرين، فبهذا العمل أمكن تدارك الأمر منذ بدايته.

المؤهلات التي استوجبت تقديم زيد بن ثابت لجمع القرآن:

من الرواية السابق يتبين لنا أن اختيار الصديق زيد بن ثابت لجمع القرآن لم يأت محاباة منه، إنما كان هذا الاختيار؛ لأن زيدا انفرد بمواصفات خاصة تميزه عن غيره، وقد أفصح الصديق رضي الله عنه كما في الحديث السابق، أنه قال لزيد: "إنك رجل شاب عاقل لا نتهمك، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ فتتبع القرآن فاجمعه". ويمكن لنا تلخيص هذه المؤهلات في الآتي:

(1) صحيح البخاري: كتاب فضائل القرآن، باب جمع القرآن، 183/6، ح 4986.

1. أنه رجل شاب، ولا يخفى على أحد ما يتميز به الشباب من النشاط، والاستمرار في العمل بلا فتور.
2. أن زيِّداً كان من حفظة القرآن.
3. أنه كان من كتَّاب الوحي، فهو يَخْبُرُ هذا العمل، وهذه مزية تستوجب تقديمه.
4. أنه كان معروفاً برجاحة عقله وشدة ورعه.
5. أمانته واستقامته، ومن كان كذلك فلا يتطرق إليه تجريح أو غيره.
6. تميزه بشدة الضبط وحسن الخط، وإلا لما كان من كتَّاب الوحي.
7. أنه شهد العرضة الأخيرة.

لهذه الأسباب وغيرها كان اختيار الصديق رضي الله عنه لزيد بن ثابت وكان اختياراً موفقاً، خلا أن زيِّداً لم يوافق أول الأمر، وإنما تردد فلم يزل الصديق يراجع حتى شرح الله صدره لهذا الأمر.

ويعلل ذلك ابن بطال فيقول: "إنما نفر أبو بكر أولاً، ثم زيد بن ثابت ثانياً، لأنهما لم يجدا رسول الله ﷺ فعله، فكرها أن يحلا أنفسهما محل من يزيد احتياطه للدين على احتياط الرسول⁽¹⁾".

مواصفات الجمع:

لقد انتهج زيد في القرآن طريقة دقيقة محكمة وضعها له أبو بكر وعمر، فيها ضمان وتثبت وحذر بالغ، فلم يكتف بما حفظ قلبه ولا بما كتبه بيده ولا بما سمعه بإذنه؛ بل اعتمد على مصدرين:

أحدهما: ما كتب بين يدي الرسول ﷺ.

الثاني: ما كان محفوظاً في صدور الرجال. وفيما يلي بعض المواصفات:

قال يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب: قدم عمر فقال: من كان تلقى من رسول الله ﷺ شيئاً من القرآن فليأت به، وكانوا يكتبون ذلك في الصحف والألواح والعصب، وكان لا يقبل من أحد شيئاً حتى يشهد شاهدان⁽²⁾.

ويدل عليه ما أخبر به هشام بن عروة عن أبيه أن أبا بكر قال لعمر وزيد: أَعْدَا عَلَيَّ بَابِ الْمَسْجِدِ فَمَنْ جَاءَكُمْ بِشَاهِدَيْنِ عَلَيَّ شَيْءٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ فَاكْتُبَاهُ⁽³⁾.

(1) فتح الباري، لابن حجر، 13/9 .

(2) المصاحف لابن أبي داود ص113، الإقناع، للسيوطي، 205/1 .

(3) المصاحف لابن أبي داود ص51، قال ابن حجر: رجاله ثقات مع انقطاعه . فتح الباري، لابن حجر،

وهذا يدل على أن زيدا كان لا يكتفي بمجرد وجدانه مكتوبًا، وإنما كان يطلب شاهدين، يشهدان أن هذا المكتوب كتب بين يدي النبي ρ أو روجع على قراءته، أو سمعه وأقره. وكان ذلك مبالغة في الاحتياط.

فليس المقصود بالشهادة هنا الشهادة على قرآنية المكتوب إنما المراد أنهما يشهدان على أن ذلك المكتوب كتب بين يدي رسول الله ρ ، أو المراد أنهما يشهدان على أن ذلك من الوجوه التي نزل فيها القرآن.

وكان غرضهم أن لا يكتب إلا من عين ما كتب بين يدي النبي ρ ، لا من مجرد الحفظ. وروى عن الليث بن سعد قال: **أَوَّلُ مَنْ جَمَعَ الْقُرْآنَ أَبُو بَكْرٍ وَكَتَبَهُ زَيْدٌ، وَكَانَ النَّاسُ يَأْتُونَ زَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ فَكَانَ لَا يَكْتُبُ آيَةً إِلَّا بِشَاهِدِي عَدْلٍ، وَإِنَّ آخِرَ سُورَةٍ بَرَاءَةٍ لَمْ تُوجَدْ إِلَّا مَعَ أَبِي حُزَيْمَةَ بْنِ ثَابِتٍ فَقَالَ: اكْتُبُوهَا فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ρ جَعَلَ شَهَادَتَهُ بِشَهَادَةِ رَجُلَيْنِ فَكَتَبَ. وَإِنَّ عُمَرَ أَتَى بِآيَةِ الرَّجْمِ فَلَمْ يَكْتُبْهَا، لِأَنَّهُ كَانَ وَحْدَهُ (1).**

قال علي τ : إن أعظم الناس أجرا في المصاحف أبو بكر الصديق، كان أول من جمع القرآن بين اللوحين (2).

وقد قوبلت تلك الصحف التي جمعها زيد بما تستحق من عناية فائقة، فحفظها أبو بكر عنده، ثم حفظها عمر بعده، ثم حفظتها أم المؤمنين حفصة بنت عمر بعد وفاة عمر حتى طلبها عثمان بن عفان τ حيث اعتمد عليها في استنساخ مصاحف القرآن ثم ردها إليها.

مميزات جمع أبي بكر:

امتاز جمع أبي بكر بما يأتي:

1. أن القرآن حظي بأعلى طرق التثبيت والاستيثاق.

2. أنه كان مرتب الآيات.

3. اقتصاره على ما لم تنسخ تلاوته، وتجريده مما ليس بقرآن.

4. تميزه بالدقة والسلامة من الزيادة والنقصان.

5. اشتماله على الأحرف السبعة.

6. ظفر بإجماع الأمة وتواتر ما فيه.

تسميته بالمصحف: روى السيوطي عن ابن أخته في كتابه المصاحف أنه قال: "لما جمعوا القرآن فكتبوه في الورق، قال أبو بكر: التمسوا له اسمًا، فقال بعضهم: السِّفْرُ.

(1) رواه أبو داود، وهو حديث رجاله ثقات وإن كان منقطعًا. قال ابن حجر: المراد بالشاهدين: الحفظ والكتابة.

ينظر: فتح الباري، لابن حجر، 15/9.

(2) المصاحف لابن أبي داود ص 49 .

وقال بعضهم: المصحف، فإن الحبشة يسمونه المصحف.
وكان أبو بكر أول من جمع كتاب الله وسماه "المصحف"⁽¹⁾.

المطلب الثالث: الجمع في عهد عثمان ٣:

سبق أن قلنا: إن القرآن جمع كله في عهد الخليفة الأول أبي بكر، وظلت هذه الصحف عنده ثم انتقلت إلى عمر بن الخطاب في خلافته ثم إلى السيدة حفصة أم المؤمنين رضي الله عنها ليكون مصونًا محفوظًا يرجع إليه عند الحاجة.

بقيت تلك الصحف عند السيدة حفصة حتى خلافة عثمان ٣ فلما اتسعت الفتوحات في زمن الفتوحات في زمن عثمان، واستجد العمران وتفرق المسلمون في الأمصار والأقطار، ونبئت ناشئة جديدة كانت بحاجة إلى دراسة القرآن، وطال عهد الناس بالرسول والوحي والتنزيل، وكان أهل كل إقليم من أقاليم الإسلام يأخذون بقراءة من اشتهر منهم من الصحابة، فأهل الشام يقرءون بقراءة أبي بن كعب، وأهل الكوفة يقرءون بقراءة عبد الله بن مسعود وغيرهم يقرأ بقراءة أبي موسى الأشعري، فكان بينهم اختلاف في حروف الأداء ووجوه القراءة، بطريقة فتحت باب الشقاق والنزاع في قراءة القرآن أشبه بما كان بين الصحابة قبل أن يعلموا أن القرآن نزل على سبعة أحرف، بل كان الشقاق أشد، لبعد عهد هؤلاء بالنبوة وعدم وجود الرسول بينهم يطمنون إلى حكمه ويرجعون جميعًا إلى رأيه.

واستفحل الداء حتى كفر بعضهم بعضًا، وكادت تكون فتنة في الأرض وفساد كبير، ولم يقف هذا الخلاف عند حد، بل كاد يلفح بناه جميع البلاد الإسلامية حتى الحجاز والمدينة، وأصاب الصغار والكبار على السواء.

وها هو الإمام البخاري يروي لنا سبب جمع عثمان للقرآن:

أخرج البخاري عن أنس أَنَّ حُدَيْفَةَ بْنَ الْيَمَانِ قَدِمَ عَلَى عُمَانَ، وَكَانَ يُعَازِي أَهْلَ الشَّامِ فِي فَتْحِ إِرْمِينِيَّةَ وَأَذْرَبِجَانَ مَعَ أَهْلِ الْعِرَاقِ، فَأَفْرَعُ حُدَيْفَةَ اخْتِلَافُهُمْ فِي الْقِرَاءَةِ، فَقَالَ حُدَيْفَةُ لِعُمَانَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، أَدْرِيكَ هَذِهِ الْأُمَّةَ قَبْلَ أَنْ يَخْتَلِفُوا فِي الْكِتَابِ، اخْتِلَافَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، فَأَرْسَلَ عُمَانُ إِلَى حَفْصَةَ: أَنْ أَرْسِلِي إِلَيْنَا بِالصُّحُفِ نَنْسُخُهَا فِي الْمَصَاحِفِ ثُمَّ تَرُدُّهَا إِلَيْكَ، فَأَرْسَلَتْ بِهَا حَفْصَةُ إِلَى عُمَانَ، فَأَمَرَ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ، وَسَعِيدُ بْنُ الْعَاصِ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ الْحَارِثِ بْنِ هِشَامٍ، فَنَسَخُوهَا فِي الْمَصَاحِفِ، وَقَالَ عُمَانُ لِلرَّهْطِ الْقُرَشِيِّينَ الثَّلَاثَةِ: إِذَا اخْتَلَفْتُمْ أَنْتُمْ وَزَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ فِي شَيْءٍ مِنَ الْقُرْآنِ فَاكْتُبُوهُ بِلِسَانِ قُرَيْشٍ، فَإِنَّمَا نَزَلَ بِلِسَانِهِمْ، فَفَعَلُوا، حَتَّى إِذَا

(1) الإتيان، للسيوطي، 1/185 .

نَسَخُوا الصُّحُفَ فِي الْمَصَاحِفِ رَدَّ عُمَانُ الصُّحُفَ إِلَى حَفْصَةَ، وَأَرْسَلَ إِلَى كُلِّ أَفْقٍ بِمُصْحَفٍ مِمَّا نَسَخُوا، وَأَمَرَ بِمَا سِوَاهُ مِنَ الْقُرْآنِ فِي كُلِّ صَحِيفَةٍ أَوْ مُصْحَفٍ أَنْ يُحْرَقَ⁽¹⁾.

أضف إلى ذلك أن الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن الكريم لم تكن معروفة لأهل تلك الأمصار ولم يكن من السهل عليهم أن يعرفوها كلها، حتى يتحاكموا إليها فيما يختلفون، بل كان كل صحابي في قطر يقرئهم بما يعرف فقط من الحروف التي نزل عليها القرآن، ولم يكن بين أيديهم مصحف جامع يرجعون إليه فيما شجر بينهم من هذا الخلاف والشقاق البعيد.

لهذه الأسباب والأحداث، رأى عثمان بثاقب رأيه، وصادق نظره، أن يتدارك الخرق قبل أن يتسع على الراقع، وأن يستأصل الداء قبل أن يعز الدواء، فجمع أعلام الصحابة وذوي البصر منهم، وأجال الرأي بينه وبينهم في علاج هذه الفتنة، ووضع حدًا لذلك الاختلاف، وحسم مادة هذا النزاع، فأجمعوا أمرهم على استئساخ مصاحف ترسل إلى الأمصار، وحرق كل ما عداها، وألا يعتدوا بسواها، وبذلك يرأب الصدع ويجبر الكسر، وتعتبر تلك المصاحف العثمانية الرسمية نورهم الهادي، وحكمهم العدل في ذلك النزاع والمرء. وشفاءهم الناجع من مصيبة ذلك الداء⁽²⁾.

تنفيذ قرار الجمع:

وشرع عثمان في تنفيذ هذا القرار الحكيم، في أواخر سنة أربع وعشرين وأوائل سنة خمس وعشرين من الهجرة، فعهد في نسخ المصاحف إلى أربعة من الصحابة وثقات الحفاظ، وهم:

1. زيد بن ثابت الأنصاري الخزرجي، أحد كتّاب الوحي لرسول الله ρ ، وهو الذي كلفه أبو بكر الصديق رضي الله عنه بجمع المصحف في عهده. توفي سنة 42هـ وقيل 43هـ وقيل 45هـ⁽³⁾.

2. عبد الله بن الزبير بن العوام القرشي، أحد العبادلة الذين اشتهروا بالعلم، وعنوا بحفظ القرآن الكريم. توفي سنة 73هـ⁽⁴⁾.

3. سعيد بن العاص القرشي الأموي، كان من فصحاء قريش، ومما قيل فيه: إن عربية القرآن أقيمت على لسان سعيد بن العاص؛ لأنه كان أشبه الصحابة بلهجة رسول الله ρ . توفي سنة 59هـ⁽⁵⁾.

(1) صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب جمع القرآن، 183/6، ح 4987.

(2) مناهل العرفان، للزرقاني، 257/1.

(3) الاستيعاب في معرفة الأصحاب، لابن عبد البر: 537/2، الأعلام للزركلي، 57/3.

(4) تاريخ دمشق لابن عساكر، 140/28، سير أعلام النبلاء، 363/3.

(5) الطبقات الكبرى، لابن سعد، 21/5، التاريخ الكبير، للبخاري، 502/3.

4. عبد الرحمن بن الحارث بن هشام القرشي المخزومي، كان من أشرف قريش، نشأ في حجر عمر، وتزوج بنت عثمان رضي الله عنهم، مات سنة 43هـ (1).
وجاء في بعض الروايات أن الذين ندبوا للنسخ كانوا اثني عشر رجلاً.
ولا تنافي بين الروايات، إذ الأربعة هم من يباشرون هذا العمل، وساهم الباقون معهم في هذا العمل الذي تنوع به الجبال.

منهج عثمان في نسخ المصاحف:

وضع عثمان رضي الله عنه لنسخ المصاحف منهجاً حكيماً تمثل في الآتي:

- 1 . الاعتماد على الصحف التي جمعها زيد بن ثابت - رضي الله عنه - في عهد أبي بكر الصديق، والتي كانت عند حفصة رضي الله تعالى عنها، حيث قال لها: "أرسلني إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف ثم نردها إليك".
- 2 . تعاوده المستمر لهذا العمل، قال كثير بن أفلح: "كان عثمان يتعادهم، فكانوا إذا تدارعوا في شيء أخروه" (2).
- أخرج البخاري أن ابن الزبير (أحد أعضاء اللجنة) قال: قُلْتُ لِعُثْمَانَ: هَذِهِ الْآيَةُ الَّتِي فِي الْبُقْرَةِ: (وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذُرُونَ أَزْوَاجًا) [البقرة: 234] إِلَى قَوْلِهِ (غَيْرِ إِخْرَاجٍ) [البقرة: 240] قَدْ نَسَخْنَاهَا الْأُخْرَى، فَلِمَ تَكْتُبُهَا؟ قَالَ: تَدْعُهَا يَا ابْنَ أَخِي، لَا أُغَيِّرُ شَيْئًا مِنْهُ مِنْ مَكَانِهِ (3).
- 3 . كتابة ما تحققوا أنه قرآن قد استقر في العرصة الأخيرة، وأيقنوا صحته عن النبي μ مما لم ينسخ، وتركوا ما سوى ذلك.
- 4 . الاقتصاد على حرف واحد من الأحرف السبعة.
- 5 . كتابة الكلمات التي تواترت فيها القراءات برسم يحتمل القراءات الواردة فيها، وساعد على ذلك عدم التشكيل، وعدم التنقيط.
- نحو (فَتَبَيَّنُوا) من قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بَنِيًّا فَتَبَيَّنُوا) [الحجرات: 6] فإنها تصح أن تقرأ "فتثبتوا" عند خلوها من النقط والشكل وهي قراءة أخرى (4).
- وكذلك كلمة "ننشزها" من قوله تعالى: (وَإِنظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا) [البقرة: ٢٥٩] فكان تجردها من النقط والشكل يجعلها تقرأ "ننشزها" و"ننشزها" (5).

(1) تهذيب الكمال في أسماء الرجال، للمزي، 39/17، الأعلام، للزركلي، 303/3 .

(2) المصاحف لابن أبي داود، ص 105 .

(3) صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً 6 / 31، ح 4536 .

(4) النشر في القراءات العشر، لابن الجزري 251/2 .

(5) التيسير في القراءات السبع، للداني ص 82 .

- 4 . أما الكلمات التي تواترت فيها القراءات ولا يمكن كتابتها برسمها وتحتمل القراءات فيها، فإنهم كانوا يرسمونها في بعض المصاحف برسم يدل على قراءة وفي بعض آخر برسم آخر يدل على القراءة الثانية، كقراءة "وصى" بالتضعيف (وأوصي) بالهمز، وهما قراءتان في قوله تعالى: (وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ) [البقرة: 132] (1).
- 5 . الاحتكام عند الاختلاف إلى لغة قريش، حيث قال عثمان بن عفان - رضي الله عنه - للرهط القرشيين الثلاثة: "إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش فإنما نزل بلسانهم" (2).

حرق عثمان للمصاحف والصحف المخالفة للمصاحف التي نسخت:

بعد أن أتم عثمان نسخ المصاحف بالصورة السابقة، عمل على إرسالها وإنفاذها إلى الأقطار، وأمر أن يحرق كل ما عداها مما يخالفها، سواء أكانت صحفًا أو مصاحف وذلك ليقطع عرق النزاع من ناحية، وليحمل المسلمين على الجادة في كتاب الله من ناحية أخرى، فلا يأخذوا إلا بتلك المصاحف التي توافر فيها من المزايا ما لم يتوافر في غيرها.

وقد استجاب الصحابة لعثمان، فحرقوا مصاحفهم، واجتمعوا جميعًا على المصاحف العثمانية، حتى عبد الله بن مسعود الذي نقل عنه أنه أنكر أولاً مصاحف عثمان وأنه أبي أن يحرق مصحفه، رجع وعاد إلى حظيرة الجماعة، حين ظهر له مزايا تلك المصاحف العثمانية، واجتماع الأمة عليها، وتوحيد الكلمة بها.

فرضي الله عن عثمان وأرضاه، إذ قام بهذا العمل الجليل، وحافظ على القرآن، وجمع كلمة الأمة، وأغلق باب الفتنة، ولا يبرح المسلمون يقطفون من ثمار خيره العظيم.

ولن يقدر في عمله هذا أنه أحرق المصاحف والصحف المخالفة للمصاحف العثمانية، فقد علمت وجهة نظره في ذلك، على أنه ما فعل من هذا الأمر الجليل إلا بعد أن استشار الصحابة، واكتسب موافقتهم، بل وظفر بمعاونتهم وتأييدهم، فكان ذلك إجماعًا منهم على ذلك.

مزايا جمع عثمان رضي الله عنه:

1. الإقتصار على ما يثبت بالتواتر، دون ما كانت روايته آحادًا.
2. إهمال ما نسخت تلاوته.
3. ترتيب السور والآيات على الوجه المعروف الآن بخلاف صحف أبي بكر فقد كانت مرتبة الآيات دون السور.

(1) المقنع في رسم مصاحف الأمصار، للداني ص 106 .

(2) صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن باب جمع القرآن 183/6، ح 4987.

4. كتابتها بطريقة كانت تجمع وجوه القراءات المختلفة والأحرف التي نزل عليها القرآن، على ما مر بك من عدم إجماعها وشكلها، ومن توزيع وجوه القراءات على المصاحف إذا لم يحتملها الرسم الواحد.

5. تجريدها من كل ما ليس قرآنا كالذي كان يكتبه بعض الصحابة في مصاحفهم الخاصة شرخًا لمعنى، أو بيانًا لناسخ ومنسوخ، أو نحو ذلك.

عدد المصاحف التي نسخها عثمان رضي الله عنه:

اختلف العلماء في عدد المصاحف التي نسخت، فمن قائل: خمسة مصاحف وهو المشهور وقد أرسلت إلى: مكة، والشام، والبصرة، والكوفة، والخامس بقي في المدينة. وقول آخر: أنها سبعة أرسلت إلى: مكة، ومصر، والبصرة، والكوفة، والشام، واليمن، والمدينة.

وقول ثالث: أنه أرسل مصحفًا للبحرين. وهناك قول أنها ستة، وقول أنها ثمانية. وعلى أية حال هذا خلاف لا داعي له ولا يمثل شيئًا، فالذي نثق فيه أن عثمان بن عفان استنسخ عددًا من المصاحف تفي بحاجة الأمة الإسلامية وقتها. والأهم أن نعرف أن عثمان بن عفان اختار حفاظًا يثق بهم وأنفذهم إلى الأقطار الإسلامية لتعليم الناس⁽¹⁾.

ويقال لهذه المصاحف (العثمانية)، فهي ليست مكتوبة بخط عثمان، وإنما يقال لها المصاحف العثمانية نسبة إلى أمره وزمانه وإمارته⁽²⁾.

(1) مناهل العرفان، للزرقاني، 403/1 وينظر: البداية والنهاية، لابن كثير 217/7، المصاحف، لابن أبي داود ص 24.

(2) البداية والنهاية، لابن كثير 217/7، فضائل القرآن لابن كثير ص 15.

المبحث الثاني: ترتيب الآيات والسور.

المطلب الأول: ترتيب الآيات:

أجمع العلماء على أن ترتيب الآيات توقيفي من النبي ρ ، وأنه لا مجال للرأي والاجتهاد فيه، فقد كان جبريل ينزل بالآيات على رسول الله ρ ويرشده إلى موضع كل آية من سورتها، ثم يقرأها النبي ρ على أصحابه ويأمر كتاب الوحي بكتابتها، معيّنًا لهم السورة التي تكون فيها الآية وموضع الآية من السورة.

الأدلة:

قال السيوطي: "الإجماع والنصوص المترادفة على أن ترتيب الآيات توقيفي لا شبهة في ذلك، وأما الإجماع فنقله غير واحد، منهم الزركشي في البرهان وأبو جعفر بن الزبير في مناسباته، وعبارته: ترتيب الآيات في سورها واقع بتوقيفه ρ وأمره من غير خلاف في هذا بين المسلمين" (1).

قال زيد بن ثابت: كنا عند النبي ρ نُؤَلِّفُ الْقُرْآنَ مِنَ الرَّقَاعِ (2).

أَلَّفَ بَعْضُهُ بَعْضًا، وَأَلْفَهُ: جَمَعَ بَعْضُهُ إِلَى بَعْضٍ، وَتَأَلَّفَ: تَنَزَّهَ. (3)، ومنه قوله تعالى " وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (الأنفال: 63)"

، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ زَيْدِ بْنِ عَاصِمٍ، قَالَ: لَمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ حُنَيْنٍ، قَسَمَ فِي النَّاسِ فِي الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ، وَلَمْ يُعْطِ الْأَنْصَارَ شَيْئًا، فَكَأَنَّهُمْ وَجَدُوا إِذْ لَمْ يُصِيبَهُمْ مَا أَصَابَ النَّاسَ، فَحَطَبَهُمْ فَقَالَ: «يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ، أَلَمْ أُجِدْكُمْ ضَلَالًا فَهَذَا كُمْ [ص: 158] اللَّهُ بِي، وَكُنْتُمْ مُتَعَرِّقِينَ فَأَلَّفَكُمُ اللَّهُ بِي، وَعَالَةً فَأَغْنَاكُمُ اللَّهُ بِي» كُلَّمَا قَالَ شَيْئًا قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمَنٌ، قَالَ: «مَا يَمْنَعُكُمْ أَنْ تُجِيبُوا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ». قَالَ: كُلَّمَا قَالَ شَيْئًا، قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمَنٌ، قَالَ: " لَوْ شِئْتُمْ لَقُتُمْ: جِئْتَنَا كَذًا وَكَذًا، أَنْتَرَضُونَ أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالشَّاةِ وَالْبَعِيرِ، وَتَذْهَبُونَ بِالنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى رِحَالِكُمْ، لَوْلَا الْهَجْرَةُ لَكُنْتُ أَمْرًا مِنَ الْأَنْصَارِ، وَلَوْ سَلَكَ النَّاسُ وَاذِيَا وَشِعْبًا لَسَلَكَتُ وَاذِي الْأَنْصَارِ وَشِعْبَهَا، الْأَنْصَارُ شِعَارٌ وَالنَّاسُ دِتَارٌ، إِنَّكُمْ سَتَلْقَوْنَ بَعْدِي أُتْرَةً، فَاصْبِرُوا حَتَّى تَلْفُؤُنِي عَلَى الْحَوْضِ " (4)

(1) الإتيقان، للسيوطي، 211/1 .

(2) مسند أحمد 484/35

(3) لسان العرب فصل الهمزة ج 9 ص 11

(4) أخرجه البخاري في صحيحه برقم (4330) باب: "عزوة الطائف" ج 5 ص 1557، مسلم برقم (1061) باب: "إعطاء المؤلفة قلوبهم على سهم الإسلام" ج 1 ص 738

قال البيهقي: والمراد تأليف ما نزل من الآيات المفارقة في سورها وجمعها فيها بإشارة النبي ﷺ⁽¹⁾. وقال عثمان بن عفان - رضي الله عنه -: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِمَّا يَأْتِي عَلَيْهِ الزَّمَانُ وَهُوَ يُنَزَّلُ عَلَيْهِ السُّورُ ذَوَاتُ الْعَدَدِ، فَكَانَ إِذَا نَزَلَ عَلَيْهِ الشَّيْءُ دَعَا بَعْضَ مَنْ كَانَ يَكْتُبُ، فَيَقُولُ: صَعُوا هَؤُلَاءِ الْآيَاتِ فِي السُّورَةِ الَّتِي يُذَكَّرُ فِيهَا كَذَا وَكَذَا، وَإِذَا نَزَلَتْ عَلَيْهِ الْآيَةُ، فَيَقُولُ: صَعُوا هَذِهِ الْآيَةَ فِي السُّورَةِ الَّتِي يُذَكَّرُ فِيهَا كَذَا وَكَذَا⁽²⁾.

ويكفي ثبوت الترتيب قراءته ﷺ لسور كثيرة بمشهد من الصحابة رضوان الله عليهم ثم نقلهم للتابعين على مثل ذلك، حتى وصل إلينا ذلك من غير خلاف.

ومنها: ما روى عَنْ عُثْمَانَ بْنِ أَبِي الْعَاصِ قَالَ: كُنْتُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ جَالِسًا، إِذْ شَخَّصَ بَبَصَرِهِ ثُمَّ صَوَّبَهُ حَتَّى كَادَ أَنْ يُلْزِقَهُ بِالْأَرْضِ، قَالَ: ثُمَّ شَخَّصَ بَبَصَرِهِ فَقَالَ: « أَتَانِي جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَأَمَرَنِي أَنْ أَضَعَّ هَذِهِ الْآيَةَ بِهَذَا الْمَوْضِعِ مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ: (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) [النحل: ٩٠] إِلَى آخِرِهَا⁽³⁾.

ومنها ما أخرجه مسلم عن عمر قال:.. مَا رَاجَعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي شَيْءٍ مَا رَاجَعْتُهُ فِي الْكَلَالَةِ، وَمَا أَغْلَطَ لِي فِي شَيْءٍ مَا أَغْلَطَ لِي فِيهِ حَتَّى طَعَنَ بِإِصْبَعِهِ فِي صَدْرِي فَقَالَ: يَا عُمَرُ، أَلَا تَكْفِيكَ آيَةُ الصَّنِيفِ الَّتِي فِي آخِرِ سُورَةِ النِّسَاءِ؟⁽⁴⁾.
فقد دلل النبي ﷺ على موضع تلك الآية من سورة النساء.

المطلب الثاني: ترتيب السور:

وأما ترتيب السور فهل هو توقيفي أيضًا، أو هو باجتهاد من الصحابة؟ في ذلك آراء للعلماء.

القول الأول: ترتيب اجتهادي:

قال ابن فارس في كتاب المسائل الخمس: جمع القرآن على ضربين أحدهما تأليف السور كتقديم السبع الطوال وتعقيبها بالمئين، فهذا هو الذي تولته الصحابة، وأما الجمع الآخر وهو جمع الآيات في السور فهو توقيفي، تولاه النبي ﷺ⁽⁵⁾.

(1) شعب الإيمان، للبيهقي 343/1 .

(2) سنن الترمذي، أبواب التفسير، باب ومن سورة التوبة 272/5، ح 3086.

(3) مسند أحمد 441/29 .

(4) صحيح مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب نهي من أكل ثوماً أو بصلاً أو كراثاً أو نحوها، 81/2، ح 567.

(5) البرهان في علوم القرآن، الزركشي، 237/1 .

وقد اعتمد أهل هذا الرأي على أن مصاحف الصحابة كانت مختلفة في ترتيب السور قبل أن يجمع القرآن في عهد عثمان، فلو كان هذا الترتيب توقيفياً منقولاً عن النبي ρ ما ساء لهم أن يهملوه ويتجاوزوه ويختلفوا فيه ذلك الاختلاف الذي تصوره لنا الروايات⁽¹⁾. وهذا الدليل يمكن الرد عليه بأن اختلاف من خالف من الصحابة في الترتيب إنما كان قبل علمهم بالتوقيف.

القول الثاني: ترتيب توقيفي:

قال الطيبي: أنزل القرآن أولاً جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا، ثم نزل مفرقاً على حسب المصالح، ثم أثبت في المصاحف على التأليف والنظم المثبت في اللوح المحفوظ⁽²⁾.

قال عبد الرحمن بن زيد سمعتُ ابنَ مسعودٍ يَقُولُ: فِي بَيْتِي إِسْرَائِيلَ وَالْكَهْفِ وَمَرْيَمَ وَطِهَ وَالْأَنْبِيَاءَ: إِنَّهُمْ مِنَ الْعِتَاقِ الْأُولَى، وَهُمْ مِنْ تِلَادِي⁽³⁾.

فذكر ابن مسعود السور نسقا كما استقر ترتيبها.

وَعَنْ عَائِشَةَ: أَنَّ النَّبِيَّ ρ كَانَ إِذَا أَوَى إِلَى فِرَاشِهِ كُلَّ لَيْلَةٍ، جَمَعَ كَفَّيْهِ ثُمَّ نَفَثَ فِيهِمَا، فَفَرَأَ فِيهِمَا [قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ]، و [قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ]، و [قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ]...⁽⁴⁾.

وعن واثلة بن الأسقع أن النبي ρ قال: أُعْطِيتُ مَكَانَ التَّوْرَةِ السَّبْعَ، وَأُعْطِيتُ مَكَانَ الزَّبُورِ الْمِئِينَ، وَأُعْطِيتُ مَكَانَ الْإِنْجِيلِ الْمِئَاتِي، وَفُضِّلْتُ بِالْمُفْصَلِ⁽⁵⁾.

قال أبو جعفر النحاس: "وهذا الحديث يدل على أن تأليف القرآن مأخوذ عن النبي ρ : وأنه مؤلف من ذلك الوقت، وإنما جمع في المصحف على شيء واحد، لأنه قد جاء هذا الحديث بلفظ رسول الله ρ على تأليف القرآن⁽⁶⁾.

وأيد هذا الرأي أبو بكر الأنباري فقال: أنزل الله القرآن إلى سماء الدنيا ثم فرقه في بضع وعشرين سنة، فكانت السورة تنزل لأمر يحدث، والآية جواباً لمستخبر، ويقف جبريل والنبي ρ على موضع السور والآيات والحروف. كله من النبي ρ فمن قدم سورة أو آخرها أفسد نظم القرآن⁽⁷⁾.

(1) المصدر السابق، 253/1 .

(2) الإتيقان، للسيوطي، 217/1 .

(3) صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب تأليف القرآن، 185/6، ح 4994.

(4) صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب فضل المعوذات 190/6، ح 5017.

(5) مسند أحمد 188/28، ح 16982.

(6) البرهان في علوم القرآن، الزركشي، 258/1 .

(7) مناهل العرفان، للزرقاني، 355/1 .

واحتج أهل هذا القول بأن السور المتجانسة في القرآن لم يلتزم فيها الترتيب والولاء، ولو كان الأمر بالاجتهاد للوحد مكان هذا التجانس والتماثل دائماً، لكن ذلك لم يكن بدليل أن سور المسبحات لم ترتب على التوالي بينما هي متماثلة في افتتاح كل منها بتسبيح الله. بل فصل بين سورها بسورة "قد سمع" والممتحنة والمنافقين" وبدليل أن "طسم الشعراء وطسم القصص" لم يتعاقبا مع تماثلهما، بل فصل بينهما بسور أقصر منها وهي "طس النمل"⁽¹⁾. وهذا القول هو الراجح لقوة أدلته.

قال العلماء: لترتيب وضع السور في المصحف أسباب، تطع على أنه توقيفي صادر عن حكيم، بحسب الآتي:

- أ- بحسب الحروف كما في الحواميم.
- ب- الموافقة بين أول السورة لآخر ما قبلها، كآخر الحمد لله، وأول البقرة.
- ج- للتوازن في اللفظ، كآخر "تبت" وأول "الإخلاص".
- د- المشابهة بين جملة السورة لجملة الأخرى كالضحى وألم نشرح⁽²⁾.

ترتيب السور في التلاوة:

ترتيب السور في التلاوة، ليس بواجب، إنما هو مندوب. قال النووي في التبيان قال العلماء: الاختيار أن يقرأ على ترتيب المصحف، فيقرأ الفاتحة ثم البقرة ثم آل عمران ثم ما بعدها على الترتيب سواء أقرأ في الصلاة أم في غيرها..".
ودليل ذلك أن هذا ترتيب المصحف وهو لحكمة فينبغي أن يحافظ عليها إلا فيما ورد الشرع باستثنائه.

ولو خالف المواولة فقرأ سورة لا تلي الأولى، أو خالف الترتيب فقرأ سورة قبلها جاز وقد كره جماعة مخالفة ترتيب المصحف⁽³⁾.

قراءة السورة من آخرها إلى أولها:

هذا ممنوع قطعاً؛ لأنه يذهب ببعض ضروب الإعجاز ويزيل حكمة ترتيب الآيات⁽⁴⁾.
وأما تعليم الصبيان من آخر المصحف إلى أوله فحسن، وليس من هذا الباب.

(1) مناهل العرفان، للزرقاني، 355/1 .

(2) سواء كان هذا الترتيب توقيفياً أو اجتهادياً، فلا بد من احترامه، والعمل به، خصوصاً في كتابة المصاحف، لأنه يمثل إجماعاً صدر من الصحابة، ولأن الخلاف فيه يؤدي إلى فتن كبيرة وفساد عظيم، فوجب سده.

(3) التبيان في آداب حملة القرآن، لأبي زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي (ت676هـ)، تحقيق محمد الحجار، ط3، دار ابن حزم - بيروت - لبنان، ص230.

(4) مناهل العرفان، للزرقاني، 359/1 .

المطلب الثالث: تغيير رسم المصحف العثماني إلى الرسم الإملائي:

ناقش مجلس مجمع الفقه الإسلامي في دورته الثانية عشرة بمكة المكرمة 1410هـ/1990 هذا الموضوع، وبعد الاطلاع على قرار هيئة كبار العلماء بالرياض رقم (71) بتاريخ 1399/10/21هـ قرر عدم جواز تغيير رسم المصحف العثماني، ووجوب بقاء رسم المصحف العثماني على ما هو عليه ليكون حجة خالدة على عدم التسرب أو التغيير أو التحريف، أما الحاجة إلى تعليم القرآن وتسهيل قراءته على الناشئة التي اعتادت الرسم الإملائي الدارج، فإنها تتحقق عن طريق تلقين المعلمين، فالمعلم يتولى تعليم الناشئة خاصة الكلمات القليلة التي وردت في القرآن مثل "الصلوات" و"السموات" ونحوهما كما يجري مثل ذلك في رسم كلمة "هذا وذلك" في قواعد الإملاء الدارجة.

كما قرر المجلس عدم جواز تغيير رسم الأرقام العربية المستعملة حالياً إلى رسم الأرقام المستعملة في العالم الغربي⁽¹⁾.

أسئلة للمناقشة

- (1) ما المراد بجمع القرآن؟
- (2) تشمل الآيات التالية على عدة دلالات بيّنها.
- قال تعالى: (لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتُجْعَلَ بِهِ (16) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (17) فَإِذَا قَرَأَهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (18) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ)[القيامة: ١٦ - ١٩].
- (3) اذكر أسماء بعض حفظة القرآن من الصحابة، وهل هم أربعة كما جاء في حديث أنس عند البخاري؟
- (4) وضح معنى ما يأتي: (العُسْب، اللِّخَاف، الرَّقَاع، الأكتاف).
- (5) هل جمع القرآن الكريم بين دفتين في عهد النبي صلى الله عليه وسلم؟ ولم.
- (6) ما المؤهلات التي استوجبت تقديم زيد بن ثابت لجمع القرآن؟
- (7) وضح أسباب جمع القرآن الكريم في عهد أبي بكر الصديق، ومن الذي أشار بذلك؟
- (8) ما مميزات جمع أبي بكر رضي الله عنه للقرآن؟
- (9) ما أسباب نسخ القرآن الكريم في عهد عثمان؟
- (10) بيّن منهج عثمان رضي الله عنه في نسخ المصاحف.
- (11) هل يقدح في عثمان رضي الله عنه حرقه للمصاحف، ولم؟

(1) ينظر: غاية المرام شرح معنى ذوي الأفهام، الشيخ عبد المحسن العبيكان 219/2 وما بعدها.

- (12) ما مزايا جمع عثمان رضي الله عنه؟
- (13) هل جمع أبو بكر وعثمان المصاحف على الأحرف السبعة أم على حرف واحد؟
- (14) كم عدد المصاحف التي نسخها عثمان رضي الله عنه؟
- (15) قارن بين جمع أبي بكر رضي الله عنه للقرآن الكريم وجمع عثمان رضي الله عنه.
- (16) اشح الحديث الآتي، ثم بين موضع الشاهد في ضوء ما درست.
عن واثلة بن الأسقع أن النبي ﷺ قال: أُعْطِيَتْ مَكَانَ التَّوْرَةِ السَّبْعُ، وَأُعْطِيَتْ مَكَانَ الزَّبُورِ الْمِائِينَ، وَأُعْطِيَتْ مَكَانَ الْإِنْجِيلِ الْمِائَتَيْنِ، وَفُضِّلْتُ بِالْمَفْصَلِ.
- (17) هل ترتيب آيات القرآن اجتهادًا أم توقيفًا؟
- (18) بين مذاهب العلماء في ترتيب السور مع الترجيح بالأدلة.
- (19) بين حكم ترتيب السور في التلاوة، ثم حكم قراءة السورة من آخرها إلى أولها.
- (20) هل يجوز تغيير رسم المصحف العثماني إلى الرسم الإملائي؟

الفصل الخامس: أسباب النزول

مقدمة:

إن المقصد من دراسة أسباب النزول -هنا- ليس هو الوقوف على معرفة سبب نزول الآيات القرآنية، آية آية، وإنما المقصود الوقوف على نقاط أسباب النزول من حيث تعريفها، وطرق معرفتها، وفوائدها، إلى غير ذلك من موضوعات، ونحاول الربط بين أسباب النزول من حيث إنه فن إسلامي أصيل وبين ما يمكن أن يستفيد منه المسلمون في حياتهم المعاصرة وبخاصة في المنهج التعليمي.

وبين يدي -القارئ الكريم- نوضح بدايات التصنيف في أسباب النزول، فقد ذكر السيوطي - رحمه الله- أن الإمام علي بن عبد الله المدني (ت234هـ) من أقدم من أفرد معرفة أسباب النزول بالتصنيف، ولكن هذا المصنف غير مشتهر، كما أشار إلى أن شيخ الإسلام أحمد بن حجر (ت852هـ) وضع مصنفًا، مات عنه مسودة⁽¹⁾.

ومن أقدم ما وصل إلينا في أسباب النزول، كتاب "أسباب النزول" للإمام الواحدي (ت468هـ) ذكر فيه أسباب نزول الآيات الكريمة، مسندة إلى الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، أو من دونهم، وقد طبع الكتاب مرارًا.

ومن هذه المصنفات أيضًا كتاب "لباب النقول في أسباب النزول" للحافظ السيوطي (ت911هـ) لخص كتابه من جوامع الحديث والأصول، ومن تفاسير أهل النقول، وقد طبع مرارًا.

(1) الإتيان، للسيوطي، 107/1 .

المبحث الأول: تعريف سبب النزول لغة واصطلاحًا:

المطلب الأول: تعريف سبب النزول لغة:

يعرف السَّبَبُ في عرف أهل اللغة بأنه: الحبل، وكل شيء يتوصل به إلى غيره فهو سَبَبٌ، ويقال للطريق: سبب ومنه قوله تعالى: (فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ) [الحج آية {15}]⁽¹⁾. وأسباب ورود الحديث هي الظروف والملابسات التي قيل الحديث فيها. والسَّبَبُ في الشريعة: عبارة عما يكون طريقًا للوصول إلى الحكم غير مؤثر فيه⁽²⁾. وفي العرف العام: هو كل شيء يتوصل به إلى مطلوب⁽³⁾.

المطلب الثاني: تعريف سبب النزول اصطلاحًا:

هو: "ما نزلت الآية أو الآيات متحدثة عنه أو مبينة حكمه أيام وقوعه"⁽⁴⁾. والمعنى: أن حادثة وقعت في زمن النبي ρ أو سؤال وجه إليه، فنزلت الآية أو الآيات من الله - تعالى - ببيان ما يتصل بتلك الحادثة، أو بجواب السؤال⁽⁵⁾.

المراد بقوله "أيام وقوعه"

هي "الظروف التي ينزل فيها القرآن متحدثًا عن ذلك السبب سواء أوقع هذا النزول عقب سببه مباشرة أم تأخر عنه مدة لحكمة من الحكم"⁽⁶⁾. وقوله "أيام وقوعه" قيد لا بد منه للاحتراز عن الآية أو الآيات التي تنزل ابتداء من غير سبب، بينما هي تتحدث عن بعض الوقائع والأحوال الماضية أو المستقبلية، كقصص الأنبياء وأممهم وأخبار الساعة وما يتصل بها⁽⁷⁾.

-
- (1) لسان العرب، لابن منظور، 458/1، مختار الصحاح، الرازي ص 273، تاج العروس، للزيدي، 37/3 .
 - (2) كشاف اصطلاحات الفنون للتهانوي 2 / 315، التعريفات، للجرجاني، ص 154.
 - (3) كشاف اصطلاحات الفنون، للتهانوي، 2 / 315 .
 - (4) الإتيان، للسيوطي، 1 / 94، مناهل العرفان، للزرقاني، 1 / 106-107 .
 - (5) مناهل العرفان، للزرقاني، 1 / 108 .
 - (6) المصدر السابق .
 - (7) مناهل العرفان، للزرقاني، 1 / 108 .

المبحث الثاني: كيفية معرفة سبب النزول؟

قال الواحدي: "لا يحل القول في أسباب نزول الكتاب إلا بالرواية والسماع ممن شاهدوا التنزيل، ووقفوا على الأسباب، وبحثوا عن علمها وجدوا في الطلب⁽¹⁾ .
وقد كان علماء السلف يتورعون عن أن يقولوا شيئاً في ذلك دون تثبت.
قال "محمد بن سيرين": سألت "عبيدة" عن آية من القرآن فقال: اتق الله وقل سداداً، ذهب الذين يعلمون فيما أنزل الله من القرآن⁽²⁾ وهو يعني الصحابة.
فإذا كان هذا قول "ابن سيرين" من أعلام علماء التابعين تحريماً للرواية، ودقة في الفصل، فإنه يدل على وجوب التثبت والوقوف عند أسباب النزول الصحيحة.
وعليه فإن العلماء يعتمدون معرفة سبب النزول على أسس منها:

- 1- صحة الرواية عن رسول الله ﷺ، وهذا لا خلاف فيه.
 - 2- صحة الرواية عن الصحابة، فإن أخبار الصحابي عن مثل هذا، إذا كان صريحاً لا يكون بالرأي، بل يكون له حكم المرفوع.
فقد قال الحاكم في المستدرک⁽³⁾: إن تفسير الصحابي عند الشيخين مسند⁽⁴⁾، وبه قال الخطيب وأبو منصور البغدادي وابن الصلاح⁽⁵⁾، وقال آخرون بغير ذلك.
لذا فإن المعتمد في ذلك أقوال الصحابة الصحيحة الصريحة في السببية⁽⁶⁾.
 - 3 - أما أقوال التابعين فلها شروط هي:
فقد ذهب السيوطي إلى أن قول التابعي إذا كان صريحاً في سبب النزول، فإنه يقبل - ويكون مرسلًا - إذا صح السند إليه وكان من أئمة التفسير الذين أخذوا عن الصحابة، كمجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير، أو اعتضد بمرسل آخر⁽⁷⁾.
- بيان أن سبب النزول ينحصر في أمرين:

1. أن تحدث حادثة فينزل القرآن الكريم بشأنها، وذلك كالذي روى عن ابن عباس رضي الله عنهما - قال: لَمَّا نَزَلَتْ: (وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ) [الشعراء: 214] وَرَهْطَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ،

(1) أسباب النزول للواحدى ص10.

(2) أخرجه الواحدى في أسباب النزول، ص11/ وذكره ابن حجر في العجاب 1/199، وصححه.

(3) كتاب التفسير: ج2، ص258.

(4) الحديث المسند هو: ما اتصل سنده من أوله إلى منتهاه، وأكثر ما يستعمل فيما جاء عن النبي ﷺ " تدريب الراوي، للسيوطي 1/182.

(5) توضيح الأفكار للحسيني 1/281.

(6) مباحث في علوم القرآن، لصبحي الصالح ص75.

(7) الإتيقان، للسيوطي، 1 / 31.

خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى صَعِدَ الصَّفَا، فَهَتَفَ: يَا صَبَاخَاهُ، فَقَالُوا: مَنْ هَذَا؟ فَاجْتَمَعُوا إِلَيْهِ، فَقَالَ: أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا تَخْرُجُ مِنْ سَفْحِ هَذَا الْجَبَلِ، أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِي؟ قَالُوا: مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ كَذِبًا، قَالَ: فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ، قَالَ أَبُو لَهَبٍ: تَبًّا لَكَ، مَا جَمَعْتَنَا إِلَّا لِهَذَا، ثُمَّ قَامَ. فَنَزَلَتْ: (تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ) [المسد: ١] (1).

2. أن يسأل رسول الله ﷺ عن شيء فينزل القرآن ببيان الحكم فيه، كالذي كان من خولة بنت ثعلبة عندما ظاهر (2) منها زوجها أوس بن الصامت، فذهبت تشتكي من ذلك.
عن عائشة قالت: تَبَارَكَ الَّذِي وَسِعَ سَمْعُهُ كُلَّ شَيْءٍ، إِنِّي لَأَسْمَعُ كَلَامَ خَوْلَةَ بِنْتِ ثَعْلَبَةَ وَيَخْفَى عَلَيَّ بَعْضُهُ، وَهِيَ تَشْتَكِي زَوْجَهَا (3) إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهِيَ تَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَكَلْتُ شَبَابِي، وَنَزَرْتُ لَهُ بَطْنِي، حَتَّى إِذَا كَبُرَتْ سِنِّي وَانْقَطَعَ وَلَدِي ظَاهِرَ مِنِّي، اللَّهُمَّ! إِنِّي أَشْكُو إِلَيْكَ. فَمَا بَرِحْتُ حَتَّى نَزَلَ جِبْرِيلُ بِهِؤْلَاءِ الْآيَاتِ (فَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا) [المجادلة: ١] (4).

هل لكل آية سبب نزول؟

إن دراسة أسباب النزول، لا يعني أن لكل آية سبباً، فإن القرآن لم يكن نزوله وفقاً على الحوادث والوقائع، أو على الأسئلة والاستفسارات، بل كان القرآن ينزل ابتداءً، بعقائد الإيمان، وواجبات الإسلام، وشرائع الله تعالى في حياة الفرد وحياة الجماعة. ذكر السيوطي عن الجعبري: نزول القرآن على قسمين: قسم نزل ابتداءً وقسم نزل عقب واقعة أو سؤال، ليس لكل آية من القرآن سبب خاص لنزولها، بل من الإفراط أن نتوسع في ذلك الفن، فنلتمس لكل آية سبباً لنزولها تكلفاً وتعنتاً، فهناك من آيات القرآن ما نزل ابتداءً مثل الآيات التي تدعو إلى الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وهناك نوع من الآيات ليس له سبب نزول سوى الأسباب العامة التي نزلت من أجلها الشرائع، وهي هداية البشر وتنظيم حياتهم وإرشادهم إلى ما فيه خيرهم (5).

(1) صحيح البخاري: كتاب تفسير القرآن، سورة إذا جاء نصر الله، باب قوله: وتب ما أغنى عنه ماله وما كسب، 179/6، ح 4971.

(2) الظهار: قول الرجل لامرأته: أنت علي كظهر أمي. أنيس الفقهاء في تعريفات الألفاظ المتداولة بين الفقهاء، لقاسم الحنفي (978هـ)، ص 57.

(3) أوس بن الصامت.

(4) سنن ابن ماجه، أبواب الطلاق، باب المظاهر يجامع قبل أن يكفر 214/3 ح 2063، وصححه الأرئووط المستدرك على الصحيحين للحاكم: كتاب التفسير، تفسير سورة المجادلة، 523 / 2، ح 3791.

(5) ينظر الإتيان، للسيوطي، 38/1، علوم القرآن والتفسير، د. عبد الله شحاتة ص 93.

المبحث الثالث: فوائد معرفة أسباب النزول

ذكر السيوطي: أن بعض الناس زعم أنه لا فائدة للإلمام بأسباب النزول، وأنها لا تعدو أن تكون تاريخًا للنزول أو جارية مجرى التاريخ⁽¹⁾، وسوف نبين أهمية وفوائد هذا العلم من خلال عرض الحكم والفوائد مع إيضاح ذلك بالأمثلة الموضحة:

(الأولى): معرفة حكمة الله تعالى الباعثة على تشريع الحكم، وفي ذلك نفع للمؤمن وغير المؤمن؛ أما المؤمن فيزداد إيمانًا على إيمانه، ويحرص كل الحرص على تنفيذ أحكام الله والعمل بكتابه، لما يتجلى له من المصالح والمزايا التي نيطت بهذه الأحكام، ومن أجلها جاء هذا التنزيل. وأما الكافر فتسوقه تلك الحكم الباهرة إلى الإيمان - إن كان منصفًا - حين يعلم أن هذا التشريع الإسلامي قام على رعاية مصالح الإنسان، لا على الاستبداد والتحكم والطغيان، خصوصًا إذا لاحظ سير ذلك التشريع وتدرجه في موضوع واحد. وحسبك شاهدًا على هذا تحريم الخمر والربا وما نزل فيهما⁽²⁾.

(الثانية): الوقوف على معنى الآية وإزالة الإشكال عنها، حتى لقد قال الواحدي: لا يمكن معرفة تفسير الآية دون الوقوف على قصتها وبيان نزولها⁽³⁾. وقال ابن تيمية: معرفة سبب النزول يعين على فهم الآية، فإن العلم بالسبب، يورث العلم بالمسبب أ.هـ⁽⁴⁾.

مثال ذلك:

أُشكل على عروة بن الزبير τ أن يفهم فرضية السعي بين الصفا والمروة مع قوله سبحانه: (إِنَّ الصَّافَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا) [البقرة: 158]

جاء في الصحيح من حديث هشام بن عروة عن أبيه أنه قال: قُلْتُ لِعَائِشَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ρ ، وَأَنَا يَوْمَئِذٍ حَدِيثُ السِّنِّ: أَرَأَيْتِ قَوْلَ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: (إِنَّ الصَّافَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا) [البقرة: 158]، فَمَا أَرَى عَلَى أَحَدٍ شَيْئًا أَنْ لَا يَطَّوَّفَ بِهِمَا؟ فَقَالَتْ عَائِشَةُ: كَلَّا، لَوْ كَانَتْ كَمَا تَقُولُ، كَانَتْ: فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ لَا يَطَّوَّفَ بِهِمَا، إِنَّمَا أُنزِلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي الْأَنْصَارِ، كَانُوا يُهْلُونَ لِمَنَاةَ، وَكَانَتْ مَنَاةَ حَدْوً قُدَيْدٍ⁽⁵⁾، وَكَانُوا يَتَحَرَّجُونَ أَنْ يَطَّوَّفُوا بَيْنَ الصَّافَا وَالْمَرْوَةِ، فَلَمَّا جَاءَ الْإِسْلَامُ سَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ ρ عَنْ ذَلِكَ، فَأَنْزَلَ

(1) الإتيان في علوم القرآن، 38/1 .

(2) البرهان في علوم القرآن، الزركشي، 22/1، مناهل العرفان، للزرقاني 109/1.

(3) البرهان في علوم القرآن، الزركشي، 22/1 - 23.

(4) الإتيان، للسيوطي، 38/1.

(5) قُدَيْدٍ : جامعة بين مكة والمدينة كثيرة المياه. المباركفوري-تحفة الأحوذني: 242/8.

الله: (إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا) [البقرة: 1٥٨] (1).

وإشكاله نشأ من أن الآية الكريمة نفت الجناح، ونفي الجناح لا يتفق والفرضية في رأيه، وبقي في إشكاله هذا حتى سأل خالته أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، فأفهمته أن نفي الجناح هنا ليس نفيًا للفرضية، إنما هو نفي لما وقر في أذهان المسلمين يومئذ من أن السعي بين الصفا والمروة من عمل الجاهلية (2).

وهنا يتبين لنا فقه السيد عائشة رضي الله عنها ومكانتها، فقد أزلت اللبس الذي وقع فيه عروة رضي الله عنه، وبينت له أن الآية جاءت لتزيل الحرج من نفوس المسلمين الذين كانوا يتخرجون من السعي بين الصفا والمروة .

الثالثة: دفع توهم الحصر عما يفيد بظاهره الحصر: نحو قوله سبحانه: (قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهْلًا لغيرِ اللَّهِ بِهِ) [الأنعام: ١٤٥] (3).

فالآية قد حصرت المحرمات من المطعومات في أربعة هي: الميتة، ولحم الخنزير، والدم، وما أهل لغير الله.

ولما كانت المحرمات غير محصورة في هذه الأربعة، اختلف العلماء في المراد بالحصر فذهب البعض إلى أن الحصر في الآية حقيقي، وذهب البعض إلى أن الحصر هنا غير مراد. وسبب نزول الآية هو الذي يبين المعنى المراد ، وكان من أبرع من تنبه إلى هذا هو الشافعي رحمه تعالى حيث قال: "إن الكفار لما حرّموا ما أحلّ الله، وأحلّوا ما حرّم الله، وكانوا على المضادة والمحادّة جاءت الآية مناقضة لغرضهم. فكأنه قال: لا حلال إلا ما حرمتموه، ولا حرام إلا ما أحللتموه. نازلًا منزلة من يقول لك: لا تأكل اليوم حلاوة، فنقول: لا آكل اليوم إلا حلاوة، والغرض: المضادة لا النفي والإثبات على الحقيقة. فكأنه تعالى قال: "لا حرام إلا ما أحللتموه من الميتة، والدم، ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به" ولم يقصد حلّ ما وراءه، إذ القصد إثبات التحريم، لا إثبات الحل" (4).

(1) صحيح البخاري: كتاب التفسير ، باب قوله إن الصفا والمروة من شعائر الله 23/6، ح 4495 .

(2) مناهل العرفان، للزرقاني، 110/1 .

(3) سورة الأنعام 145.

(4) البرهان في علوم القرآن، 23/1، وينظر : الأم، للشافعي، 207/2. ط/ الشعب.

(الرابعة): تخصيص الحكم بالسبب، عند من يرى أن العبرة بخصوص السبب، لا بعموم اللفظ، فأيات الظهار في بداية سورة المجادلة سببها أن أوس بن الصامت ظاهر من زوجته خولة بنت حكيم بن ثعلبة.

فذهب الجمهور إلى أن العبرة بعموم اللفظ، أي أن لفظ الآية يشملها ويشمل كل من فعل فعلهما، وذهب البعض إلى أن العبرة بخصوص السبب، وعليه فالآية تخص من نزلت فيه، أما غيره ممن فعل فعله، فإنه يدخل بالقياس أو بدليل آخر. وبدهي أنه لا يمكن معرفة المقصود بهذا الحكم ولا القياس عليه، إلا إذا علم السبب. وبدون معرفة السبب تصير الآية معطلة خالية من الفائدة⁽¹⁾.

(الخامسة): تثبيت الوحي، وتيسير الحفظ والفهم، وتأكيد الحكم في ذهن من يسمع الآية، إذا عرف سببها؛ وذلك لأن ربط الأسباب بالمسببات، والأحكام بالحوادث، والحوادث بالأشخاص، والأزمنة والأمكنة، كل ذلك من دواعي تقرر الأشياء؛ وانتقاشها في الذهن، وسهولة استنكارها عند تذكر ما يقارنها، وذلك فيما يعرف في علم النفس بقانون «تداعي المعاني»⁽²⁾.

(السادسة): معرفة أسباب النزول تفيد في تعيين الشخص الذي نزلت فيه الآية حتى لا يشتبه بغيره فيظلم بها بريئاً كالذي ذكر في قوله تعالى: (**وَالَّذِي قَالَ لَوْلَاذِيهِ أَفِ لَكُمَا أَتَعِدَانِي أَنْ أَخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَعْجِلَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ**) [الأحقاف 17].

ففي الصحيح عن يوسف بن مَاهِك قَالَ: كَانَ مَرْوَانُ عَلَى الْحِجَازِ، اسْتَعْمَلَهُ مُعَاوِيَةَ، فَحَطَبَ فَجَعَلَ يَذْكُرُ يَزِيدَ بْنَ مُعَاوِيَةَ لِكَيْ يُبَايِعَ لَهُ بَعْدَ أَبِيهِ، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ شَيْئاً، فَقَالَ: خُدُوهُ، فَدَخَلَ بَيْتَ عَائِشَةَ فَلَمْ يَقْدِرُوا، فَقَالَ مَرْوَانُ: إِنَّ هَذَا الَّذِي أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ: (**وَالَّذِي قَالَ لَوْلَاذِيهِ أَفِ لَكُمَا**) [الأحقاف: 17]، فَقَالَتْ عَائِشَةُ مِنْ وَرَاءِ الْحِجَابِ: مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيْنَا شَيْئاً مِنَ الْقُرْآنِ إِلَّا أَنْ اللَّهَ أَنْزَلَ عُدْرِي⁽³⁾.

(1) مناهل العرفان، 113/1، دراسات في علوم القرآن، فهد الرومي، 146.

(2) المدخل لدراسة القرآن الكريم، لأبي شهبة ص143

(3) صحيح البخاري: كتاب التفسير: باب (والذي قال لولاديه أف لكما) 133/6، ح4827.

المبحث الرابع: التعبير عن سبب النزول.

تختلف عبارات الرواة في التعبير عن سبب النزول، فتارة يصرح فيها بلفظ السبب فيقال: (سبب نزول الآية كذا) وهذه العبارة نص في السببية لا تحتمل غيرها. وتارة لا يصرح بلفظ السبب، ولكن يُؤتى بفاء داخلية على مادة نزول الآية عقب سرد حادثة (فأنزل)، وهذه العبارة مثل تلك في الدلالة على السببية أيضًا. ومرة يسأل الرسول ρ ، فيُوحى إليه، ويجب بما نزل عليه ولا يكون تعبير بلفظ سبب النزول، ولا تعبير بتلك الفاء، ولكن السببية تفهم قطعًا من المقام. كرواية ابن مسعود -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- قَالَ: بَيْنَمَا أَنَا مَعَ النَّبِيِّ ρ فِي حَرْثٍ، وَهُوَ مُتَكِيٌّ عَلَى عَسِيبٍ، إِذْ مَرَّ الْيَهُودُ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: سَلُوهُ عَنِ الرُّوحِ؟ فَقَالَ: مَا رَبُّكُمْ إِلَيْهِ؟ وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَا يَسْتَقْبِلُكُمْ بِشَيْءٍ تَكْرَهُونَهُ، فَقَالُوا: سَلُوهُ، فَسَأَلُوهُ عَنِ الرُّوحِ، فَأَمَسَكَ النَّبِيُّ ρ فَلَمْ يَزِدْ عَلَيْهِمْ شَيْئًا، فَعَلِمْتُ أَنَّهُ يُوحَى إِلَيْهِ، فَقُمْتُ مَقَامِي، فَلَمَّا نَزَلَ الْوَحْيُ قَالَ: (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا) [الإسراء: ٨٥] (1).

وحكم هذه أيضًا حكم ما هو نص في السببية.

ومرة لا يصرح بلفظ السبب ولا يؤتى بتلك الفاء، ولا بذلك الجواب المبني على السؤال، بل يقال (نزلت هذه الآية في كذا مثلاً). وهذه العبارة ليست نصًا في السببية، بل تحتملها وتحتمل أمرًا آخر، هو بيان ما تضمنته الآية من الأحكام. والقرائن وحدها هي التي تعين أحد هذين الاحتمالين أو ترجحه.

وعليه: إذا وردت عبارتان في موضوع واحد: إحداها نص في السببية لنزول آية أو آيات، والثانية ليست نصًا في السببية لنزول تلك الآية أو الآيات، هنالك نأخذ في السببية بما هو نص، ونحمل الأخرى على أنها بيان لمدلول الآية؛ لأن النص أقوى في الدلالة من المحتمل.

أمثلة:

أ- ما رواه جابر قال: كَانَتْ الْيَهُودُ تَقُولُ: إِذَا أَتَى الرَّجُلُ امْرَأَتَهُ مِنْ دُبْرِهَا فِي قُبْلِهَا كَانَ الْوَلَدُ أَحْوَلَ، فَنَزَلَتْ: (يَسْأَلُونَكَ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ) [البقرة: ٢٢٣] (2)

(1) صحيح البخاري: كتاب التفسير، باب [وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ] 217/3، ح4721، قال أبو شهبه: " هذه الرواية وإن لم تصرح بالسبب إلا أن السببية مفهومة من فحوى القصة؛ لأنه ذَكَرَ الحالة التي يكون عليها النبي ρ عند نزول الوحي، ثم ذكر الآية عقب ذلك، كالنص على السببية " ينظر: حاشية المدخل لدراسة القرآن الكريم، لأبي شهبه، 147 .

(2) صحيح مسلم: كتاب النكاح، باب جواز جماعه امرأته في قبلها من دبرها، 298/7، ح2592.

ب- عن نافع قال: كَانَ ابْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا إِذَا قَرَأَ الْقُرْآنَ لَمْ يَتَكَلَّمْ حَتَّى يُفْرَغَ مِنْهُ، فَأَخَذْتُ عَلَيْهِ يَوْمًا، فَقَرَأَ سُورَةَ الْبَقَرَةِ، حَتَّى انْتَهَى إِلَى مَكَانٍ قَالَ: تَدْرِي فِيْمَ أُنْزِلْتُ؟ قُلْتُ: لَا، قَالَ: أُنْزِلْتُ فِي كَذَا وَكَذَا، ثُمَّ مَضَى⁽¹⁾.

فالمعتمد هنا هو رواية جابر الأولى؛ لأنها صريحة في الدلالة على السببية، وأما رواية ابن عمر فهي وإن كانت صحيحة، إلا أنها ليست صريحة في السببية. وقد بين الزركشي أنه قد عرف من عادة الصحابة والتابعين أن أحدهم إذا قال: نزلت هذه الآية في كذا، فإنه يريد بذلك أنها تتضمن هذا الحكم، لا أن هذا كان السبب في نزولها، فهو من جنس الاستدلال على الحكم بالآية، لا من جنس النقل لما وقع⁽²⁾.

المبحث الخامس: تعدد الروايات في سبب النزول:

تتغير مواقف المفسر إذا تعددت الروايات في سبب نزول آية واحدة، ومنها:

1. إذا لم تكن الصيغ الواردة صريحة مثل: نزلت هذه الآية في كذا" أو أحسبها نزلت في كذا" فلا منافاة بينهما، إذا المراد تفسير الآية، وبيان أن ذلك داخل في الآية ومستفاد منها، وليس المراد ذكر سبب النزول، إلا إذا قامت قرينة على واحدة بأن المراد بها السببية⁽³⁾.
 2. إذا رُويت عبارتان في موضوع واحد: إحداهما نص في السببية لنزول آية أو آيات، والثانية ليست نصًا في السببية لنزول تلك الآية أو الآيات، هنالك نأخذ في السببية بما هو نص، ونحمل الأخرى على أنها بيان لمدلول الآية، لأن النص أقوى في الدلالة من المحتمل.
- مثال ذلك: ما روي من حديثي جابر وابن عمر رضي الله عنهما في شأن آية البقرة :
- ﴿ نِسَاءُكُمْ حَرَّتْ لَكُمْ ﴾ وقد تقدم.

المطلب الأول: تعدد الأسباب والمنزل واحد:

فللعلماء⁽⁴⁾ في مثل هذه الحال مقياس دقيق، يرجحون به إحدى تلك الروايات أو يوفقون بينها توفيقًا سائغًا مقبولًا.

(1) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب التفسير، تفسير سورة البقرة، باب { نِسَاءُكُمْ حَرَّتْ لَكُمْ }، 3/ 148، ح 4526، قال البدر العيني: "مطابقته للترجمة تؤخذ من قوله: (في كذا وكذا) لأن المراد به في إتيان النساء في أدبارهن" عمدة القاري، للبدر العيني: 116/18.

(2) البرهان في علوم القرآن 1/31.

(3) ينظر: دراسات في علوم القرآن لمحمد بكر إسماعيل، ص 155.

(4) البرهان في علوم القرآن، الزركشي، 1/29.

أولاً: إن جاءت روايتان صحيحتان، ولا مرجح لإحدهما لكن يمكن الجمع بينهما، بأن كلا من السببين حصل ونزلت الآية عقب حصولهما معاً لتقارب زمنيتهما، فحكم هذه الصورة أن نحمل الأمر على تعدد السبب؛ لأنه الظاهر ولا مانع يمنعه.

مثال ذلك ما روى عن سهل بن سعد أن عُوَيْمِرًا أَتَى عَاصِمَ بْنَ عَدِيٍّ، وَكَانَ سَيِّدَ بَنِي عَجْلَانَ، فَقَالَ: كَيْفَ تَقُولُونَ فِي رَجُلٍ وَجَدَ مَعَ امْرَأَتِهِ رَجُلًا، أَيَقْتُلُهُ فَتَقْتُلُونَهُ، أَمْ كَيْفَ يَصْنَعُ؟ سَلَّ لِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ ذَلِكَ، فَأَتَى عَاصِمَ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَكَّرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَسَائِلَ، فَسَأَلَهُ عُوَيْمِرٌ فَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَرِهَ الْمَسَائِلَ وَعَابَهَا، قَالَ عُوَيْمِرٌ: وَاللَّهِ لَا أَنْتَهِيَ حَتَّى أَسْأَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ ذَلِكَ، فَجَاءَ عُوَيْمِرٌ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، رَجُلٌ وَجَدَ مَعَ امْرَأَتِهِ رَجُلًا، أَيَقْتُلُهُ فَتَقْتُلُونَهُ، أَمْ كَيْفَ يَصْنَعُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ الْقُرْآنَ فِيكَ وَفِي صَاحِبَيْكَ، فَأَمْرُهُمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالْمُلَاعَنَةِ بِمَا سَمَى اللَّهُ فِي كِتَابِهِ، فَلَاعَنَهَا..⁽¹⁾.

وعن عكرمة عن ابن عباس أن هلال بن أمية قد دفن امرأته عند النبي ﷺ بـشريك ابن سحماء، فقال النبي ﷺ: الْبَيْتَةُ أَوْ حَدٌّ فِي ظَهْرِكَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِذَا رَأَى أَحَدُنَا عَلَى امْرَأَتِهِ رَجُلًا يَنْطَلِقُ يَلْتَمِسُ الْبَيْتَةَ، فَجَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ: الْبَيْتَةُ وَإِلَّا حَدٌّ فِي ظَهْرِكَ، فَقَالَ هِلَالٌ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ إِنِّي لَصَادِقٌ، فَلْيُنزِلَنَّ اللَّهُ مَا يُبْرِئُ ظَهْرِي مِنَ الْحَدِّ، فَنَزَلَ جِبْرِيلُ وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ: (وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (6) وَالْخَامِسَةُ أَنْ لَعْنَتُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (7) وَيَذَرُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (8) وَالْخَامِسَةَ أَنْ غَضَبَ اللَّهُ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ [النور: ٩]⁽²⁾).

فهاتان الروايتان متساويتان في الصحة، إذ أخرجهما الإمام البخاري، وليس لأحدهما مرجح يرجحها على الأخرى، ففي هذه الحالة وأمثالها يجمع بينهما.
قلت: والجمع بينهما أرجح لأمر هي:

1. أنهما روايتان صحيحتان ولا مرجح لأحدهما على الأخرى.
2. أن الأخذ بإحدى الروايتين وإهمال الأخرى ترجيح بلا مرجح، وهذا لا يجوز.
3. أن الجمع بين الروايتين؛ مع إمكان الجمع أولى من القول بالترجيح. وبذلك يتعين الأخذ بالروايتين، إذ لا تفضل إحدهما الأخرى⁽³⁾.

(1) صحيح البخاري: كتاب التفسير، باب [وَيَذَرُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ]، 99/6، ح 4745.

(2) صحيح البخاري: كتاب التفسير، تفسير سورة النور، باب [وَيَذَرُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ]، 100/6، ح 4747.

(3) الإتيان، للسيوطي، 65/1، مباحث في علوم القرآن: صبحي الصالح ص 143-144.

ثانيًا: إن كانت الروايتان صحيحتين، ويمكننا الترجيح بينهما على أساس أن إحداهما أصح من الأخرى، أو لأن راويها شهد الحادثة دون راوي الأخرى، فلا ريب أن نأخذ بالأصح.

مثال ذلك: عن عبد الله -رضي الله عنه- قال: بَيْنَا أَنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي حَرْثٍ، وَهُوَ مُتَّكِيٌّ عَلَى عَسِيبٍ، إِذْ مَرَّ الْيَهُودُ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: سَلُوهُ عَنِ الرُّوحِ؟ فَقَالَ: مَا رَأَيْتُمْ إِلَيْهِ؟ وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَا يَسْتَقْبِلُكُمْ بِشَيْءٍ تَكْرَهُونَهُ، فَقَالُوا: سَلُوهُ، فَسَأَلُوهُ عَنِ الرُّوحِ، فَأَمْسَكَ النَّبِيُّ ﷺ فَلَمْ يَرُدَّ عَلَيْهِمْ شَيْئًا، فَعَلِمْتُ أَنَّهُ يُوحَى إِلَيْهِ، فَفُتِمْتُ مَقَامِي، فَلَمَّا نَزَلَ الْوَحْيُ: (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا) [الإسراء: ٨٥] (1).

وعن عكرمة، عن ابن عباس قال: قَالَتْ قُرَيْشٌ لِيَهُودَ أَعْطُونَا شَيْئًا نَسْأَلُ هَذَا الرَّجُلَ، فَقَالَ: سَلُوهُ عَنِ الرُّوحِ، فَسَأَلُوهُ عَنِ الرُّوحِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا) [الإسراء: ٨٥] (2).

فالرواية الثانية تدل على أنها بمكة، وأن سبب نزولها سؤال قريش إياه.

أما الأولى فصريحة في أنها نزلت بالمدينة، بسبب سؤال اليهود إياه، وهي أرجح من وجهين: الأول: أنها رواية البخاري. وأما الثانية فإنها رواية الترمذي ومن المقرر أن ما رواه البخاري أصح مما رواه غيره. والثاني: أن راوي الخبر الأول وهو ابن مسعود، كان شاهد القصة من أولها إلى آخرها، كما تدل على ذلك الرواية الأولى، بخلاف الخبر الثاني، فإن راويه ابن عباس وهو لم يشهد القصة، ولا ريب أن للمشاهدة قوة في التحمل وفي الأداء، وفي الاستيثاق ليست لغير المشاهدة، ومن هنا عملنا الرواية الأولى وأهملنا الثانية (3).

ثالثًا: إذا تعددت الروايات وكانت جميعها نصًا في السببية وكان إسناد أحدها أصح من غيره، فحكم الاعتماد على الصحيحة في بيان السبب، ورد الأخرى غير الصحيحة. مثال ذلك: أ. قال جُنْدُبُ بْنُ سُفْيَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: اشْتَكَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَلَمْ يَقُمْ لَيْلَتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا، فَجَاءَتْ امْرَأَةٌ فَقَالَتْ: يَا مُحَمَّدُ، إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يَكُونَ شَيْطَانُكَ قَدْ تَرَكَكَ، لَمْ أَرَهُ قُرْبَكَ مُنْذُ لَيْلَتَيْنِ أَوْ ثَلَاثٍ. فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: فَأَنْزَلَ اللَّهُ: (وَالصُّحَى (1) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى (2) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى) [الضحى: ١ - ٣] (4)

(1) صحيح البخاري: كتاب التفسير، باب [وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ] 217/3، ح 4721.

(2) سنن الترمذي: كتاب التفسير، باب ومن سورة بني إسرائيل 284/5، ح 3140، والحاكم في المستدرک: کتاب التفسير، تفسير سورة القدر، ج 2، ص 531، وقال صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

(3) مناهل العرفان، الزرقاني 1/117، 118.

(4) البخاري في صحيحه: كتاب التفسير، تفسير سورة الضحى، باب قوله تعالى { مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى }، ح 309/3، 4950.

ب . وعن خُصُّ بْنُ سَعِيدٍ الْقُرَشِيِّ، حَدَّثَنِي أُمِّي، عَنْ أُمِّهَا، وَكَانَتْ خَادِمَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، أَنَّ جَرَوْا دَخَلَ الْبَيْتَ وَدَخَلَ تَحْتَ السَّرِيرِ وَمَاتَ فَمَكَتْ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ، أَيَّامًا لَا يَنْزِلُ عَلَيْهِ الْوَحْيُ، فَقَالَ: يَا خَوْلَةُ مَا حَدَّثَ فِي بَيْتِ رَسُولِ اللَّهِ جِبْرِيلُ لَا يَأْتِينِي فَهَلْ حَدَّثَ فِي بَيْتِ رَسُولِ اللَّهِ حَدَّثَ فَقُلْتُ: وَاللَّهِ مَا أَتَى عَلَيْنَا يَوْمَ خَيْرٍ مِنْ يَوْمِنَا فَأَخَذَ بُرْدَهُ فَلَبَسَهُ وَخَرَجَ فَقُلْتُ: لَوْ هَيَّأْتُ الْبَيْتَ، وَكُنَّسْتُهُ فَأَهْوَيْتُ بِالْمِكْنَسَةِ تَحْتَ السَّرِيرِ فَإِذَا شَيْءٌ تَقِيلُ فَلَمْ أَزَلْ حَتَّى أُخْرِجْتُهُ فَإِذَا بِجَرَوْ مَيِّتٍ فَأَخَذْتُهُ بِيَدِي فَأَلْقَيْتُهُ خَلْفَ الدَّارِ فَجَاءَ نَبِيُّ اللَّهِ تَرَعُدُ لَحْيَيْهِ، وَكَانَ إِذَا أَتَاهُ الْوَحْيُ أَخَذْتُهُ الرِّعْدَةَ فَقَالَ: " يَا خَوْلَةُ دَثِّرِينِي فَأَنْزَلَ اللَّهُ (وَالضُّحَى (1) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى (2) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى) [الضحى: ١ - ٣] (1).

قال ابن حجر في شرح البخاري: "قصة إبطاء جبريل بسبب الجرو مشهورة، لكن جعلها سبب نزول الآية غريب، وفي إسناده من لا يعرف، فالمعتمد ما في الصحيحين" (2).

وشواهد بطلان القصة أكثر من أن تحصى وهي:

" لا يقبل القول بموت جرو تحت سرير رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتبقى جثته تحت السرير أيامًا عديدة، بدون أن تخرج رائحتها المنتنة، أو أن ينتبه لها أحد. كما لا يعقل أن ينقطع الوحي عن النبي صلى الله عليه وسلم بسبب جرو، وما علاقة الجرو بالوحي، حتى ينقطع عن النبي صلى الله عليه وسلم كلية؟ ، وهل كان مجيء الوحي يقتصر على المنزل (3).

المطلب الثاني: تعدد النزول وتكرره:

إن كانت الروايتان صحيحتين ولم نستطع ترجيح إحداهما ولا الجمع بينهما لتباعد الزمن بين أحداثهما، فقد ذهب العلماء إلى القول بتعدد نزول الآية.

قال الزركشي: وقد ينزل الشيء تعظيمًا لشأنه، وتذكيرًا عند حدوث سببه خوف نسيانه (4). ومثلوا لذلك بقوله تعالى: (مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ) [التوبة: ١١٣]، فقد ورد في نزولها أكثر من سبب:

1- أخرج البخاري عن سعيد بن المسيب عن أبيه قال: قَالَ: لَمَّا حَضَرَتْ أَبَا طَالِبٍ الْوَفَاةُ، جَاءَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَوَجَدَ عِنْدَهُ أَبَا جَهْلٍ وَعَبْدَ اللَّهِ بْنَ أَبِي أُمَيَّةَ بْنِ الْمُغِيرَةِ، فَقَالَ: أَيُّ عَمٍّ، قُلْ: لَا إِلَهَ

(1) أخرجه الطبراني في الكبير 249/24، ح 632، قال الهيثمي: "رواه الطبراني وأم حفص لم أعرفها" مجمع الزوائد، الهيثمي، ج 7/ص 138، وقال ابن عبد البر: " لا يحتج بإسناد حديثها. أي حديث خولة جدة حفص" أسد الغابة، ابن عبد البر، ج 7/ص 105.

(2) الإتيان، للسيوطي، 42/1، مباحث في علوم القرآن، صبحي الصالح ص 87-88.

(3) ينظر: اتقان البرهان، فضل عباس، ص 298 .

(4) البرهان في علوم القرآن، ج 1، ص 29، 30 .

إِلَّا اللَّهُ، كَلِمَةً أَحَاجُ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ، فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ: أَتَرَعَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، فَلَمْ يَزَلْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَغْرِضُهَا عَلَيْهِ، وَيُعِيدَانِهِ بِتِلْكَ الْمَقَالَةِ، حَتَّى قَالَ أَبُو طَالِبٍ آخِرَ مَا كَلَّمَهُمْ: عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَأَبَى أَنْ يَقُولَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: وَاللَّهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أَنْهَ عَنْكَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: (مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ) [التوبة: ١١٣]، وَأَنْزَلَ اللَّهُ فِي أَبِي طَالِبٍ، فَقَالَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: (إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ) ﴿١﴾ [القصص 56]

2 - وأخرج الحاكم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَنْظُرُ فِي الْمَقَابِرِ، وَخَرَجْنَا مَعَهُ، فَأَمَرْنَا فَجَلَسْنَا، ثُمَّ تَخَطَّا الْقُبُورَ حَتَّى انْتَهَى إِلَى قَبْرِ مِنْهَا فَنَاجَاهُ طَوِيلًا، ثُمَّ ارْتَفَعَ نَحِيبُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بَاكِيًا فَبَكَيْنَا لِبُكَائِهِ، ثُمَّ أَقْبَلَ إِلَيْنَا فَتَلَقَّاهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا الَّذِي أَبْكََاكَ فَقَدْ أَبْكَانَا، وَأَفْزَعَنَا، فَجَاءَ فَجَلَسَ إِلَيْنَا فَقَالَ: «أَفْزَعَكُمْ بُكَائِي؟» فَقُلْنَا: نَعَمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَقَالَ: "إِنَّ الْقَبْرَ الَّذِي رَأَيْتُمُونِي أَنَا جِي فِيهِ، قَبْرُ أُمِّي أَمِنَةَ بِنْتِ وَهْبٍ وَإِنِّي اسْتَأْذَنْتُ رَبِّي فِي زيارَتِهَا، فَأَذِنَ لِي فِيهِ، فَاسْتَأْذَنْتُهُ فِي الاسْتِغْفَارِ لَهَا، فَلَمْ يَأْذَنْ لِي فِيهِ، وَنَزَلَ عَلَيَّ: (مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ) [التوبة: ١١٣]، حَتَّى خَتَمَ الْآيَةَ: (وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَّاهَا إِيَّاهُ) [التوبة: ١١٤]، فَأَخَذَنِي مَا يَأْخُذُ الْوَلَدَ لَوَالِدِهِ مِنَ الرِّقَّةِ فَذَكَرَ الَّذِي أَبْكَانِي (2).

فالرواية الأولى تذكر أن الآية نزلت في مكة لما حضرت أبا طالب الوفاة، والرواية الثانية تذكر أنها نزلت في المدينة، عندما جلس النبي صلى الله عليه وسلم علي قبر أمه، والسورة مدنية، فقد قال القرطبي: "سورة براءة مدنية باتفاق" (3) وفي المصحف أنها مدنية إلا الآيتين الأخيرتين.

فقد ذهب العلماء هنا إلى القول بتعدد نزول الآيات؛ لأنه لا يمكن الجمع بينهما لتباعد الزمن، فقد قال السيوطي بعد ذكره للروايات في الآية السابقة: "فنجتمع بين هذه الأحاديث بتعدد النزول" (4).

(1) الحديث أخرجه البخاري، كتاب التفسير، باب {إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء}، 3 / 246، ح4772.

(2) المستدرک علی الصحیحین: کتاب التفسیر، تفسیر سورة التوبة، زیارة النبي ﷺ قبر أمه آمنة، 336/2، وقال أبو عبد الله الحاكم: صحیح علی شرطهما ولم یخرجاه .

(3) الجامع لأحكام القرآن الكريم، القرطبي: ج8، ص61 .

(4) الإیتقان، للسيوطي، ج1، ص98 .

والقول بتعدد النزول وتكرره هنا مرفوض، إذ لا يقال ذلك إلا عند تساوي الروايات في الصحة، ويتعذر الجمع بينها لتباعد الزمن، أما هنا فرواية البخاري صحيحة ورواية الحاكم ضعيفة. قال الإمام الذهبي في التلخيص تعليقا على رواية الحاكم: "أيوب بن هاني ضعفه ابن معين⁽¹⁾، وقال في سير أعلام النبلاء: "هذا من غرائب الحديث"⁽²⁾. وعليه فالراجح رواية الإمام البخاري، وحسبك بها قوة، ولا يعكر عليه كون السورة مدنية، إذ لا يمنع ذلك أن تكون هذه الآية مكية. وإذ قد تبين لنا ما سبق، فالقول بتعدد النزول وتكرره للآية، فيه نظر لخلوه من دليل يؤيده.

المطلب الثالث: تعدد النازل والسبب واحد:

قد يكون أمر واحد سببا لنزول آيتين أو آيات متعددة، ولا مانع في ذلك، إذ قد يكون سببا في زيادة إقناع الناس وهدايتهم، وتوضيح الحق لهم، وهو أبلغ في الإقناع، وأظهر في البيان. مثال ذلك: أخرج الترمذي عن سلمة بن أبي سلمة، رجل من ولد أم سلمة، عن أم سلمة رضي الله عنها، أنها قالت: يا رسول الله، لا أسمع الله ذكر النساء في الهجرة بشيء. فأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ (فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى) [آل عمران: 195]⁽³⁾.

وأخرج الترمذي أيضا عن أم سلمة أنها قالت: يَعْزُّو الرِّجَالَ وَلَا تَعْزُّو النِّسَاءَ، وَإِنَّمَا لَنَا نِصْفُ المِيرَاثِ، فَأَنْزَلَ اللهُ: (وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ) [النساء: 32]، قال مجاهد: فأنزل فيها ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ﴾ [الأحزاب: 35]، وكانت أم سلمة أول ظعينة قدمت المدينة مهاجرة. قال أبو عيسى: هذا حديث مرسل ورواه بعضهم عن بن أبي نجيح عن مجاهد مرسل أن أم سلمة قالت كذا وكذا⁽⁴⁾.

(1) المستدرک علی الصحیحین: کتاب التفسیر، تفسیر سورة التوبة، زیارة النبی p قبر أمه آمنة، 336/2 .

(2) سير أعلام النبلاء، الذهبي، 505/12 .

(3) سنن الترمذي في سننه: كتاب التفسير، باب ومن سورة آل عمران، 221/5، ح3023، والحاكم في

المستدرک: کتاب التفسیر، تفسیر سورة آل عمران، 300/2، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

(4) سنن الترمذي في سننه: كتاب التفسير، باب ومن سورة النساء، 118/5، ح3308، والحاكم في المستدرک:

كتاب التفسير، تفسیر سورة النساء، 305/2، ووصحه وأقره الذهبي .

وأخرج الحاكم عنها أيضاً أنها قالت : قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ: يُذَكَّرُ الرَّجَالُ، وَلَا يُذَكَّرُ النِّسَاءُ. فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿إِنِ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥]. وَأَنْزَلَ: (أَنِّي لَا أُصِغُّ عَمَلًا عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى) [آل عمران: ١٩٥] (1).

فالآيات الثلاث السابقة نزلت على سبب واحد، وهو سؤال أم سلمة رسول الله ﷺ ولا يُبَعِدُ هذا اختلاف صيغة السؤال، لجواز أن يكون سؤالها عاماً شاملاً لكل ما روي، ولكن بعض الرواة اقتصر على بعض السؤال دون بعض، أو تذكر بعضه ونسي بعضاً.

المبحث السادس: العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب (2).

ومعناه أن يأتي الجواب أعم من السبب، ويكون السبب أخص من لفظ الجواب. وذلك جائز عقلاً، وواقع فعلاً؛ لأنه لا محذور فيه ولا قصور، بل إن عمومه مع خصوص سببه موفٍ للغاية، ومؤيد للمقصود وزيادة.

بيد أن العلماء اختلفوا في حكمه: أعموم اللفظ هو المعتبر أم خصوص السبب؟ ذهب الجمهور (3) إلى أن الحكم يتناول كل أفراد اللفظ، سواء منها أفراد السبب، أو غير أفراد السبب، ولنضرب لك مثلاً حادثة قذف هلال بن أمية لزوجته، وقد نزل فيها قول الله تعالى: (والذين يرمون أزواجهم) [النور: 6] إلخ، نلاحظ فيها أن السبب خاص، وهو قذف هلال هذا، ولكن جاءت الآية النازلة فيه بلفظ عام -كما ترى- وهو لفظ (الذين يرمون أزواجهم) وهو اسم موصول، والموصول من صيغ العموم.

وقال غير الجمهور (4): إن العبرة بخصوص السبب. ومعنى هذا أن لفظ الآية يكون مقصوراً على الحادثة التي نزل هو لأجلها، أما أشباهها فلا يعلم حكمها من نص الآية، إنما يعلم بدليل مستأنف آخر، وهو القياس الذي استوفى شروطه، فأية القذف السابقة النازلة بسبب حادثة هلال مع زوجته خاصة بهذه الحادثة وحدها، "على هذا الرأي". أما حكم غيرها مما يشبهها، فإنما يعرف قياساً عليها.

(1) أخرجه الحاكم في المستدرک: کتاب التفسیر، تفسیر سورة الأحزاب، ج2، ص416، وقال: صحیح علی شرط الشیخین ولم یخرجاه، وأقره الذهبي .

(2) مناهل العرفان، للزرقاني، 123/1، المدخل لدراسة القرآن الكريم، لأبي شهبه، 155 .

(3) هو قول أحمد وأصحابه والحنفية ونص عليه الشافعي، واختاره الإمام فخر الدين والآمدي وأتباعهما. القواعد والفوائد الأصولية وما يتبعها من الأحكام الفرعية، لابن اللحام، ص318.

(4) وهو قول أبي ثور، والمزني، والقفال، وغيرهم. نهاية السؤل، الأسنوي 2/ 477، إرشاد الفحول، الشوكاني ص134.

ويجب أن نلاحظ، أن الخلاف القائم بين الجمهور وغيرهم، محله إذا لم تقم قرينة على تخصيص لفظ الآية العام بسبب نزوله، أما إذا قامت تلك القرينة؛ فإنّ الحكم يكون مقصوراً على سببه لا محالة، بإجماع العلماء.

كما يجب أن نلاحظ أيضاً أن حكم النص العام الوارد على سبب يتعدى عند هؤلاء وهؤلاء إلى أفراد غير السبب. بيد أن الجمهور يقولون إنه يتناولهم بهذا النص نفسه، وغير الجمهور يقولون أنه لا يتناولهم إلا قياساً أو بنص آخر.

وإلى هذا المعنى يشير ابن تيمية بقوله: "قد يجيء كثيراً من هذا الباب قولهم: هذه الآية نزلت في كذا، لا سيما إن كان المذكور شخصاً، كقولهم: إن آية الظهر نزلت في امرأة قيس بن ثابت، وإن آية الكلاله نزلت في جابر بن عبد الله. فالذين قالوا ذلك لم يقصدوا أن حكم الآية يختص بأولئك الأعيان دون غيرهم، فإنّ هذا لا يقوله مسلم ولا عاقل على الإطلاق. والناس وإن تنازعوا في اللفظ العام الوارد على سبب: هل يختص بسببه؟ لم يقل أحد أن عمومات الكتاب والسنة بالشخص المعين، وإنما غاية ما يقال إنها تختص بنوع ذلك الشخص، فتعم ما يشبهه، ولا يكون العموم فيها بحسب اللفظ. والآية التي لها سبب معين إن كانت أمراً أو نهياً، فهي متناولة لذلك الشخص ولغيره ممن كانت بمنزلته⁽¹⁾.

(1) مقدمة في أصول التفسير، لابن تيمية، ص16.

المبحث السادس: الاستفادة من هذه المباحث في المنهج التعليمي والتربوي:

لا بد أن نقرر حقيقة أكيدة، وهي أن كل عناصر العلم الإنساني صالحة للتطبيق والاستفادة منها في حياتنا العملية والعلمية والتربوية.

فمن ناحية لغة العلم الإسلامي، وهي العربية، فهي لغة حضارية وهي لغة العلوم حيث إنها تضم أكثر من اثني عشر مليون كلمة، أما جذورها فتبلغ 9273 جذراً وهو يفوق الجذور الموجودة في مجموعة اللغات الهندية والأوروبية والتي لا تتجاوز 500 جذر فقط، ومعنى كثرة جذور العربية، إمكانية استخلاص آلاف المصطلحات والكلمات من هذه الجذور.

كما أن الإسناد الذي يتميز به العلم الإسلامي ما هو إلا شكل من أشكال توثيق المعلومات، ولا يوجد نظير له في غير العلوم الإسلامية.

أما بخصوص مواد "علوم القرآن" فالوحي يمثل مركزية المعلومات، وهذه المركزية تعطي نوعاً من الثقة والطمأنينة لدى المتلقي، فلذا يمكن الاستفادة من هذه الناحية في عملية إعداد المقررات الدراسية التي تلقى على الطلاب؛ حيث تقوم لجنة ثابتة منتقاة في كل العلوم بإعداد المناهج بطريقة تبعث على الثقة والطمأنينة وتعود بالنفع الكامل على جموع الطلاب والطالبات.

أما "المكي والمدني" فيمكن الاستفادة من بحوثه من خلال التقسيم في معرفة عوامل القوة والضعف في المجتمعات الإسلامية، والمدرسة تمثل نواة هذا المجتمع.

إن المجتمع القوي، ينبغي بالضرورة أن يتوافر فيه أساس فكري قوي، لكي يكون بناء حضارته مستنداً إلى الإرادة الإنسانية وكرامة الإنسان ومسئوليته.

ولقد تمكّن الإسلام، رغم انحراف السياسة في وقت مبكر أن ينشئ قاعدة متينة؛ فالمجتمع المدني يقوم على خدمة معظم مصالحه، كخدمات التعليم وإقامة الشعائر الدينية والخدمات الاجتماعية والثقافية.

إن دراسة فكر هذه الأمة منذ تأسيسها على يد رسول الله p ومصادره وتطوره ورصد مواطن القوة والضعف يؤدي كل ذلك إلى التوازن الثقافي مع العالم المعاصر.

أما سنة التدرج، التي هي خاصية من خصائص التشريع الإسلامي، فيمكن الاستفادة منها في مجال التربية والتعليم؛ بحيث يقوم المعلم بالتدرج في إلقاء المعلومات حتى يستوعبها الطلاب، وهذا التدرج ينظم عقل الطلاب والطالبات، بحيث تكثر الفائدة المرجوة من ذلك، وقد بينا التدرج عند الحديث عن حكم نزول القرآن الكريم منجماً، كما أنه يمكن الاستفادة من العموم والخصوص في إقامة علاقة متينة بين المعلمين وطلابهم؛ حيث يسود مبدأ الثواب والعقاب على العدل، ويسود بين المسلمين (الطلاب والطالبات) المودة والأخوة، ويستشعر كل فرد من أفراد المسلمين حاجة أخيه إليه.

هذا بالإضافة إلى أن معرفة أسباب النزول وتقريبها للطلاب يجعلهم في حالة من الروحانية التي يتمثلون فيها عصر النبي μ (عصر التنزيل) وما حدث فيه، فيتواصل الطلاب مع هذا العصر تواصلًا يؤدي بهم إلى أن يكونوا صالحين، يمثلون مجتمعًا إسلاميًا صالحًا.

أسئلة للمناقشة

- 1) عرّف سبب النزول، ثم اشرح التعريف.
- 2) ينحصر سبب النزول في أمرين، وضح ذلك.
- 3) بيّن الأسس التي يعتمد عليها العلماء في معرفة سبب النزول.
- 4) ما حكم أقوال الصحابة في أسباب النزول.
- 5) هل لكل آية سبب نزول؟ وضح ذلك.
- 6) لمعرفة أسباب النزول فوائد، اذكر ثلاثة منها مع الدليل.
- 7) هل تختلف عبارات الرواة في التعبير عن سبب النزول. وضح ذلك بالتفصيل.
- 8) اذكر فوائد معرفة صيغ أسباب النزول.
- 9) اذكر مثلاً لسبب نزلت فيه أكثر من آية.
- 10) بيّن المراد بقول العلماء "العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب" مع ذكر مثال.
- 11) ما أسس الترجيح بين الروايات الواردة في أسباب النزول؟
- 12) متى يجمع بين الروايات الواردة في أسباب النزول؟
- 13) قال ابن تيمية: "معرفة سبب النزول يعين على فهم الآية" اشرح قول ابن تيمية معززاً إجابتك بالأدلة.

الفصل السادس: المُحْكَمِ وَالْمُتَشَابِهِ

المبحث الأول: تعريف المُحْكَمِ وَالْمُتَشَابِهِ لُغَةً وَاصْطِلَاحًا.

المطلب الأول: المعنى اللغوي للمُحْكَمِ وَالْمُتَشَابِهِ:

لهذين اللفظين إطلاقات في اللغة، وإطلاقات في الاصطلاح؛ فاللغويون يستعملون مادة الإحكام في معان متعددة، لكنها مع تعددها ترجع إلى شيء واحد، هو المنع. فيقولون: أحكم الأمر، أي: أتقنه ومنعه عن الفساد.

وكذلك يستعملون مادة التشابه فيما يدل على المشاركة في المماثلة والمشاكله، المؤدية إلى الإلتباس غالبًا. يقال: تشابها واشتبها؛ أي: أشبه كل منها الآخر حتى التباسا ويقال: أمور مشتبها ومشبهة أي: مشكلة⁽¹⁾.

المطلب الثاني: المعنى الاصطلاحي:

يطلق المُحْكَمُ في لسان الشرعيين على ما يقابل المنسوخ تارة، وعلى ما يقابل المُتَشَابِهِ تارة أخرى.

فيراد به على الاصطلاح الأول: الحكم الشرعي الذي لم يتطرق إليه نسخ⁽²⁾. ويراد به على الثاني: "ما عرف العلماء تأويله وفهموا معناه وتفسيره"⁽³⁾.

المطلب الثالث: آراء العلماء في معنى المُحْكَمِ وَالْمُتَشَابِهِ:

يختلف العلماء في تحديد معنى المُحْكَمِ وَالْمُتَشَابِهِ اختلافات كثيرة منها:

الأول: أن المُحْكَمِ: ما عرف المراد منه، إما بالظهور وإما بالتأويل. أما المُتَشَابِهِ: فهو ما استأثر الله سبحانه وتعالى بعلمه، كقيام الساعة وخروج الدجال والحروف المقطعة في أوائل السور⁽⁴⁾.

الثاني: المُحْكَمِ: ما لا يحتمل إلا وجهاً واحداً من التأويل. أما المُتَشَابِهِ: فهو ما احتمل أوجهاً متعددة⁽⁵⁾.

(1) راجع: القاموس المحيط، للفيروزآبادي 100/4، والمصباح المنير، للفيومي 226/1، وشرح الكوكب المنير لابن النجار، 141/2.

(2) مناهل العرفان، للزرقاني، 272/2، وينظر: إرشاد الفحول، الشوكاني، 32.

(3) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لابن عطية، 401/1.

(4) ينظر: الإقتان، للسيوطي، 2/2، المدخل إلى مذهب أحمد، لابن بدران، ص 89، شرح الكوكب، لابن النجار 142/2.

(5) ينظر: الإقتان، للسيوطي، 2/2، إرشاد الفحول، الشوكاني ص 32.

الثالث: أن المُحَكَّم: هو ما استقل بنفسه ولم يحتج إلى بيان. أما المُتَشَابِه: فهو ما لا يستقل بنفسه إلا برده إلى غيره⁽¹⁾.

الرابع: أن المُحَكَّم: ما كانت دلالاته راجحة، وهو النص والظاهر. أما المُتَشَابِه: فما كانت دلالاته غير راجحة، وهو المجمل والمؤول والمشكل⁽²⁾.

الخامس: وقيل: المُحَكَّم: الفرائض والوعد والوعيد. والمُتَشَابِه: القصص والأمثال⁽³⁾. وعن عكرمة وقتادة: أن المُحَكَّم الذي يعمل به. والمُتَشَابِه: الذي يؤمن به ولا يعمل به⁽⁴⁾. ونحن إذا نظرنا في هذه الآراء، لا نجد بينها تناقضًا ولا تعارضًا، بل نلاحظ بينها تشابهًا وتقاربًا؛ لأن أمر الإحكام والتشابه يرجع فيما نفهم إلى وضوح المعنى المراد للشارع من كلامه، وإلى عدم وضوحه، وليس في القرآن ما لا معنى له. ويمثل العلماء للمُحَكَّم في القرآن: بناسخه، وحلاله، وحرامه، وحدوده، وفرائضه، ووعده، ووعيده.

وللمتشابه: بمنسوخه، وكيفيات أسماء الله، وصفاته التي في قوله: (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى) [طه: 5]، وقوله: (كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ) [القصص: 88]، وقوله: (يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ) [الفتح: 10]، وقوله: (وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ) [الأنعام: 18]، وقوله: (وَجَاءَ رَبُّكَ) [الفجر: 22]، وقوله: (وَعَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ) [الفتح: 6]، وقوله: (فَاتَّبَعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ) [آل عمران: 31]، إلى غير ذلك، وأوائل السور المفتحة بحروف المعجم⁽⁵⁾، وفي قوله تعالى (طَلَّهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ) [الصافات: 65].

(1) ينظر: النكت والعيون، 369/1، وزاد المسير، 350/1.

(2) ينظر: التفسير الكبير، 146/7، مناهل العرفان، للزرقاني، 2/274.

(3) وقد استبعد الأمدي هذا القول. ينظر: الإحكام، الأمدي 1/166، إرشاد الفحول، الشوكاني ص32، الإتيقان، للسيوطي، 2/2.

(4) وهناك تعريفات أخرى للمحكم والمتشابه، وقد رد الغزالي أكثرها. ينظر: المستصفي، للغزالي 1/106، الإتيقان، للسيوطي، 2/2، شرح النووي 16/217، البرهان في علوم القرآن، الزركشي، زاد المسير، لابن الجوزي، 350/1، وعلى الإجمال فالخلاف في الاصطلاح أو ما يشبه الاصطلاح ولا مشاحة في الاصطلاح.

(5) مناهل العرفان، للزرقاني، 2/271.

وأجاب الجمهور بأن الحروف المقطعة، إما أسماء السور، أو أسماء الله تبارك وتعالى، أو سر الله تعالى في كتابه مما استأثر بعلمه، أو غيرها مما هو مذكور في التفاسير...⁽¹⁾ وبأن رؤوس الشياطين مثل في الاستقباح على عادة العرب في ضرب الأمثال بما يتخيلونه قبيحًا. قال ابن قاضي الجبل: ورؤوس الشياطين: استقر قبحها في الأنفس فشبها بها كقول امرئ القيس.

أيقتلني والمشرقي مضاجعي ومسنونة زرق كأنياب أغوال⁽²⁾

فشبهها بأنياب الأغوال لقبها المستقر، وإن لم يكن لها حقيقة. كذلك ذكره المازري المالكي⁽³⁾.

قال السيوطي: ومن المتشابه أوائل السور، والمختار فيها أيضًا أنها من الأسرار التي لا يعلمها إلا الله تعالى. أخرج ابن المنذر وغيره عن الشعبي أنه سئل عن فواتح السور فقال: إن لكل كتاب سرًا، وإن سر هذا القرآن فواتح السور...⁽⁴⁾

المطلب الرابع: القرآن الكريم محكم ومتشابه:

جاء في القرآن الكريم ما يدل على أنه كله محكم قال تعالى: (الر كِتَابٌ أَحْكَمْتُ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلْتُ) [هود: 1].

وجاء فيه ما يدل على أنه كله متشابه، إذ قال تعالى: (اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا) [الزمر: 23].

وجاء فيه ما يدل على أن بعضه محكم، وبعضه متشابه، إذ قال عز اسمه: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخْرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ [آل عمران: 7].

ولا تعارض بين هذه الإطلاقات الثلاثة:

لأن معنى إحكامه: كونه كلامًا حقًا، فصيح الألفاظ، صحيح المعاني، لا اختلاف فيه ولا اضطراب، ومعنى كونه متشابهًا: أنه يشبه بعضه بعضًا في الحسن ويصدق بعضه بعضًا⁽⁵⁾.

(1) ينظر: الإحكام للآمدى، 167/1، تفسير الطبري، 86/1، تفسير القرطبي، 154/1، زاد المسير، لابن الجوزي 20/1، فواتح الرحموت، للسهالوي 17/2.

(2) البيت من البحر الطويل. ذكره الجرجاني في دلائل الإعجاز ص 80، ديوان امرئ القيس ص 33، معجم شواهد العربية، لإميل بديع 310/1.

(3) ينظر: شرح الكوكب، لابن النجار 145/2.

(4) الإيقان، للسيوطي، 12، 11/2.

(5) التفسير الكبير، للرازي، 145/7.

وأما أن بعضه محكم وبعضه متشابه: فمعناه أن من هذا القرآن ما اتضحت دلالاته على مراد الله تعالى منه، ومنه ما خفيت دلالاته على هذا المراد الكريم. فالأول هو المحكم، والثاني هو المتشابه على خلاف بين العلماء، بيد أن الذي اتفقوا عليه ولا يمكن أن يختلفوا فيه هو أنه لا تنافي بين كون القرآن كله محكمًا؛ أي متقنًا وبين كونه كله متشابهًا، أي يشبه بعضه بعضًا في هذا الإتيان والإحكام وبين كونه منقسمًا إلى ما اتضحت دلالاته على مراد الله وما خفيت دلالاته. بل إن انقسامه هذا الانقسام محقق لما فيه كله من إحكام وتشابه بالمعنى السابق (1).

المبحث الثاني: هل المتشابه مما يمكن معرفته؟

اختلف العلماء في ذلك على قولين:

الأول: إنه يمكن الاطلاع على علم المتشابه للراسخين في العلم الذين يعلمون تأويله، واختار هذا القول الإمام النووي، ومعظم المتكلمين، فقال في (شرح مسلم): إنه الأصح، لأنه يبعد أن يخاطب الله عباده بما لا سبيل لأحد من الخلق معرفته.

ويبدو أنه لا بد من بقاء بعض المتشابه الذي لا يمكن للناس الاطلاع على علمه، والذي يبقى تأويله مختصًا بالله تعالى (2).

الثاني: أنه لا يمكن لأحد الاطلاع على علمه، ولا يعلمه إلا الله، وأما الراسخون في العلم فإنهم يقولون: آما به كل من عند ربنا.

قال البغوي في تفسيره: هو قول الأكثرين منهم أبي بن كعب وعروة بن الزبير ورواية عن ابن عباس وبه قال الحسن وأكثر التابعين واختاره الكسائي والفراء والأخفش (3).

ويقف القارئ على الأصح على (إلا الله) لفظًا ومعنى لا على (والرأسخون في العلم) (4) وقال بذلك السيوطي.

(1) مناهل العرفان، للزرقاني، 2/ 271

(2) شرح النووي على مسلم 218/16، الإتيان، للسيوطي، 3/2، الدر المنثور، للسيوطي 8/2، المستصفي، للغزالي 106/1، مختصر ابن الحاجب، 21/2، شرح الكوكب، لابن النجار، 153، 152/2.

(3) تفسير البغوي، 1/ 412 .

(4) ينظر: الإحكام لابن حزم، 492/1، إرشاد الفحول، الشوكاني، ص32، تفسير القاسمي، 795/4، تفسير البغوي 321/1، تفسير الخازن، 321/1، الإتيان، للسيوطي، 4/2، فواتح الرحموت، للساهلوي 18/2.

وتمام الآية ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخْرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا ﴾ آل عمران/7.

المبحث الثالث: أنواع المتشابهات.

المطلب الأول: أنواع المتشابهات:

أفاض العلماء في ذكر أنواع المتشابهات، دون المحكم؛ لأن الموضوع شائك بالنسبة إلى المتشابه، فذكروا أن المتشابه ثلاثة أنواع:

النوع الأول: ما لا يستطيع البشر جميعاً أن يصلوا إليه، كالعلم بذات الله صفاته، وكالعلم بوقت القيامة ونحوه من الغيوب التي استأثر الله تعالى بها: (وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبُرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (59)) [الأنعام: 59] وقوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَادَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (34)) [لقمان: 34].

النوع الثاني: ما يستطيع كل إنسان أن يعرفه عن طريق البحث والدرس، كالمتشابهات التي نشأ التشابه فيها من الإجمال والبسط والترتيب ونحوها.

النوع الثالث: ما يعلمه خواص العلماء دون عامتهم، ولذلك أمثلة كثيرة من المعاني العالية التي تفيض على قلوب أهل الصفاء والاجتهاد عند تدبرهم لكتاب الله. قال الراغب: المتشابه على ثلاثة أضرب: ضرب لا سبيل إلى الوقوف عليه، كوقت الساعة، وخروج الدابة، ونحو ذلك، وضرب للإنسان سبيل إلى معرفته كالألفاظ الغريبة والأحكام المغلقة وضرب متردد بين الأمرين يختص به بعض الراسخين في العلم ويخفى على من دونهم. وهو المشار بقوله p لابن عباس: "اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل"⁽¹⁾.

المطلب الثاني: آيات الصفات:

من المتشابه آيات الصفات نحو قوله تعالى ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ طه: 5] وقوله ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: 88] وقوله: ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: 10]، وقوله ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفَا صَفَا﴾ [الفجر: 22]، وجمهور أهل السنة منهم السلف وأهل الحديث على الإيمان بها وتقويض معناها المراد منها إلى الله تعالى ولا نفسرها مع تنزيها له عن حقيقتها.

(1) نقل السيوطي هذا التقسيم عن الراغب الأصفهاني في "المفردات". ينظر الإتيان، للسيوطي، 7/2، المفردات ص 255، مناهل العرفان، للزرقاني، 282/2.

روى اللالكائي عن أم سلمة في قوله تعالى ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: 5] قَالَتْ: «الْكَيْفُ غَيْرُ مَعْقُولٍ وَالْإِسْتِوَاءُ غَيْرُ مَجْهُولٍ وَالْإِقْرَارُ بِهِ إِيمَانٌ وَالْجُحُودُ بِهِ كُفْرٌ» (1). وروى عن مالك نحو ذلك (2).

وعن أبي سُلَيْمَانَ دَاوُدُ بْنُ عَلِيٍّ قَالَ: كُنَّا عِنْدَ ابْنِ الْأَعْرَابِيِّ فَأَتَاهُ رَجُلٌ فَقَالَ لَهُ: مَا مَعْنَى قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾؟ [طه: 5]؟ فَقَالَ: هُوَ عَلَى عَرْشِهِ كَمَا أُخْبِرَ (3).

المطلب الثالث: أقوال العلماء في آيات الصفات (4)

المذهب الأول: وهو مذهب السلف، ويسمى مذهب المفوضة، وهو تفويض معاني المتشابهات إلى الله وحده بعد تنزيهه تعالى عن ظواهرها المستحيلة. قال ابن الصلاح: "على هذه الطريقة مضى صدر الأمة وساداتها، وإياها اختار الأئمة الفقهاء وقادتها، وإليها دعا أئمة الحديث وأعلامه. ولا أحد من المتكلمين من أصحابنا يصدف عنها ويأبأها.

المذهب الثاني: مذهب الخلف، ويسمى مذهب المؤولة، وهم فريقان:

1. التأويل بصفات سمعية غير معلومة على التعيين، ثابتة له تعالى، زيادة على صفاته المعلومة لنا بالتعيين وينسب إلى أبي الحسن الأشعري.

2. التأويل بصفات أو بمعان نعلمها على التعيين، ويليق بالله عقلاً وشرعاً، وينسب إلى ابن برهان وجماعة من المتأخرين، ورجع عنه إمام الحرمين بعد أن قال به فترة:

المذهب الثالث: مذهب المتوسطين، وينسب إلى ابن دقيق العيد.

قال السيوطي: "وتوسط ابن دقيق العيد فقال: " إذا كان التأويل قريباً من لسان العرب لم ينكر، أو بعيداً، توقفنا عنه وأما بمعناه على الوجه الذي أريد به مع التنزيه. وما كان معناه من

هذه الألفاظ ظاهراً مفهوماً من تخاطب العرب، قلنا به من غير توقيف كما في قوله تعالى ﴿

(1) شرح أصول الاعتقاد لهبة الله اللالكائي، 440/3، وأشار إلى هذه الرواية ابن حجر في الفتح، 406/13، وابن تيمية في الفتاوى، 365/5.

(2) شرح أصول الاعتقاد، اللالكائي، 441/3، وينظر: الأسماء والصفات للبيهقي، ص 408، الفتح لابن حجر، 406/13.

(3) شرح أصول الاعتقاد، اللالكائي، 442/3.

(4) الإتيان، للسيوطي، 8/2، مناهل العرفان، للزرقاني، 2/289، دراسات في علوم القرآن محمد بكر إسماعيل ص 197، المدخل إلى علوم القرآن الكريم، النبهان ص 184، دراسات في علوم القرآن - فهد الرومي ص: 405، الواضح في علوم القرآن، لمصطفى الديب، ص 131.

﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَىٰ مَا فَرَطْتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنْتُ لَمِنَ السَّٰخِرِينَ﴾ [الزمر: ٥٦]
فنحمله على حق الله وما يجب له (1).

والأولى من هذه المذاهب، اتباع مذهب السلف وصدر الأمة وساداتها والأئمة الفقهاء وأئمة الحديث وأعلامه.

المبحث الرابع: الحكمة من المتشابه

ما الحكمة في إنزال المتشابه ووجوده؟

الجواب: أن حكم المتشابه يختلف بالنسبة إلى ما يمكن علمه، وإلى ما لا يمكن علمه.

المطلب الأول: حكم المتشابه الذي لا يمكن علمه (ما استأثر الله بعلمه).

أولاً: رحمة الله بهذا الإنسان الضعيف، الذي لا يطيق معرفة كل شيء. وإذا كان الجبل حين تجلّى له ربه جعله دكا، وخر موسى صعقاً، فكيف لو تجلّى سبحانه بذاته وحقائق صفاته للإنسان؟ ومن هذا القبيل أخفى الله على الناس معرفة الساعة رحمة بهم، حتى لا يقعد بهم التكاسل عن الاستعداد لها، وكى لا يفتك بهم الخوف والهلع لو أدركوا شدة قربها منهم. ولمثل هذا حجب الله عن العباد معرفة آجالهم، ليعيشوا في بحبوحه من أعمارهم. فسبحانه من إله حكيم، رحمن رحيم.

ثانياً: الابتلاء والاختيار: ابتلاء العباد بالوقوف عنده والتوقف فيه والتفويض والتسليم والتعبد بالاشتغال به من جهة التلاوة كالمُنسوخ، وإن لم يجز العمل بما فيه.

ثالثاً: إقامة الدليل على عجز الإنسان وجهالته، مهما عظم استعداده وجزر علمه، وإقامة شاهد على قدرة الله الخارقة، وأنه وحده هو الذي أحاط بكل شيء علماً، وأن الخلق جميعاً لا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء.

رابعاً: إقامة الحجة على العرب البلغاء، لأن القرآن نزل بلسانهم ولغتهم، ومع ذلك فقد عجزوا عن الوقوف على معناه، فدل ذلك على أنه تنزيل من حكيم حميد.

خامساً: لو كان القرآن كله محكماً لما كان مطابقاً إلا لمذهب واحد، وبالتالي بطلان بقية المذاهب المخالفة، وذلك منفر لأرباب المذاهب الأخرى عن النظر فيه، فوجود المتشابه والمحكم فيه مطمع لكل ذي مذهب؛ أن يجد فيه كل ما يؤيد مذهبه (2).

المطلب الثاني: حكم المتشابه الذي يمكن علمه:

أولاً: حث العلماء على النظر الموجب للعلم بغوامضه والبحث عن دقائقه.

(1) الإتيان، للسيوطي، 16/3 .

(2) الإتيان، للسيوطي، 35/3، مناهل العرفان، للزرقاني، 282/2.

ثانيًا: ظهور التفاضل وتفاوت الدرجات، إذ لو كان القرآن كله محكمًا لا يحتاج إلى تأويل ونظر؛ لاستوت منازل الخلق، ولم يظهر فضل العالم على غيره.

ثالثًا: الحصول على الثواب الأكبر؛ لأن المتشابه يوجب مزيد المشقة في الوصول إلى المراد، وزيادة المشقة توجب مزيدًا من الثواب.

رابعًا: تحصيل العلوم الكثيرة؛ لأن معرفة المتشابه توجب التعمق في معرفة النحو والمعاني وغيرهما، والوقوف على أساليب العرب والعلوم الأخرى.

خامسًا: تيسير حفظ القرآن والمحافظة عليه؛ لأن كل ما احتواه من تلك الوجوه المستلزمة للخفاء دال على معان كثيرة، زائدة على ما يستفاد من أهل الكلام.

أسئلة للمناقشة:

- 1) عرّف المحكم والمتشابه لغة واصطلاحًا.
- 2) اذكر آراء العلماء في معنى المحكم والمتشابه.
- 3) جاء في القرآن الكريم ما يدل على أنه كله محكم، وما يدل على أنه كله متشابه، وما يدل على أن بعضه محكم، وبعضه متشابه، اذكر الآيات التي تدل على ذلك ووفق بينها.
- 4) هل المتشابه يمكن معرفته؟
- 5) بيّن أنواع المتشابهات.
- 6) بيّن أقوال العلماء في آيات الصفات.
- 7) ما الحكم من المتشابه الذي لا يمكن علمه؟
- 8) وما الحكم من المتشابه الذي يمكن علمه؟

الفصل السابع: الناسخ والمنسوخ

المبحث الأول: تعريف، وحكمه، وشروطه:

المطلب الأول تعريف النسخ لغة واصطلاحًا:

النسخ لغة: يطلق بمعنى الرفع والإزالة، ومنه يقال: نسخت الشمس الظل؛ أي أزالته. ونسخت الريح التراب والآثار، ويطلق بمعنى نقل الشيء من موضع إلى موضع، ومنه نسخت الكتاب: إذا نقلت ما فيه، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾⁽¹⁾ [الجاثية: 29]، يعنى: نكتبه وننسخه.

والنسخ في الاصطلاح: رفع حكم شرعي بدليل شرعي متراخ.

دلالة التعريف: قال البعض: "بخطاب شرعي" والدليل الشرعي أحسن؛ لأن الفعل داخل في الدليل دون الخطاب.

وقوله: متراخ: احتراز من التخصيص؛ لأن التخصيص يأتي متراخيًا ومتصلاً أو مقارناً. وزوال الحكم بالموت والجنون ليس بنسخ، والحكم: ما تعلق بالمكلف بعد وجوده أهلاً⁽²⁾.

ويطلق الناسخ على الله تعالى كقوله: ﴿مَا نَسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾ [البقرة: 106]، وعلى الآية، فيقال: هذه الآية ناسخة لآية كذا، وعلى الحكم الناسخ لحكم آخر. والمنسوخ هو الحكم المرتفع بناسخ، فأية المواريث مثلاً أو ما فيها من حكم ناسخ لحكم الوصية للوالدين والأقربين.

ولا يكون الناسخ أضعف من المنسوخ عند الأكثر⁽³⁾.

ولا نسخ مع إمكان الجمع بين الدليلين؛ لأننا إنما نحكم بأن الأول منهما منسوخ إذا تعذر علينا الجمع، فإذا لم يتعذر وجمعنا بينهما بكلام مقبول أو بمعنى مقبول، فلا نسخ⁽⁴⁾.

المطلب الثاني: حكم النسخ قبل وقت الفعل:

(1) ينظر مادة (نسخ) في لسان العرب، لابن منظور، 61/3، الصحاح، للجوهري، 433/1، تاج العروس، للزبيدي، 355/7.

(2) في تعريف النسخ ومحترزات التعريف ينظر: العدة، لأبي يعلى، 778/3، نهاية السؤل، الأسنوي 162/2، إرشاد الفحول، الشوكاني ص184، أصول السرخسي 54/2، المستصفي، للغزالي 107/1، كشف الأسرار، علاء الدين البخاري 155/3، شرح الكوكب، لابن النجار 526/3.

(3) ينظر: إرشاد الفحول، الشوكاني ص 187، المستصفي، للغزالي 124/1، نهاية السؤل، الأسنوي 179/2، العدة، لأبي يعلى، 788/2.

(4) ينظر: العدة لأبي يعلى 835/3، المسودة، لابن تيمية ص 229 وما بعدها.

يجوز النسخ قبل وقت الفعل، أي قبل دخول وقت الفعل عند الحنابلة وأكثر الشافعية والأشعرية، وقد ذكر الآمدي أن هذا قول أكثر الفقهاء. ومنعه أكثر الأحناف والمعتزلة⁽¹⁾.

والدليل على الجواز: ما روى عن أبي هريرة أنه قال: بَعَثْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي بَعْثٍ فَقَالَ: إِنَّنِي أَمَرْتُكُمْ أَنْ تَحْرِقُوا فُلَانًا وَفُلَانًا فَأَحْرَقُوهُمَا بِالنَّارِ ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ أَرَدْنَا الْخُرُوجَ: إِنَّنِي أَمَرْتُكُمْ أَنْ تَحْرِقُوا فُلَانًا وَفُلَانًا وَإِنَّ النَّارَ لَا يُعَذِّبُ بِهَا إِلَّا اللَّهُ فَإِنْ وَجَدْتُمُوهُمَا فَأَقْتُلُوهُمَا⁽²⁾.

المطلب الثالث: شروط النسخ:

1. أن يكون الحكم المنسوخ حكمًا شرعيًا؛ أي قد ثبت بالشرع.
2. أن يكون الدليل على ارتفاع الحكم دليلاً شرعيًا متراخيًا عن الخطاب المنسوخ حكمه.
3. ألا يكون الخطاب المرفوع حكمه مقيد بوقت معين، وإلا فالحكم ينتهي بانتهاء وقته ولا يعد هذا نسخًا.
4. لا يجوز النسخ بالإجماع أو القياس؛ لأن الإجماع حجة انعقدت بعد انقطاع الوحي. أما القياس؛ فلأنه يستتبط من أصل، فلا يصح نسخه مع بقاء الأصل المستتبط منه.
5. قال "مكي" (ت37هـ) في كتابه (الناسخ والمنسوخ): "ذكر جماعة أن ما ورد من الخطاب مشعرًا بالتوقيت والغاية مثل قوله في سورة البقرة: ﴿فَاعْتُوا وَأَصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ [البقرة: 109] محكم غير منسوخ؛ لأنه مؤجل بأجل والمؤجل بأجل لا نسخ فيه.

المبحث الثاني: ما يقع فيه النسخ

مما سبق، يتبين لنا أن النسخ لا يكون إلا في الأوامر والنواهي، سواء أكانت صريحة في الطلب أو كانت بلفظ الخبر الذي بمعنى الأمر أو النهي، على أن يكون ذلك غير متعلق بالاعتقادات التي ترجع إلى ذات الله تعالى وصفاته وكتبه ورسله واليوم الآخر، أو الآداب الخلقية، أو أصول العبادات والمعاملات؛ لأن الشرائع كلها لا تخلو من هذه الأصول، وهي متفقة فيها، قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: 13] وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة: 183]

وقال: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا﴾ [الحج: 27]

وقال في القصاص: ﴿وَكُتِبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ [المائدة: 45].

(1) ينظر الأحكام للآمدي 126/3، كشف الأسرار، علاء الدين البخاري 169/3، نهاية السؤل، الأسنوي

173/2، المستصفي، للغزالي 112/1، 113.

(2) صحيح البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب لا يعذب بعذاب الله، 4/ 61، ح3016.

وقال في الجهاد: ﴿وَكَايِنَ مِّنْ نَّبِيٍّ قَاتِلَ مَعَهُ رِبِّيُونَ كَثِيرٌ﴾ [آل عمران: 146]، وفي الأخلاق: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ [لقمان: 18].

كما لا يدخل النسخ الخبر الصريح الذي ليس بمعنى الطلب كالوعد والوعيد. أما العقائد: فلأنها حقائق ثابتة صحيحة لا تقبل التغيير والتبديل، فبدهي ألا يتعلق بها نسخ. وأما أمهات الأخلاق: فلأن حكمة الله في شرعها، ومصالحة الناس في التخلق بها أمر ظاهر لا يتأثر بمرور الزمن، ولا يختلف باختلاف الأشخاص والأمم حتى يتناولها النسخ بالتبديل والتغيير.

وأما أصول العبادات والمعاملات: فلوضوح حاجة الخلق إليها باستمرار، لتزكية النفوس، وتطهيرها، ولتنظيم علاقة المخلوق بالخالق والخلق على أساسهما، فلا يظهر وجه من وجوه الحكمة في رفعها بالنسخ⁽¹⁾.

المبحث الثالث: أهمية النسخ، وحكمته، وطرق معرفته.

المطلب الأول: أهمية معرفة النسخ:

ولمعرفة الناسخ والمنسوخ أهمية كبيرة عند أهل العلم من الفقهاء والأصوليين والمفسرين حتى لا تختلط الأحكام، ولذلك وردت آثار كثيرة في الحث على معرفته، فقد روى أن علياً τ مر بفاصٍ، فقال: أتعرف الناسخ من المنسوخ؟ قال: لا قال: هل كنت وأهلك⁽²⁾.

وعن ابن عباس أنه قال في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: 269] قال: المعرفة بالقرآن، ناسخه ومنسوخه، ومحكمه ومنشأه، ومقدمه ومؤخره وحلاله وحرامه، وأمثاله⁽³⁾.

المطلب الثاني: حكم النسخ⁽⁴⁾:

1. ترقية الأمة وتدرجها إلى مرتبة الكمال، فالله تعالى تعهد هذه الأمة بما يرقها ويمحصها، وقد جاءت الشريعة متلطفة في دعوة الناس، متدرجة بهم إلى الكمال، صاعدة بهم في مدارج الرقي شيئاً فشيئاً، ومن الصعب إلى الأصعب. وهذه الحكمة تتجلى فيما إذا كان الحكم الناسخ أصعب من المنسوخ.

(1) ينظر: مناهل العرفان، للزرقاني، 212/2، إرشاد الفحول للشوكاني ص188، دراسات في علوم القرآن، محمد بكر إسماعيل، ص247.

(2) مصنف عبد الرزاق، كتاب الجمعة، باب ذكر القصاص، 220/3، ح5407، وينظر: الإتيان، للسيوطي، 27/2.

(3) أخرجه ابن جرير في تفسيره، 576/5. وينظر الإتيان، للسيوطي، 3/2.

(4) مناهل العرفان، للزرقاني، 196/2.

- 2 . أما إذا كان الحكم الناسخ هو الأسهل، فالتخفيف على الناس، معناه إظهار رحمة الله تعالى عليهم وبيان فضله، وفي ذلك إغراء لهم على المبالغة في شكر الله وحمده ومحبة دينه.
- 3 . أما التساوي بين الناسخ والمنسوخ فحكمته الابتلاء والاختبار ليميز الله الخبيث من الطيب.
- 4 . أما حكمة بقاء التلاوة مع نسخ الحكم، حتى يشهدوا أنّ هذا الدين هو الدين الحق، وأن الرسول هو نبي الصدق، يضاف إلى ذلك ما يكتسبونه من الثواب على هذه التلاوة، والوقوف على ما حوته تلك الآيات المنسوخة من بلاغة.

المطلب الثالث: طرق معرفة النسخ:

1. أن يكون في أحد النسخين ما يدل على تعيين المتأخر منهما.
2. إجماع الأمة على تعيين المتقدم والمتأخر منهما.
3. وروده عن أحد من الصحابة بطريق صحيحة كأن ينص الصحابي على نزول هذه الآية بعد ذلك.

المبحث الرابع: آراء العلماء في حقيقة النسخ وأدلته.

والناس في النسخ على أربعة أقسام:

1 . اليهود: ينكرونه ويزعمون أن النسخ يستلزم البداء، وهو الظهور بعد الخفاء، وهم يعنون ذلك: أن النسخ إما أن يكون لغير حكمة، وهذا عبث محال على الله، وإما أن يكون لحكمة ظهرت ولم تكن من قبل، وهذا يستلزم البداء وسبق الجهل، وهو محال على الله تعالى (1). واستدلّاهم هذا فاسد؛ لأن كلاً من حكمة الناسخ وحكمة المنسوخ معلوم لله تعالى من قبل، فلم يتجدد علمه بها. وهو سبحانه ينقل العباد من حكم إلى حكم لمصلحة معلومة له من قبل بمقتضى حكمته وتصرفه المطلق في ملكه.

واليهود أنفسهم يعترفون بأن شريعة موسى ناسخة لما قبلها. وجاء في نصوص التوراة النسخ، كتحريم كثير من الحيوان على بني إسرائيل بعد حله، قال تعالى في إخباره عنهم: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلالاً لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ [آل عمران: 93] وقال: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمًا كُلًّا ذِي ظُنْفُرٍ﴾ [الأنعام: 146]، وثبت في التوراة أن آدم كان يزوج من الأخت. وقد حرم الله ذلك على موسى، وأن موسى أمر بني إسرائيل أن يقتلوا من عبد منهم العجل ثم أمرهم برفع السيف عنهم (2).

2 . الروافض: غالى هؤلاء في إثبات النسخ وتوسعوا فيه، وأجازوا البداء على الله تعالى، فهم مع اليهود على طرفي نقيض، واستدلوا على ذلك بأقوال نسبوها إلى علي عليه السلام زوراً وبهتاناً، وبقوله تعالى: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُنْبِئُ﴾ [الرعد: 39] على معنى أنه يظهر له المحو والإثبات. وذلك إغراق في الضلال، وتحريف للقرآن؛ فإن معنى الآية: ينسخ الله ما يستصوب نسخه ويثبت بدله ما يرى المصلحة في إثباته، والمحو والإثبات موجود في كثير من الحالات، كمحو السيئات بالحسنات ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود: 114] ومحو كفر التائبين ومعاصيهم بالتوبة وإثبات إيمانهم وطاعتهم (3). ولا يلزم من ذلك الظهور بعد الخفاء، بل يفعل الله هذا مع علمه به قبل كونه.

ولا يجوز البداء على الله عز وجل، وهذا عند كافة المسلمين، بخلاف النسخ فهو جائز وواقع، والفرق بينهما واضح بين، قال الشيرازي: إن البداء أن يظهر له ما كان خفياً، ونحن لا نقول فيما ينسخ أنه ظهر له ما كان خافياً عليه، بل نقول: إنه أمر به وهو عالم أنه يرفعه في

(1) شرح الكوكب، لابن النجار 536/3.

(2) ينظر: إرشاد الفحول، الشوكاني ص 185، النسخ في القرآن، د مصطفى زيد 27/1، الملل والنحل للشهرستاني 215/1، الفصل في الملل، لابن حزم 99/1، فواتح الرحموت، للسهاوي 55/2.

(3) الكشف، للزمخشري، 2/ 534 .

وقت النسخ، وإن لم يطلعنا عليه فلا يكون ذلك بقاء. والقول بتجدد العلم - أي علم الله عز وجل - كفر بإجماع أئمة أهل السنة⁽¹⁾.

3 . أبو مسلم الأصفهاني⁽²⁾: وهو يجوز النسخ عقلاً ويمنع وقوعه شرعاً، وقيل: يمنعه في القرآن خاصة محتجاً بقوله تعالى: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: 42]. على معنى أن أحكامه لا تبطل أبداً. ويحمل آيات النسخ على التخصيص. ورد عليه بأن معنى الآية أن القرآن لم يتقدمه ما يبطله من الكتب ولا يأتي بعده ما يبطله⁽³⁾.

4 . جمهور العلماء: على جواز النسخ عقلاً ووقوعه شرعاً لأدلة:

أدلة جوازه سماعاً:

1. قال تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ﴾ [النحل: 101]، ووجه الدلالة في هذه الآية أن التبديل يتألف من رفع لأصل وإثبات لبدل، وذلك هو النسخ، سواء أكان المرفوع تلاوة أم حكماً.
 2. وقال: ﴿مَا نَنْسَخُ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلَهَا﴾ [البقرة: 106]
 3. وفي الصحيح عن ابن عباس قال: قَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَقْرَأْنَا أُبَيَّ، وَأَقْضَانَا عَلِيَّ، وَإِنَّا لَنَدْعُ مِنْ قَوْلِ أُبَيَّ، وَذَلِكَ أَنَّ أُبَيًّا يَقُولُ: لَا أَدْعُ شَيْئًا سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى ﴿مَا نَنْسَخُ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلَهَا﴾ [البقرة: 106]⁽⁴⁾.
- أما أدلة جوازه عقلاً:

1 . أن الله تعالى أن يكلف عباده بما شاء لمصلحة ولغير مصلحة. وأحوال العباد تختلف من حال إلى حال، فيختلف التكليف لمصلحة العباد، ألا ترى أن الرجل قد يكون من مصلحته في: وقت البر واللطف، وفي وقت آخر مصلحته: التشديد والعنف، ويبين صحة هذا أن الطاهر تصوم وتصلي والحائض تمنع منهما⁽⁵⁾.

(1) التبصرة، للشيرازي 253، شرح الكوكب، لابن النجار 3/536، الإحكام لابن حزم 4/446، الإحكام للأمدى 3/109، للمع، للشيرازي ص 31.

(2) هو محمد بن بحر، المشهور بأبي مسلم الأصفهاني، معتزلي، من كبار المفسرين ولد (254هـ) وتوفى سنة 322هـ. أهم كتبه "جامع التأويل" في التفسير. ينظر: بغية الوعاة، السيوطي، 1/59 الوافي بالوفيات، الصفدي 2/244، طبقات المفسرين للداودي 2/106، لسان الميزان، لابن حجر، 5/89.

(3) ينظر: اضطراب النقول عن أبي مسلم في مسألة جواز النسخ وعدمه في شرح الجوامع للمحلى، 2/88، التبصرة للشيرازي ص 251. وعلى فرض أن الخلاف لفظي مع الجمهور فأبو مسلم قد أساء الأدب مع الله في تحمسه لرأي قائم على تحاشي لفظ اختاره الله سبحانه وتعالى.

(4) صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب (ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها)، 6/19، ح 4481 .

(5) العدة، لأبي يعلى 3/772.

2 . إن النسخ لو لم يكن جائزاً عقلاً وواقعاً سمعاً، لما ثبتت رسالة سيدنا محمد p إلى الناس كافة، لكن رسالته عامة للناس، ثابتة بالأدلة القاطعة، إذن فالشرائع السابقة ليست باقية، بل هي منسوخة بهذه الشريعة الختامية، وإذن فالنسخ جائز وواقع.

المبحث الخامس: أقسام النسخ في الكتاب والسنة.

النسخ يرد في القرآن وقد يرد في السنة، وهو أقسام أربعة:

القسم الأول: نسخ القرآن بالقرآن، وهو أنواع:

1. نسخ التلاوة والحكم معاً.
2. نسخ الحكم دون التلاوة.
3. ونسخ التلاوة دون الحكم.

القسم الثاني: نسخ القرآن بالسنة: قد اختلف العلماء في هذا القسم بين مجوز ومانع ثم اختلف المجوزون بين قائل بالوقوع وقائل بعدمه.

والمجيزون هم المالكية وأصحاب أبي حنيفة والأشاعرة والمعتزلة.
والممانعون هم الشافعي وأحمد في إحدى روايته وأكثر أهل الظاهر (1).
وهو نوعان:

أ- نسخ القرآن بالسنة الأحادية. والجمهور على عدم جوازه؛ لأن القرآن متواتر يفيد اليقين، والأحادي مظنون، ولا يصح رفع المعلوم بالمظنون.
ب- ونسخ القرآن بالسنة المتواترة. وقد أجازها مالك وأبو حنيفة وأحمد في رواية؛ لأن الكل وحي، قال تعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: 3-4] ومنعه الشافعي وأهل الظاهر وأحمد في الرواية الأخرى، لقوله تعالى: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلَهَا﴾ [البقرة: 106] والسنة ليست خيراً من القرآن ولا مثله.

القسم الثالث: نسخ السنة بالقرآن: وهو جائز، فالتوجه إلى بيت المقدس كان ثابتاً بالسنة، وليس في القرآن ما يدل عليه، وقد نسخ بالقرآن في قوله: ﴿قَوْلٍ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [البقرة:

(1) ينظر: العدة، لأبي يعلى 788/3، الرسالة، للشافعي، ص 108، تيسير التحرير، لأمير بادشاه، 203/3، شرح تنقيح الفصول، القرافي، ص 311، الإحكام، الأمدي 477/4.

[144] ووجوب صوم يوم عاشوراء، كان ثابتاً بالسنة⁽¹⁾ ونسخ بقوله تعالى: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ [البقرة: 185] ومنع هذا القسم الشافعي في إحدى روايته، وقال: "وحيث وقع بالسنة فمعها قرآن، أو بالقرآن فمعها سنة عاضدة، تبين توافق الكتاب والسنة"⁽²⁾.

القسم الرابع: نسخ السنة بالسنة:

وتحت هذا أربعة أنواع:

نسخ سنة متواترة بمتواترة.

ونسخ آحاد بآحاد.

ونسخ آحاد بمتواترة.

ونسخ سنة متواترة بآحاد.

والثلاثة الأولى جائزة عقلاً وشرعاً - أما النوع الرابع فالجمهور على عدم جوازه⁽³⁾.

(1) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصوم، باب صيام يوم عاشوراء، 43/3، ح 2001 بسنده عن عائشة رضي الله عنها، قالت: "كان رسول الله ﷺ أمر بصيام يوم عاشوراء، فلما فرض رمضان كان من شاء صام ومن شاء أفطر".

(2) تنظر المسألة في: الرسالة، للشافعي، 311-345، تيسير التحرير، لأمير بادشاه 202/3، المستصفي، للغزالي، 124/1، العدة، لأبي يعلى 802/3.

(3) تنظر: المسألة في: العدة، لأبي يعلى 826/3، شرح تنقيح الفصول، القرافي ص 314، المحصول، للرازي، 3، 532، نهاية السؤل، الأسنوي 2/186، الإحكام لابن حزم 4/488، المستصفي، للغزالي، 1/126، كشف الأسرار، علاء الدين البخاري 3/175، شرح الكوكب، لابن النجار 3/570.

المبحث السادس: أنواع النسخ في القرآن:

والنسخ في القرآن ثلاثة أنواع:

أما النوع الأول: نسخ الحكم وبقاء التلاوة:

وهذا النوع لا خلاف فيه عند القائلين بالنسخ، وذكر العلماء فيه الآيات المتعددة. والتحقيق أنها قليلة.

ومثاله: نسخ حكم آية العدة للمتوفى عنها زوجها بالحول مع بقاء تلاوتها، فالعدة كانت في بدء الأمر حولاً، فنسخت إلى أربعة أشهر وعشراً، وهما جميعاً في القرآن، قال تعالى ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرِ إِخْرَاجٍ﴾ [البقرة: 240] نسخ بقوله ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (234) [البقرة: 234] وذلك على ما ذهب إليه جمهور المفسرين⁽¹⁾.

ومثله آية المناجاة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً﴾ [المجادلة: 12] فقد أخرج الترمذي عن علي بن أبي طالب قال: لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً﴾ [المجادلة: 12] قَالَ لِي النَّبِيُّ p: مَا تَرَى، دِينَارًا؟ قَالَ: لَا يُطِيقُونَهُ، قَالَ: فَنِصْفُ دِينَارٍ؟ قُلْتُ: لَا يُطِيقُونَهُ، قَالَ: فَكَمْ؟ قُلْتُ: شَعِيرَةٌ، قَالَ: إِنَّكَ لَزَهِيدٌ. قَالَ: فَنَزَلَتْ ﴿أَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ..﴾ [المجادلة: 13]. قَالَ: فَبِي خَفَّفَ اللَّهُ عَنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ⁽²⁾.

(1) ينظر: أحكام القرآن للجصاص 414/1، فتح القدير للشوكاني 259/1، الدر المنثور، للسيوطي 309/1. قال ابن كثير، رحمه الله عند تفسيره للآية: قَالَ الْأَكْثَرُونَ: هَذِهِ الْآيَةُ مَنْسُوخَةٌ بِالَّتِي قَبْلَهَا وَهِيَ قَوْلُهُ: ﴿يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾. قَالَ الْبُخَارِيُّ: حَدَّثَنَا أُمِّيَّةٌ حَدَّثَنَا يَزِيدُ بْنُ زُرَيْعٍ عَنْ حَبِيبِ بْنِ أَبِي مُلَيْكَةَ، قَالَ ابْنُ الزُّبَيْرِ: قُلْتُ لِعُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ: (وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا) قَدْ نَسَخْتَهَا الْآيَةُ الْأُخْرَى فَلِمَ تَكْتُبُهَا -أَوْ تَدْعُهَا؟ قَالَ: يَا ابْنَ أَخِي لَا أَعْبُرُ شَيْئًا مِنْهُ مِنْ مَكَانِهِ .

وَمَعْنَى هَذَا الْإِسْكَالِ الَّذِي قَالَهُ ابْنُ الزُّبَيْرِ لِعُثْمَانَ: إِذَا كَانَ حُكْمُهَا قَدْ نُسِخَ بِالْأَرْبَعَةِ الْأَشْهُرِ فَمَا الْحِكْمَةُ فِي إِبْقَاءِ رَسْمِهَا مَعَ زَوَالِ حُكْمِهَا، وَبِقَاءِ رَسْمِهَا بَعْدَ الَّتِي نَسَخْتَهَا يُوْهِمُ بَقَاءَ حُكْمِهَا؟ فَأَجَابَهُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ هَذَا أَمْرٌ تَوْقِيفِيٌّ، وَأَنَا وَجَدْتُهَا مُتَّبَعَةً فِي الْمُصْحَفِ كَذَلِكَ بَعْدَهَا فَأَتَّبْتُهَا حَيْثُ وَجَدْتُهَا. ا.هـ.

(2) سنن الترمذي، أبواب تفسير القرآن عن رسول الله p، باب: ومن سورة الجمعة، 329/5، ح3300.

وعن علي بن أبي طالب قال: ما عمل بها أحد غيري حتى نسخت. وقال "وما كانت إلا ساعة من نهار" (1).

وقد يقال: ما الحكمة في رفع الحكم وبقاء التلاوة؟ والجواب من وجهين: أحدهما: أن القرآن، كما يتلى ليعرف الحكم منه، والعمل به، فإنه يتلى كذلك لكونه كلام الله فيثاب عليه، فبقيت التلاوة لهذه الحكمة. وثانيهما: أن النسخ غالبًا يكون للتخفيف، فأبقيت التلاوة تذكيرًا بالنعمة في رفع المشقة. وأما حكمة النسخ قبل العمل، كالصدقة عند النجوى، فيثاب على الإيمان به، وعلى نية طاعة الأمر.

النوع الثاني: نسخ التلاوة والحكم معًا.

وقد مثل له العلماء بما رواه مسلم وغيره عن عائشة أَنَّهَا قَالَتْ: كَانَ فِيمَا أُنزلَ مِنَ الْقُرْآنِ عَشْرُ رَضَعَاتٍ مَعْلُومَاتٍ يُحَرِّمْنَ، ثُمَّ نُسِخْنَ بِخَمْسِ مَعْلُومَاتٍ، فَنُوفِيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَهَنَّ فِيمَا يُقْرَأُ مِنَ الْقُرْآنِ (2).

فنسخت العشر تلاوة وحكمًا بخمس، ونسخت الخمس تلاوة، وبقي حكمها عند الشافعية (3). وهذا المثال فيه نظر.

أولاً: أن بعض الروايات تصف العشر-كما في رواية مسلم السابقة- بالمعلومات، وبعضها ليس فيه هذا الوصف، كما عند أبي داود (4).

ثانياً: أن بعض الروايات تذكر أن رسول الله ﷺ توفي وهن مما يقرأ-كما في رواية مسلم السابقة- وبعضها تذكر أنه قد سقط من القرآن (5).

ثالثاً: أن بعض الروايات (6) تذكر أن العشر رضعات كانت أولاً، ثم جاءت بعدها الخمس- كما في رواية مسلم السابقة- وبعضها يبين أن الخمس والعشر كانتا معاً. فإذا كان هذا قرآنًا فلم الاختلاف الكبير فيه.

(1) فتح القدير للشوكاني 191/5، الدر المنثور للسيوطي 185/6.

(2) أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب الرضاع، باب: التحريم بخمس رضعات، 1075/2.

(3) ينظر: الإيضاح لناسخ القرآن ومنسوخه، مكي بن أبي طالب، ص 44، 45 وشرح الكوكب، لابن النجار 557/3.

(4) سنن أبي داود، كتاب النكاح، باب هل يحرم ما دون خمس رضعات، 182/2، ح 2062.

(5) سنن ابن ماجه، أبواب النكاح، باب لا تحرم المصاة ولا المصتان، 122/3، ح 1942.

(6) المصدر السابق، والمعجم الأوسط، للطبراني، 99/3، ح 2611.

قال أبو شهبه: "فاختلاف الرواية عنها يدل على أنه كان باجتهاد منها استتدت فيه على ما ظهر لها من السنة، ولو كان قرآنًا لما نقل عنها كل هذا الاختلاف"⁽¹⁾.

قال فضل عباس: "وقد يقال: إن هذه الخلافات لا تؤثر فيه على هذه الرواية ويعتمد منها أصحابها وهو ما جاء عند الإمام مسلم، لكن هذا الجواب لا يُذهب ما يُتصل بهذه الروايات من إشكالات، ولا يُذهب ما في النفوس من تساؤلات، فإذا كان هذا قرآنًا يقرؤه الناس فكيف يختلف الصحابة -رضوان الله عليهم- في عدد الرضعات المحرمة، وهذا الخلاف استمر بعد الصحابة إلى التابعين ومن بعدهم"⁽²⁾.

وقد نفي كونه قرآنًا بعض العلماء، وإليك بيان ذلك:

قال الحافظ ابن حجر في الفتح، في معرض ذكر ما يقوي مذهب الجمهور القائلين بتحريم قليل الرضاع وكثيره: وأيضًا فقول عائشة: عشر رضعات معلومات ثم نسخن بخمس معلومات، فمات النبي ρ ، وهن مما يقرأ- لا ينهض للاحتجاج على الأصح من قول الأصوليين؛ لأن القرآن لا يثبت إلا بالتواتر، والراوي روى هذا على أنه قرآن، لا خبر، فلم يثبت كونه قرآنًا، ولا ذكر الراوي أنه خبر ليقبل قوله فيه⁽³⁾.

وقال أبو شهبه: "إن هذه الرواية مهما صحت فهي أحادية لا يثبت بها قرآن؛ لأن القرآن لا يثبت إلا بالتواتر، ثم هي أيضًا لا تعارض القطعي الثابت بالتواتر، وهو القرآن الذي بين أيدينا اليوم، وغاية ما تدل عليه هذه الرواية أنها خبر لا قرآن.

وقال أيضًا: "ومما يدل على أنه ليس قرآنًا، وأنه كان تشريعًا ثابتًا بالسنة، ثم نسخ بالسنة اختلاف الرواية عنها في القدر المحرم"⁽⁴⁾.

فما سبق يتضح لنا عدم قرآنية ما جاء عن عائشة رضي الله عنها" كان فيما أنزل عشر رضعات معلومات يحرمن، فنسخن بخمس معلومات"

النوع الثالث: نسخ التلاوة مع بقاء الحكم.

واستدل العلماء لهذا النوع بآية الرجم.

وقد جاء التصريح بذكرها عند النسائي وغيره من حديث عمر رضي الله عنه وهي: "الشَّيْخُ وَالشَّيْخَةُ إِذَا زَنَيَا فَارْجُمُوهُمَا الْبَيْتَةَ"⁽⁵⁾.

(1) المدخل لدراسة القرآن الكريم، أبوشهبه، 296.

(2) اتقان البرهان، فضل عباس: ص 38.

(3) فتح الباري لابن حجر، 147/9.

(4) المدخل لدراسة القرآن الكريم، لأبي شهبه، 295.

(5) السنن الكبرى للنسائي، كتاب الرجم، تثبيت الرجم، 410/6، ح 7135.

واستدلّاهم بحديث عمر رضي الله عنه، فيه نظر.

1. أنه لم يأت التصريح عند البخاري بقوله الشيخ والشيخة⁽¹⁾، قال ابن حجر: "ولعل البخاري هو الذي حذف ذلك عمداً"⁽²⁾.
2. قال النسائي: "لا أعلم أحداً ذكر في هذا الحديث الشيخ والشيخة غير سفيان وينبغي أن يكون وهم في ذلك"⁽³⁾.
3. وقال الشيخ أبو شهبه: "هذه الروايات آحادية فهي لا يثبت بها قرآن، ولا تعارض القطعي الثابت بالتواتر، وغاية ما تدل عليه أنها حديث من أحاديث رسول الله، وسنة من السنن"⁽⁴⁾.
4. أخرج مالك في موطئه عن عمر... وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْلَا أَنْ يَقُولَ النَّاسُ: زَادَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ فِي كِتَابِ اللَّهِ، لَكَتَبْتُهَا (الشَّيْخُ وَالشَّيْخَةُ فَارْجُمُوهُمَا الْبَيْتَةَ) فَإِنَّا قَدْ قَرَأْنَاهَا⁽⁵⁾. قال أبو شهبه: "إذ لا يقال: زاد لما عرف أنه منه، لكنه لما كانت عنده سنة مؤكدة وحكما لازما حث على حفظها وقراءتها ودراستها، حتى لا يغفل الناس عنها، كما حث على حفظ أي القرآن.
5. أنه ورد نصُّ الآية بعبارات مختلفة، فواحدة منها تذكر قيد الزنا بعد ذكر الشيخ والشيخة، وواحدة لا تذكره، وثالثة تذكر عبارة "نكالا من الله"، ورابعة لا تذكرها، وما هكذا تكون نصوص الآيات القرآنية ولو نُسخَ لفظها، وفي بعض هذه الروايات جاءت بعض العبارات التي لا تتفق ومكانة عمر ولا عائشة، مما يجعلنا نطمئن إلى اختلاقها ودسّها على المسلمين"⁽⁶⁾.
6. قال الشيخ أبو شهبه: "وإن نظرة فاحصة في «الشيخ والشيخة... إلخ» لترينا أنها ليس عليها نور القرآن ومسحته، ولا فيها حكمته وإعجازه"⁽⁷⁾.

(1) صحيح البخاري، كتاب الحدود وما يحذر من الحدود، باب رجم الحبلى من الزنا إذا أحصنت، 168/8، ح6830.

(2) فتح الباري، لابن حجر، 143/12 .

(3) السنن الكبرى للنسائي، كتاب الرجم، تثبيت الرجم، 410/6، ح7135.

(4) المدخل لدراسة القرآن الكريم، أبو شهبه، 302، وينظر: دراسات في علوم القرآن، محمد بكر إسماعيل، 250 .

(5) أخرجه مالك في الموطأ، كتاب الحدود، باب الرجم 824 / 2، والشافعي في ترتيب مسند الشافعي 81/2 وابن ماجه في الحدود، باب الرجم، 853/2

(6) ينظر: دراسات في علوم القرآن، محمد بكر إسماعيل، 250.

(7) المدخل لدراسة القرآن الكريم، أبو شهبه، ص303.

قال أبو جعفر: "إسناد الحديث صحيح إلا أنه ليس حكمه حكم القرآن الذي نقله الجماعة عن الجماعة ولكنه سنة ثابتة"⁽¹⁾.

وبعد البيان لهذه الأنواع يتبين لنا أن النوع الأول وهو (نسخ الحكم وبقاء لتلاوة) قد تحقق في القرآن الكريم، لذا فهو مقبول .
أما النوع الثاني والثالث: فمرفوضان؛ لأنهما لم يتحققا في واقعة واحدة.

المبحث السابع: النسخ إلى بدل وإلى غير بدل:

الحكم الذي ينسخ، إما أن يحل مكانه حكماً آخر فهو النسخ ببدل، وإما لا، فهو النسخ بغير بدل وكلاهما جائز عقلاً وواقع سمعاً على رأي الجمهور⁽²⁾.

1 . فالنسخ إلى غير بدل: كنسخ تقديم الصدقة بين يدي مناجاة رسول الله ﷺ في قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةٌ﴾ [المجادلة: 12].
نسخت بقوله: ﴿أَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا...﴾ [المجادلة: 13] فرفع هذا التكليف من غير أن يكلف الناس بشيء مكانه، بل تركهم في حل من ترك الحكم الأول دون أن يوجه حكماً آخر.

وأنكر بعض المعتزلة والظاهرية ذلك، وقالوا: إن النسخ بغير بدل لا يجوز شرعاً؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿مَا نَسَخَ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا﴾ [البقرة: 106]. حيث أفادت الآية أنه لا بد أن يؤتي مكان الحكم المنسوخ بحكم آخر خير منه أو مثله⁽³⁾.

ويجاب عن ذلك بأن الله تعالى، إذا نسخ حكم الآية بغير بدل، فإن هذا يكون بمقتضى حكمته، ورعايته لمصلحة عباده، فيكون عدم الحكم خيراً من ذلك الحكم المنسوخ في نفعه للناس، ويصح حينئذ أن يقال: إن الله نسخ حكم الآية السابقة بما هو خير منها حيث كان عدم الحكم خيراً للناس.

2 . النسخ إلى بدل أخف: مثل قوله تعالى: ﴿أَحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ﴾ [البقرة: 187] الآية- فهي ناسخة لقوله: ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة: 183]؛ لأن مقتضاها الموافقة لما كان عليه السابقون من تحريم الأكل والشرب والوطء إذا صلوا العتمة أو ناموا إلى الليلة التالية، كما ذكروا ذلك.

(1) الناسخ والمنسوخ، للنحاس، ص 61 .

(2) ينظر: العدة، لأبي يعلى 785/3، مناهل العرفان، للزرقاني، 186/2.

(3) ينظر: شرح الكوكب، لابن النجار 545/3، الإحكام للآمدي 135/3، إرشاد الفحول، الشوكاني ص 187، المستصفي، للغزالي، 119/1، فواتح الرحموت، للسهاوي 69/2.

3 . النسخ إلى بدل مساو: كنسخ التوجه إلى بيت المقدس بالتوجه إلى الكعبة في قوله: ﴿قَوْلٍ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ البقرة [144].

4 . والنسخ إلى بدل أثقل: كنسخ صوم يوم عاشوراء، بصوم شهر رمضان كله. ونحوه كنسخ إباحة الخمر بتحريمها، ومنه أنه تعالى نسخ ما فرض من مسالمة الكفار المحاربين بما فرض من قتالهم وهو كره. وهذا النوع محل خلاف، والجمهور على الجواز⁽¹⁾.

أسئلة للمناقشة:

- 1) عرّف النسخ لغة واصطلاحًا مع شرح التعريف
- 2) هل يقع النسخ قبل وقت الفعل؟ دلل على ما تقول.
- 3) وضح شروط النسخ.
- 4) بيّن ما يقع فيه النسخ وما لا يقع .
- 5) لمعرفة النسخ أهمية كبرى، وضح ذلك.
- 6) ما حكم النسخ؟ ، وما طرق معرفته؟
- 7) اذكر آراء العلماء في حقيقة النسخ مع ذكر أدلتهم .
- 8) اذكر أدلة جواز النسخ عقلاً وسمعاً
- 9) هل يجوز نسخ القرآن بالسنة؟
- 10) أكمل ما يأتي

أ. أنكر.....النسخ، بينما توسع فيه، وقال بجواز وقوعه عقلاً

وامتناع وقوعه شرعاً

ب. أنواع النسخ في القرآن ثلاثة هي،

.....

- 11) اذكر مثالا لنسخ السنة بالقرآن.
- 12) ما أنواع نسخ السنة بالسنة؟
- 13) ما وجه الدليل في قوله تعالى ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِخْهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا﴾

[البقرة: 106]

14) اذكر مثالا لما يأتي:

أ- نسخ إلى بدل أخف.

(1) تفسير ابن كثير، 2/204.

ب- نسخ إلى بدل مساو.

ج- نسخ إلى بدل أثقل.

د- نسخ إلى غير بدل.

الفصل الثامن: القصص في القرآن الكريم.

مقدمة:

يمتاز القصص القرآني بسمو غاياته، وشريف مقاصده، وعلو مراميه؛ حيث يشتمل على فصول في الأخلاق مما يهذب النفوس، ويحمل الطباع، وينشر الحكمة والآداب. لقد طرق القصص القرآني في التربية والتثذيب مذاهب شتى، فطورا تساق القصة مساق الحوار، وطورا مسلك الحكمة والاعتبار، كما حوى كثيرا من تاريخ الرسل مع أقوامهم والشعوب وحكامهم.

لقد قص ذلك في قول بيّن، وأسلوب حكيم، ولفظ رائع، وافتنان عجيب؛ ليدل الناس على الخلق الكريم، ويدعوهم إلى الإيمان الصحيح، ويرشدهم إلى العلم النافع، وليكون مثلهم الأعلى فيما يسلكون من طرق التعليم، وندراسهم فيما يصطنعون من وسائل الإرشاد. لقد أصبح أدب القصة اليوم فنا خاصا من فنون اللغة وآدابها، والقصص القرآني يمثل هذه النوعية من الفن تمثيلا قويا وبليغا؛ وذلك لتوافر الصدق فيه⁽¹⁾.

المبحث الأول: معنى القصص:

القصص: تتبع الأثر، يقال: قصصت أثره: أي تتبعته، والقصص مصدر، قال تعالى: (فَارْتَدًّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا) [الكهف: 64]، أي: رجعا يقصان الأثر الذي جاء به. وقال تعالى على لسان أم موسى: وقال تعالى: (وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ) [القصص: 11]، أي: تتبعي أثره حتى تنظري من يأخذه. والقصص كذلك: الأخبار المتتبعة، قال تعالى: (إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ) [آل عمران: 62]، وقال تعالى: (لَقَدْ كَانَ فِي قَصصِهِمْ عِبْرَةٌ) [يوسف: 111]، والقصة: الأمر، والخبر، والشأن، والحال.

وقصص القرآن: إخباره عن أحوال الأمم الماضية، والنبوات السابقة والحوادث الواقعة، وقد اشتمل القرآن على كثير من وقائع الماضي، وتاريخ الأمم، وذكر البلاد والديار، وتتبع آثار كل قوم، وحكى صورة ناطقة لما كانوا عليه.

والقصص في القرآن الكريم لا يراد به سرد تاريخ الأمم أو الأشخاص، وإنما هي عبرة للناس، كما قال تعالى في سورة هود، بعدما ذكر موجزا من سيرة الأنبياء عليهم السلام مع أقوامهم، قال تعالى: (وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُنبِئُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ) [هود: 120]. ولذلك لا تذكر الوقائع والحوادث بالترتيب، ولا يراد فيها الاستقصاء.

(1) ينظر: قصص القرآن، محمد أحمد جاد المولى وآخرين ط. دار الجيل، بيروت.

قال ابن كثير: يقول تعالى: وكل أخبار نقصها عليك من أنباء الرسل المتقدمين من قبلك مع أممهم، وكيف جرى لهم من الحاجات والخصومات، وما احتمله الأنبياء من التكذيب والأذى، وكيف نصر الله حزبه المؤمنين، وخذل أعداءه الكافرين. كل هذا مما نثبت به فؤادك، أي: قلبك يا محمد؛ ليكون لك بمن مضى من إخوانك من المرسلين أسوة⁽¹⁾.

المبحث الأول: أنواع القصص في القرآن:

القصص في القرآن الكريم ثلاثة أنواع⁽²⁾:

النوع الأول - قصص الأنبياء: وقد تضمن دعوتهم إلى قومهم، والمعجزات التي أيدهم الله بها، وموقف المعاندين منهم، ومراحل الدعوة وتطورها وعاقبة المؤمنين والمكذبين، كقصة نوح وإبراهيم وموسى وهارون وعيسى ومحمد وغيرهم من الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام. ويحتل قصص الأنبياء جانبا غير قليل من السور المكية، ويتركز بصفة خاصة في مجموعة من السور، يحمل بعضها اسم واحد من الأنبياء. بالإضافة إلى سورة "الأنبياء" التي يشير اسمها إلى موضوعها، وتلك السور هي: الأعراف ويونس وهود ويوسف وإبراهيم والكهف ومريم وطه والأنبياء والشعراء والنمل والقصص والعنكبوت والصفافات وص... غير إشارات عديدة جدا في كثير من السور المكية.

النوع الثاني: قصص قرآني يتعلق بحوادث غابرة، وأشخاص لم تثبت نبوتهم.

كقصة الذين أخرجوا من ديارهم، وهم ألوف حذر الموت. وطالوت وجالوت، وابني آدم، وأهل الكهف، وذو القرنين وقارون، وأصحاب السبت، ومريم، وأصحاب الأخدود، وأصحاب الفيل ونحوهم.

النوع الثالث: قصص تتعلق بالحوادث التي وقعت في زمن رسول الله ﷺ.

كغزوة بدر وأحد في سورة آل عمران، وغزوة حنين وتبوك في سورة التوبة، وغزوة الأحزاب وبنى قريظة في سورة الأحزاب، والهجرة، والإسراء، ونحو ذلك.

المبحث الثاني: أهداف قصص الأنبياء:

يجيء القصص في القرآن لأهداف شتى منها:

1- إثبات صدق الوحي المنزل على رسول الله ﷺ:

(1) تفسير ابن كثير 465/2.

(2) ينظر: في رحاب التنزيل، إسلام درباله، 156، نفحات من علوم القرآن، محمد أحمد معبد، 107.

يقول سبحانه: (نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْعَافِلِينَ ﴿١﴾ [يوسف: آية 3] (1).

2- التسرية عن الرسول p فيما يلقاه من قومه تكذيب وأذى، واتهام بالسحر والجنون، فقد كذب الرسل من قبل، ووجه لهم نفس القول، ثم صبروا، قال تعالى: (وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيِّ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢﴾ [الأنعام: آية 34] (2).

ومع التسرية عن الرسول p، التسرية عن المؤمنين كذلك، وهم يلقون العنت والعذاب بسبب إيمانهم، فيعرض عليهم قصص الأمم السابقة؛ ليعلموا أن هناك مؤمنين قبلهم أذيقوا ألوان العذاب والتشريد، ثم صبروا على عقيدتهم، ثم يخبرهم أن العاقبة للمتقين، إما بنصر في الحياة الدنيا يقدره الله، وإما بالجزاء الأوفى في الآخرة، وهنا ترد - كثيرا - عقيدية مع فرعون، وهو يسومهم سوء العذاب (3).

3- كذلك من أهداف القصص القرآني: إبراز حقيقة عقيدية مهمة، تبرز من خلال السرد التاريخي، وهي أن الأنبياء والرسل جميعاً، عليهم صلوات الله وسلامه، جاءوا بكلمة واحدة على تتابع الأجيال، هي: لا إله إلا الله، وقضية واحدة هي: اعبدوا الله مالكم من إله غيره.

هذا الهدف من أهم أهداف القصص القرآني، ويبدو بارزاً، شديد البروز من خلال السرد القرآني، وتتخذ له وسائل شتى. فأحياناً يوجد أسلوب القصص (مع التنوع الواضح في القرآن) بحيث تجيء العبارة موحدة على لسان كل رسول في الشريط المتتابع للرسل، كل رسول يقول الكلمة ويمضي، ويأتي من بعده بنفس الكلمة بلا تغيير.

وتارة يقال عن قوم معينين إنهم كذبوا "الرسل" مع أنهم لم يرسل إليهم إلا رسول واحد، ليوحي التعبير بأن تكذيب الرسول الواحد هو بمثابة تكذيب للرسل كلهم؛ لأنهم يقولون ذات الشيء بلا تغيير، فمن كذب واحداً، منهم فقد كذبهم جميعاً.

وتارة يقال عن أقوام متعددين: إنهم عصوا رسول ربهم، فيوضح ذلك، أن كل أمة كذبت رسولها، ويوحي في ذات الوقت أنه كأنما هو رسول واحد الذي بعث إلى هذه الأقوام جميعاً؛ لأنهم - على اختلاف أقوامهم، وأزمانهم وأماكنهم ولغاتهم - قد قالوا ذات الكلمة وعرضوا ذات القضية... ومن هنا فالرسل جميعاً كأنهم رسول واحد يتكرر لكل قوم من الأقوام.

(1) وينظر: هود: آية 49، طه: آية 99، 100، القصص: الآيات 44-46 .

(2) وينظر: الأعراف: الآيتان 101، 102، هود: آية 120، يوسف: آية 110، الفرقان: آية 31، ص: الآيات 4-15، فصلت: آية 43، الذاريات الآيتان 52، 53 .

(3) الأعراف: الآيات 129-137، القصص: الآيات 1-6، طه: الآيات 70-73.

فمن أمثلة النوع الأول ما جاء في سورة الأعراف قال تعالى: (لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (59) قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (60) قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَالَّةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (61) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأُنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (62) أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (63) فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ (64) وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ (65) قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (66) قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (67) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ (68) أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَرَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسِطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (69) قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (70) قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءِ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانظُرُوا إِلَيَّ مِنْ مَعَكُمْ مِنَ الْمُنتَظِرِينَ (71) فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ (72) وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ آيِمٍ (73) وَادْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَتَّخُوا فِي الْأَرْضِ مُمْسِدِينَ (74) قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضِعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ (75) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (76) فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (77) فَأَخَذْتَهُمُ الرِّجْفَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (78) فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أُبَلِّغْتُكُمْ رَسُولًا مِنْ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ (79) وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ (80) إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ (81) وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَنْتَهَرُونَ (82) فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (83) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَأَنْظَرُ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (84) وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (85). [الأعراف: 59-85] (1).

ومن أمثلة النوع الثاني سورة الشعراء نفسها، التي جمعت بين الوسيطتين، إذ وحدت قول الرسل كلهم في عبارة واحدة، يكررها كل رسول، ثم جعلت كل قوم بمفردهم يكذبون "المرسلين" جميعاً؛ بتكذيبهم للرسول الخاص الذي أرسل إليهم. وكذلك ما جاء في سورة الفرقان عن قوم نوح من أنهم كذبوا "الرسول"، مع أنهم كذبوا رسولهم الخاص وحده وهو نوح، عليه السلام. ولكن ذلك بمثابة تكذيب الرسل جميعاً: (وَقَوْمِ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَا هُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا) [الفرقان: آية 37].

(1) وينظر: هود: آية 25-48، الشعراء: آية 105-180.

ومن أمثلة النوع الثالث ما جاء في سورة الحاقة: (كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ (4) فَأَمَّا ثَمُودُ فَأَهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ (5) وَأَمَّا عَادٌ فَأَهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (6) سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَتَمَازِيَةً أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُغِجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ (7) فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ (8) وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ (9) فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخَذَةً رَابِيَةً) [الحاقة: 4-10].

والتعبير - وإن كان يفهم منه أن كل فرقة من هؤلاء قد عصت رسولها - إلا أن اللفظة فيه واضحة، أن الرسل كلهم الذين أرسلوا إلى فرعون ومن قبله، والمؤتفكات، قد جمعوا في رسول واحد؛ لأن مهمتهم كلها واحدة، وقضيتهم كلها واحدة.. فكانهم رسول واحد تكرر بعثه لكل فرقة منهم في حينها.

وكذلك ما جاء في سورة الشعراء عن موسى وهارون معا أنهما "رسول" رب العالمين: (قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ (15) فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (16) أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (17)) [الشعراء: 15-17] وليس هناك لبس على الإطلاق في أن المتكلم اثنان معا لا واحد؛ لأن الأمر صار إليهما معا "فقولا"؛ ولأنهما يقولان "أن أرسل معنا بني إسرائيل" فموسى وهارون يتكلمان معا، وحتى لو فرضنا أن موسى وحده هو الذي يتكلم باسميهما معا فهو يقول "إنا" ولا يقول "أنا" .. أي: أنه يتكلم بضمير المثنى لا المفرد، ومع ذلك يقول: "إنا رسول رب العالمين"؛ لأنهما - وهما شخصان - يقومان بمهمة واحدة ورسالة واحدة فكانهما رسول واحد.

هذه القضية كما قلنا ذات أهمية خاصة في القرآن، وهي فضلا عن أهميتها العقيدية في تقرير وحدة الرسالة، ووحدة الألوهية، وأن توحيد الألوهية هو القضية الكبرى في حياة البشرية، بحيث يرسل الرسل المتتابعون من أجلها وحدها، وكل شيء بعد ذلك مترتب عليها. فضلا على هذا الجانب الاعتقادي، فإنه يعطي شعورا بالانتماء إلى أمة موحدة على تتابع الأجيال: (إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ) [الأنبياء: 92].

4- ومن الأهداف المهمة كذلك الموازية في أهميتها لقضية وحدة الرسالة ووحدة الرسل، إبراز الموقف الموحد الذي يقفه أهل الباطل جميعا من رسلهم، الذين أرسلوا إليهم.

فكما أنها رسالة واحدة مكررة، وإن اختلف الأشخاص واللغات والزمان والمكان، فهي كذلك ضلالات واحدة مكررة، وإن اختلف الأشخاص واللغات والزمان والمكان: (كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (52) أَتَوَّصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ) [الذاريات: 52-53].

إن موقف أهل الضلال واحد من كل رسول: التكذيب والإعراض... ثم التشهير بالرسول حين يتضح أنه مصر على دعوته، لم يثنه عنها إعراض ولا تكذيب.. ثم التهديد بالأذى له وللذين آمنوا معه... ثم تنفيذ التهديد أحيانا أو الحيلولة دون ذلك بقدر الله.

دورة واحدة، ودور واحد يقوم به أهل الكفر دائماً إزاء هذه الدعوة البسيطة غاية البساطة، الخطيرة، غاية الخطورة.. دعوة لا إله إلا الله.

والقرآن يبرز هذا الدور إبرازاً شديداً في قصص الأنبياء. وقد كان من أهداف هذا الإبراز - ولا شك - أن يقال للرسول ρ وللمؤمنين: إن ما تفعله بكم قريش من اضطهاد وتعذيب، هو الذي صنعه كل أصحاب الضلالات من قبل في التاريخ... ثم كانت النهاية دائماً هي انتصار الحق وتدمير المكذبين.

5- الابتلاء لابد أن يحدث للمؤمنين، وهذا الهدف من أهداف القصص القرآني ربما لم يكن منصوصاً عليه في القصص ذاته، ولكنه مفهوم من سياق القصص أولاً، ومنصوص عليه كذلك في مواضع أخرى من القرآن الكريم، كما جاء في أول سورة العنكبوت: (1) أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يَبْرُكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (2) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ [العنكبوت: 1-3]

إن القصص القرآني يقول لنا - من خلال السياق - إن الابتلاء هو سنة الله للمؤمنين.. ثم يقول إن الله هو الذي يضع المؤمنين في الابتلاء بقدر منه.. ويضع الظالمين في موضع الغلبة بقدر منه.. حتى إذا جاء أمر الله، جاء النصر للمؤمنين بقدر من الله، ووقع الهلاك بالمكذبين بقدر من الله كذلك⁽¹⁾.

(1) دراسات قرآنية: محمد خطاب، ص 99-111.

المبحث الثالث: فوائد القصص القرآني.

للقصص القرآني فوائد منها:

- 1- إيضاح أسس الدعوة إلى الله، وبيان أصول الشرائع التي بعث بها كل نبي، قال تعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ) [الأنبياء: 25].
- 2- تثبيت قلب رسول الله ﷺ وقلوب الأمة المحمدية على دين الله، وتقوية ثقة المؤمنين بنصرة الحق وجنده، وخذلان الباطل وأهله.
- 3- إظهار صدق محمد ﷺ في دعوته، بما أخبر به عن أحوال الماضين عبر القرون والأجيال.
- 4- مقارعة أهل الكتاب بالحجة فيما كتموه من البينات والهدى، وتحديه لهم بما كان في كتبهم قبل التحريف والتبديل، قال تعالى: (كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلالًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ قُلْ فَأَنُوتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ (93)) [آل عمران: 93].
- 5- التنبيه على سنن الله تعالى في الاجتماع البشري، وتأثير أعمال الخير والشر في الحياة الإنسانية، وكما عبر الشاطبي، فإنه ليس المراد بنفي كون قصص القرآن تاريخاً، أن التاريخ شيء باطل ضار ينزه القرآن عنه، كلا، إن قصصه شذور من التاريخ تعلم الناس كيف ينتفعون بالتاريخ.
- 6- القصص ضرب من ضروب الأدب والعبر، يصغى إليه السمع، وترسخ عبره وأدبه في النفوس. قال تعالى: (لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ) [يوسف: 111].

المبحث الرابع: تكرار القصص وحكمته.

يشتمل القرآن الكريم على كثير من القصص الذي تكرر في غير موضع، فالقصة الواحدة يتعدد ذكرها في القرآن، وتعرض في صور مختلفة من التقديم والتأخير، والإيجاز والإطناب وما شابه ذلك، ومن حكمة هذا:

- (1) التفنن بالبلاغة؛ لأن إفادة المعنى بالموجز منها بوجه أبلغ، كإفادته بصورة مطنبة من نوع الإعجاز والتحدّي.
- (2) استيفاء القصة في موضع لم تستكمل فيه في الموضع الآخر.
- (3) إن إبراز الكلام الواحد في فنون كثيرة، وأساليب مختلفة، لا يخفى ما فيه من الفصاحة.
- (4) لفت الانتباه إلى العناية والاهتمام بالمعنى المراد ترسيخه في النفوس.
- (5) جذب النفوس إلى سماع القصة بالمغايرة بين أساليبها.
- (6) التكرار من أبرز صور الإعجاز؛ لأن كل قصة كررت، حصل في ألفاظها زيادة ونقصان وتقديم وتأخير، وكلها في أعلى درجات البلاغة.
- (7) الإعلام بالعجز عن الإتيان بمثل القرآن بأي نظم جاء أو بأي عبارة عبر⁽¹⁾.

المبحث الخامس: القصة القرآنية حقيقة لا خيال..

المطلب الأول: مع دراسة لفكر هدام:

في المكتبة العربية (للأسف) دراسة تحت اسم (الفن القصصي في القرآن الكريم) كانت في الأصل رسالة دكتوراه من إعداد: محمد أحمد خلف الله، أشرف عليها وقدم لها وناضل عنها الأستاذ أمين الخولي، رحمه الله، وقال في تقديم الطبعة الثالثة لها⁽²⁾: إن الدكتور خلف الله: "من الذين آمنوا.. وآمنوا بالحق.. وآمنوا بالتطور فمضوا يدرسون القرآن دراسة فنية متجددة". مستفيدين من التقدم الفني والعقلي والاجتماعي. فانتهوا بذلك إلى أن قدموا التفسير الأدبي للقرآن خطوة للأمام

(1) ينظر: البرهان، للزركشي، 27-26/3، اللأئي الحسان في علوم القرآن، موسى شاهين، ص249-250، دار الشروق 2002م، نفحات من علوم القرآن، لمحمد معبد، ص108، وينظر: هذه مشكلاتهم، د. البوطي، ص113-115، بتصرف، أباطيل الخصوم حول القصص القرآني، د. عبد الجود المحمص، الدار المصرية، الاسكندرية، 2000، ص146-152، بتصرف، موسوعة القرآن العظيم، د. عبد المنعم الحفني، مكتبة مدبولي، 2003، 831/1.

(2) طبعتها مكتبة الأنجلو المصرية عام 1965م، وكانت قد طبعت من قبل عام 1953م، ثم عام 1957م، وقدم لها وعرضها خليل عبد الكريم، في طبعة سينا للنشر 4/، 1999م.

بعيدة الأثر.. خطوة حسبها أن تمنع ازدواج الشخصية في المتدين.. ذلك الازدواج الذي يتجلى حين يدين مثقف بالإسلام واثقا موقنا.. ثم يدرك ويقرر: أن الإسلام وكتابه القرآن يحدث عن الأشخاص والواقعات بما يشاء، ويستغلها في ترويج الدعوة الإسلامية كما يشاء.. دون أن يكون ذلك حقا ملزما للمؤمنين".

ثم يقول أمين الخولي: "إن المؤمنين بالعلم وبالتطور وبالسنن الفنية قد حلوا تلك الأزمة⁽¹⁾، بأن فرقوا بين العرض الفني الأدبي وبين العرض التاريخي، والأول هو منهج القرآن في قصصه. وعلى هذا يستطيع المثقف الراقي حين يتدين أن يعتقد في تسليم مطمئن بحديث القرآن الفني في قصصه، ومع ذلك يحقق ويحل في عمق ووضوح تاريخ هاتيك الأحداث وأشخاص أصحابها، وينفي في ذلك ويثبت مطمئناً إلى أن هذا لن يصادم بحال ما ذلكم العرض الفني الآخر⁽²⁾".

يتكلم خلف الله عن القصص القرآني فيقول: "إن التاريخ ليس من مقاصد القرآن، وإن التمسك به بمقياس الصدق التاريخي في القصص القرآني "خطر أي خطر على النبي عليه السلام وعلى القرآن، بل هو جدير بأن يدفع الناس إلى الكفر بالقرآن كما كفروا من قبل بالتوراة"⁽³⁾.

ويقول: "إن المعاني التاريخية ليست مما بلغ على أنه دين يتبع، وليست من مقاصد القرآن في شيء، ومن هنا أهمل القرآن مقومات التاريخ من زمان ومكان وترتيب الأحداث"⁽⁴⁾. وبعد أن يقرر هذه المقدمة السابقة القائلة بأن الصدق التاريخي لم يكن من مقاصد القرآن الكريم فيما عرض له من وقائع وقصص تاريخية؛ يرتب على هذه المقدمة نتيجة أهم وأخطر، حيث يقول: "ومن هنا يصبح من حقنا، أو من حق القرآن علينا، أن نفسح المجال أمام العقل البشري ليبحث ويدقق، وليس عليه من بأس في أن ينتهي من هذه البحوث إلى ما يخالف هذه المسائل"⁽⁵⁾. ولكن تكون مخالفة لما أراده الله أو لما قصد إليه القرآن؛ لأن الله لم يرد تعليمنا التاريخ، ولأن القصص القرآني لم يقصد إلا إلى الموعظة والعبرة وما شابههما من مقاصد وأغراض.

إن المخالفة هنا لن تكون إلا مخالفة لما تتصوره البيئنة ولما تعرفه عن التاريخ. ولم يقل قائل بأن ما تعرفه البيئنة العربية عن التاريخ هو الحق والصدق. ولم يقل بأن المخالفة لما في

(1) يعني: التي تواجه المسلم المثقف المتدين - كما يقول.

(2) ص: د، ه من التقديم.

(3) الفن القصصي، لخلف الله ص 42.

(4) المصدر السابق ص 44.

(5) يعني: التي نكرها القصص القرآني.

أدمغة العرب من صور عن التاريخ هي الكفر والإلحاد. بل لعل هذه المخالفة واجبة حتى يكون تصحيح التاريخ وخلوه من الخيالات والأوهام".

ولما كان قد استشعر أن القارئ المسلم سيقول هنا: وما للقصص القرآني - وهو من عند الله - وما كانت تتصوره البيئة العربية وما كان في أدمغة العرب عن التاريخ؟! فإن خلف الله يقول بعد كلامه السابق مباشرة وفي أصرح عبارة: "أعتقد أنك قد فطنت إلى ما نريد تقريره من نظرية تحل مشكلات المفسرين وترد اعتراضات المستشرقين والمبشرين: وأعتقد أنك قد فطنت إلى أن هذه النظرية ليست إلا القول بأن ما في القصص القرآني من مسائل تاريخية ليست إلا الصورة الذهنية لما يعرفه المعاصرون للنبي عليه السلام من التاريخ. وما يعرفه هؤلاء، لا يلزم أن يكون هو الحق والواقع، كما لا يلزم القرآن أن يصحح هذه المسائل أو يردّها إلى الحق والواقع؛ لأن القرآن الكريم كان يجيء في بيانه المعجز على ما يعتقد العرب، وتعتقد البيئة، ويعتقد المخاطبون"⁽¹⁾.

إن فنظرية خلف الله: هي أن القرآن الكريم استخدم الأساطير والأكاذيب التي كانت في أذهان العرب عن الوقائع التاريخية، فنزل بها، ولم يصححها أو ينص على كذبها خدمة لأغراضه في العظة والاعتبار ومجارة لمعتقدات القوم الذين نزل فيهم. وهذا هو صنيعه البلاغي المعجز وأسلوبه البياني في التعبير - كما يقرره خلف الله.

ثم يقول: "أما الآيات التي يصف القرآن فيها بعض القصص بهذه الصفة" بالحق" من مثل قوله تعالى: (إِنَّ هَذَا لَأُجُوبُ الْقَصَصِ الْحَقِّ) [آل عمران: ٦٢] وقوله تعالى: (وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ) [هود: ٢٠] - فليس فيها ما يدل دلالة قطعية على أن المقصود بهذه الصفة، إنما هي الأحداث التاريخية. بل لعل رأياً آخر هو الراجح، وهو أن هذه الصفة إنما تطلق على المقصود من هذا القصص من أمثال التوجيهات الدينية والأغراض القصصية".

لكن، ما الأسباب التي حملته على هذا كله؟ وأين تأكد من التناقض بين قصص القرآن والواقع التاريخي، حتى يذهب هذا المذهب؟

يقول: إن الملاحظة والمستشرقين والمبشرين وقفوا أمام مسائل من القرآن، جعلوا التاريخ مقياساً تقاس به صحة الأخبار فيها، فحاولوا بيان وجه المخالفة بين الأفاصيص القرآنية وما يعرفونه من تاريخ، ويذكر من ذلك:

(1) الفن القصصي، لخلف الله، ص 255.

1- قوله تعالى: (وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ ﴿٤٦﴾ [آل عمران: 46]، فينقل عن الرازي أن اليهود والنصارى ينكرون أن عيسى تكلم في زمن الطفولة، ويحتجون بأن هذا لو حدث لكان من الوقائع العجيبة التي تنقل بالتواتر⁽¹⁾.

2- وفي آية: (يَاأُخْتُ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَعْثًا ﴿٢٨﴾ [مريم: 28]، يروي خلف الله في تفصيل ما يذكره المبشرون والمستشرقون من أن النبي p- بزعمهم- كان يرى أن مريم أم المسيح، كانت أخت هارون أخي موسى عليهما السلام، مع أن بينه وبينهما من الزمن ألفا وخمسمائة وسبعين سنة.

ويعلق خلف الله على ذلك كله بقوله: " هذه الأقوال -وكثير غيرها- إنما كانت؛ لأن المسلمين أنفسهم قد حرصوا الحرص كله على فهم القصص القرآني على أساس من التاريخ. ولو أنهم أعرضوا عن هذا الأساس وحاولوا فهم القرآن على أساس من الفن الأدبي؛ لأغلقوا هذا الباب الذي جاءت منه الريح، ولسدوا على المشركين والمبشرين السبل، وحالوا بينهم وبين الطعن على النبي عليه السلام وفي القرآن الكريم"⁽²⁾.

أما هذا (الأساس من الفن الأدبي) فهو ما سبق أن قرره من أن القرآن استخدم الصور الذهنية والأساطير عند العرب الجاهليين استخداماً بلاغياً - كما يقول- لإثارة العواطف والانفعالات، بصرف النظر عن الصدق الواقعي.

ثم عن قوله تعالى: (حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَاذَا الْقُرْنَيْنِ إِنَّمَا أَنْ تَعْدَبَ وَإِنَّمَا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ [الكهف: 86] فقال: "بان للعقل الإسلامي أن مسألة غروب الشمس في عين حمئة لا تستقيم وما يعرف من حقائق هذا الكون"⁽³⁾.

ويقول: "وبان للعقل الإسلامي أنه لا يستطيع أن يتصور مساعدة الملائكة للمسلمين في غزوتي بدر وأحد - اللهم إلا أن يكون حديث القرآن عن ذلك، حديث من يأخذ الناس بعقائدهم تقوية للروح المعنوية، وبتأ للأمل القوى بالانتصار السريع في النفوس"⁽⁴⁾.

.... وبعد، فهذه هي نظرية خلف الله - ومن يدافعون عنها- في القصص القرآني، ومعنى (المجاز و الأسلوب البياني) فيها.

(1) ينظر: تفسير الرازي 5 - 35 .

(2) ينظر: الفن القصصي، لخلف الله، ص 25-28 .

(3) المصدر السابق ص 34، وسنعود على ذلك كله بالمناقشة المفصلة فيما سيأتي إن شاء الله .

(4) المصدر السابق ص 36-37 .

ومن ثم لن نعجب حين يصرح بأن في القرآن أساطير، حيث يقول: "إننا لا نتحرج من القول بأن في القرآن أساطير" ويمثل لها بقوله تعالى: (أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا)⁽¹⁾ [البقرة: 259].

أما الإعجاز التعبيري في القرآن الكريم فهو يقول عنه بالحرف الواحد: "لقد تقرر أن القرآن إنساني العبارة، بشري الأسلوب، جاء على سنن العرب في بلاغتها وبيانها".

فهل بعد ذلك كله يأتي من يقول: إن القرآن لا يفهم على هذه القواعد أو تلك الأساليب؟ إن المسألة في القصة القرآنية هي بعينها مسائل الصور البيانية من مجاز وتشبيه واستعارة وكناية... الخ، وأنها من هنا لا توصف لا بتصديق ولا بتكذيب، وإنما هي العرض الأدبي الذي يهز العاطفة ويستثير الوجدان"⁽²⁾.

وفي تفسير ما قرره من بشرية الأسلوب القرآني - يقول: "القصص القرآني يمثل نفسية النبي، ويمثلها في أدق مراحلها وفي أعنف صورها". وفي سبيل تقرير ذلك يقارن بين أسلوب القرآن الكريم وما يرويه من ظروف النبي ρ النفسية⁽³⁾.

المطلب الثاني: نقض وتقويم:

... هذا هو كتاب خلف الله، وهذه هي نظريته في تفسير القصص القرآني، التي بشر لها بأنها هي التي ستحل مشكلات المفسرين وترد اعتراضات المستشرقين والمبشرين، والتي قال عنها أستاذه أمين الخولي إنها قد أصبحت كسبا فنيا، ووجها من الإعجاز القرآني عند أصحاب الدين والأدب.

أولاً: خلف الله وأصحابه تابعون لا مؤصلون في هذا:

فتلك دعوى قديمة قالها من قبل طه حسين في كتابه (في الشعر الجاهلي) حين زعم أن القرآن الكريم فيما ذكره عن إبراهيم وإسماعيل (عليهما السلام) قد استغل أسطورة اختلقها يهود شبه الجزيرة العربية لإثبات صلتهم بالعرب، فجاء القرآن الكريم واستخدمها لتأكيد هذه الصلة وإثبات الاتصال بين (الإسلام) و(اليهودية) وبين(القرآن) و(التوراة)، مع مخالفة ذلك كله للواقع التاريخي، ومن ثم فالقرآن - كما زعم - كان يأتي بالأساطير الشائعة المخالفة للتاريخ والواقع في

(1) المصدر السابق ص 80-181.

(2) الفن القصصي، لخلف الله ص 137-138 .

(3) المرجع السابق: ص 305، 337 .

أصلها، ليحقق أهدافا له من وراء ذلك، فهو لا يراعي الصدق التاريخي والاتفاق من الواقع، إنما يستخدم ما في أذهان معاصريه من أساطير ليحقق أهدافاً له من وراء ذلك⁽¹⁾. ولست أدري هل كان أمين الخولي (الذي أيد مذهب تلميذه) يعرف أن طه حسين لم يكن هو أصل هذه الدعوى، بل كان ناقلاً لها كما نقلت عنه بعد؟ وإذا صرفنا النظر في هذا عن المستشرقين الذين تلقن طه حسين عنهم، فإننا نجد كتاباً يسمى (ذيل مقالة في الإسلام) قد طبع بمطبعة النيل لمن سمي نفسه بـ (هاشم العربي)، وإنما هو في حقيقته مبشر خبيث يحاول في لوم - تشكيك المسلمين في كتابهم (القرآن) بزعم أنه استخدم الأساطير والأكاذيب الشائعة، ومن يقارنه بكتاب طه حسين السابق، فسوف يتيقن في وضوح أن طه حسين لم يكن إلا ناقلاً عن هذا المتخفي تحت اسم (هاشم العربي). وقد أجرى المرحوم الشيخ محمد أحمد عرفة (الوكيل الأسبق لكلية الشريعة الإسلامية بمصر) مقارنة بين نصوص من الكتابين، أثبتت ذلك بما لا يدع احتمالاً للشك فيه⁽²⁾.

بل إن الزعم بأن في القرآن الكريم أساطير وأكاذيب أقدم من هذا، وكما يقول ابن قتيبة (أبو محمد عبدالله بن مسلم 213-276هـ) في كتابه (تأويل مشكل القرآن): فقد "اعترض كتاب الله بالطعن ملحدون، ولغوا فيه وهجروا، واتبعوا ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله، بأفهام كليلية وأبصار عليية، ونظر مدخول، فحرفوا الكلام عن مواضعه، وعدلوه عن سبله، ثم قضاوا عليه بالتناقض، والاستحالة في اللحن، وفساد النظم والاختلاف. وأدلو في ذلك بعلل ربما أمالت الضعيف الغمر، والحدث الغر، واعترضت بالشبه في القلوب، وقدحت بالشكوك في الصدور"⁽³⁾. بل إننا لو تقدمنا مع الزمن حتى عصر التنزيل، لوجدنا أنه لم يخل من اتهام القرآن الكريم بالأسطورة والكذب المناقض للواقع، وقد روى القرآن نفسه هذا الزعم في آيات متعددة، منها: قوله تعالى: (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا (4) وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمَلَى عَلَيْهِ بُحْرَةً وَأَصِيلًا (5) قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (6))) [الفرقان: 4 - 6].

ثانياً: محاولة باطلة لارتداء ثوب الدفاع عن القرآن الكريم:

(1) ينظر: ص 26 من الشعر الجاهلي.

(2) ينظر: نقض مطاعن في القرآن الكريم، محمد عرفة، ص 101 وما بعدها، وقد طبع كتاب (ذيل مقالة في الإسلام) للمرة السادسة عام 1925م، وقد طبع من قبل سنة 1891م.

(3) تأويل مشكل القرآن، لابن قتيبة، ص 17 وقد ألقه ابن قتيبة لنقض شبههم، وينظر أيضاً: الأنفال 31، النحل 24، المؤمنون 83، النمل 68، الأحقاف 17، القلم 15، المطففين 13.

يحاول خلف الله -ومن ناصرهم- أن يزينوا لجمهور المسلمين نظريتهم السابقة في تنحية مقياس (الصدق) في النظر إلى القصص القرآني، وإبداله بمقياس (الفن الأدبي) الذي يبيح -كما قالوا- استخدام الأساطير والأكاذيب والصور الذهنية عند العرب الجاهليين، بحجة أن ذلك هو الذي يعنى القرآن من أن ينظر إليه المستشرقون والمبشرون بمقياس (الصدق) مع التاريخ، ومع الواقع الكوني والطبيعي، فيفتح لهم -كما قال- باب للطعن في صحته، لعدم اتفاهه مع التاريخ أو الواقع.

فهذه صورة مضحكة إذن للمدافع، حين يبدأ دفاعه بالتسليم بارتكاب الجرم، مع أن من يدافع عنه بريء، ناصع البراءة، كما سيتبين لنا إن شاء الله.

ثم إننا حين نأتي إلى العلل والأسباب التي ذكرها في (تبرير) تسليمهم بأشتمال القرآن الكريم على أكاذيب وأساطير - فسنجد أنها علل متهاففة تؤيد- فيما تنتهي إليه ضمناً- القائلين بأن القرآن الكريم من كلام محمد ρ ، إذ لا يستقيم معها بحال، القول، بأن القرآن الكريم كلام الله القادر العالم بكل شيء؛ لأن هؤلاء يقولون: إن القرآن استخدم الأساطير والأكاذيب التي كانت تعرفها البيئة العربية وقت نزوله، تحقيقاً لعنصر التأثير في نفوس المعاصرين وتمكيناً للإيمان به في قلوبهم. فهل يستقيم مع هذا القول أن يكون القرآن قد نزل من عند الله ذي القدرة المطلقة التي لا يحدها حد؟

من الواضح أن الأمرين لا يتوافقان أبداً؛ لأن الله تعالى - هو الحق القادر- أعظم من أن يلجأ في كتابه المنزل، الذي أنزله لهداية الخلق جميعاً- إلى استخدام الباطل والأكاذيب ليجذب بها العرب من معاصري نزوله إلى الإيمان، وهو يعلم أن هذا الكتاب سيؤمن به غيرهم في أزمنة وأمكنة أخرى.

وهل يصح مثل هذا القول إلا بناء على عقيدة ترى أن الإسلام (دين محلي) نزل إلى عرب شبه الجزيرة في القرن السابع الميلادي، واجتذبهم إلى الإيمان بموافقته، لما كان عندهم من أوهام وخيالات وأباطيل تخالف التاريخ الحق؟

وهل يعقل أن الله تعالى لم يعلم حال من سيؤمن بالقرآن من غير هؤلاء، ممن تتكشف لهم حقيقة هذه (الأوهام)، كما زعم أصحاب هذه النظرية؟!

وَألا يقودنا القول بذلك إلى سؤال بالغ الأهمية هو: كيف يلجأ الخالق-جل وعلا عما يقولون- إلى موافقة خيالات وأوهام العرب الجاهليين وقت نزوله، وهو القادر - بطريق القطع- على أن يصوغ كتابه المنزل من الحقائق المتفقه مع الواقع والتاريخ، التي تحدث أثرها من الموعظة والعبرة في نفس الوقت؟

...وهكذا نرى أن القول بالنظرية السابقة لا يستقيم أبداً مع الإيمان بأن القرآن (وحي إلهي)، إنما هو يستقيم، فحسب مع عقيدة ترى أنه بشري الطابع والأسلوب.

فالقرآن عند خلف الله وأصحابه "بشري الأسلوب، إنساني العبارة" لا يعنى في قصصه بالحق أو الواقع، إنما يعنى فحسب بالتأثير في نفوس معاصري نزوله من العرب بموافقته لما عندهم من أوهام وخيالات باطلة، وصياغتها لهم في أسلوب مؤثر جذاب ! فهل يتفق هذا في شيء مع عقيدة أن القرآن الكريم إلهي التنزيل، نزل بالحق"؟(1).

لكن الأمور بحمد الله- تجري على غير ذلك، فما يباح لإنسان أن يقول في آيات نفى الافتراء والوصف بالحق، ما قاله خلف الله إلا بدليل من النص ومستند من أساليب البيان، وليس هناك -إطلاقاً- مثل هذا الدليل أو المستند الذي يبيح لخلف الله وأمثاله شيئاً من ذلك.

ولنستعرض هذه الآيات القرآنية لنرى ذلك في وضوح لا شبهة فيه:

يقول تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ (41) لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ) [فصلت: 41 - 42]. فإذا كان المضمون التاريخي في القصص القرآني -كما يزعم خلف الله وأصحابه- باطل في الحقيقة ونفس الأمر (وإن كان مطابقاً لما في نفوس المشركين أو غيرهم) ألا يكون معارضاً معارضة صريحة لمضمون هذه الآية، التي تنفي إمكان أن يتقدم الباطل إليه من بين يديه أو من خلفه؟ وما قولهم في وصف القرآن -بما فيه من قصص- بأنه (الحق) في قوله تعالى: إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا [البقرة: 119]، وقوله: (إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ) [آل عمران: 62]، وقوله: (إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ) [الأنعام: 57] وقوله (نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ) [الكهف: 13] وقوله (نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) [القصص: 3]، وقوله (وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ) [فاطر: 31]، وقوله (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ) [محمد: 2]؟

فقد أثبتت هذه الآيات كلها - وأمثالها في القرآن كثير - أن القرآن كله حق، نزل من عند الله، وآياته كلها حق، وقصصه كلها حق؛ لأن الله تعالى لا يقص إلا الحق، وهو يقص علينا نبأ أهل الكهف بالحق، ونبأ موسى وفرعون بالحق، وكل ما قصه وأوحى به، فهو الحق؛ لأن الله تعالى

(1) لإلقاء مزيد من الضوء على الزعم الاستشراقي التبشيري، القائل ببشرية القرآن الكريم، وأصداء هذا الزعم في بلادنا الإسلامية، راجع كتاب (الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي) للدكتور محمد البهي، ص 225-248 حيث عرض فيه للمقارنة بين كتابي (المذهب المحمدي) للمستشرق الإنجليزي جب، و (في الشعر الجاهلي) لطف حسين - الذي سبق أن عرضنا له - والأول يعبر عن فكرة (بشرية القرآن) بأنه كان انطباعاً في نفس محمد P، أما الثاني فيقول أنه كان تعبيراً عن الحياة التي عاشها .

لا يقول إلا الحق، وهو يهدي السبيل، ووحيه كله حق، وكتابه كله حق، لا يصل إليه الباطل والافتراء والكذب بأية وجه من الوجوه. وهل إذا لحق الافتراء هذه الأمور - كما يزعمون - يصح إطلاق وصف (الحق) في الآيات السابقة؟ وهل استخلاص العبرة ينافي أن يكون القصص المستخلص منه حقاً؟

لقد أجابت عن هذا الزعم الباطل آخر آية في سورة يوسف وهي قوله تعالى: (لَقَدْ كَانَ فِي قَصصِهِمْ عِبْرَةً لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (111)) [يوسف:111]، فالعبرة المستخلصة من القصص القرآني إنما تستخلص من قصص حق، لا افتراء فيه ولا أسطورة.

وفي القرآن الكريم قوله تعالى: (فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ) [يونس: 32] فإذا كان كل ما في القرآن قد وصف بأنه (هو الحق) فهل يستقيم بعد هذا أن يتضمن شيئاً ينسب إلى باطل، أو ضلال بمخالفته لحقيقة التاريخ أو الحقائق الكونية؟
وخلاصة القول في هذا: أن الله تعالى قد وصف وحيه المنزل في القرآن، بأنه حق مطلق، لا شبهة لباطل في شيء منه بحال.

والذي جرّ خلف الله إلى مصادمة النصوص القرآنية، القطعية الدلالة - بما زعمه من تخصيص وتأويل - إنما هو وهمه أن في القرآن آيات تناقض الواقع التاريخي أو الكوني.

ثالثاً: خلف الله وأصحابه يضاهئون بعض المستشرقين فيما بنوه على بعض ما في كتبهم المقدسة.

لما كان ما عند غير المسلمين من النصوص المقدسة قد أصابه التحريف، فإن علماءهم قد وجدوا أن في هذه النصوص ما يخالف بعض ما أتى به العلم والمعرفة الحديثة بعامة، فحاول بعضهم، أن يعللوا لهذا الاختلاف بتعليلات متعددة، تبقى على جوهر الإيمان بها في مجموعها، مع وجود هذه المخالفة، وقد وجدوا لتعليلاتهم هذه مخرجاً - أو شبه مخرج - فيما هو متفق عليه بينهم، من أن نصوص ما يسمونه (التوراة) و(الإنجيل) قد كتبتها أيد بشرية، هي التي صاغت ألفاظها ونصوصها؛ لأن الوحي عندهم إشراف على المعنى والروح، وليس وحياً باللفظ والنص (1).

وكان من ضمن ما قالوه في تعليل هذه المخالفة، أن كتاب الوحي لكتبهم المقدسة، عبروا عن الأفكار الموحى بها (وهي ما يسمونه المادة الدينية) في قوالب وصياغات لفظية، انبعثت عن المفاهيم والأفكار التي كانت سائدة في عصورهم عن الكون والطبيعة والتاريخ - وهذه الأخيرة هي

(1) ينظر: المدخل إلى الكتاب المقدس لحبيب سعد، دار التأليف والنشر للكنيسة الأسقفية بمصر .

التي بين العلم الحديث عدم دقتها أو عدم صحتها- ومن ثم نراهم يقسمون (الوحي الديني) إلى قسمين:

أ - الجوهر الموحى به، وهذا صحيح خالد؛ لأنه لا يعرض لشيء إلا الأفكار الدينية الخالصة، وهي مما هو وراء الطبيعة لا يتعرض من حيث الواقع الكوني والتاريخي لشيء من التكذيب؛ لأنه لا يعرض لأموههما.

ب - القوالب والصياغات اللفظية لهذا الجوهر الموحى به: وهي التي يعرض لها التناقض والمخالفة مع مقررات العلم الحديث؛ لأنها صدرت أصلاً عن مفاهيم وأفكار عصورها. لكن التناقض والمخالفة لا تتدرج على العنصر الأول المقصود أصلاً (وهو الجوهر الديني الموحى به)؛ لأنه هو وحده الذي يعبر عن مضمون الوحي.

فالذي يؤمن عندهم من العلماء، يؤمن بالعنصر الأول مع مخالفة العنصر الثاني لمكتشفات العلم والتاريخ الحديث؛ لأن هذا العنصر الثاني، إنما هو أثر للصياغة البشرية، وليس هو - عندهم - مما أوحى به.

ولم يكتف بعضهم بذلك - فيما يتصل بكتابه المقدس - بل حاول أن يطبق هذه الوجهة على نصوص القرآن الكريم أيضاً، بتقسيمها إلى نفس العنصرين السابقين، والزعم بأن فيها - كما في كتبهم المقدسة - ما يخالف حقائق التاريخ أو الواقع الكوني.

ولم تكن "نظرية" خلف الله التي نعرض لها في القصص القرآني إلا مضاهاة - إن لم تكن نقلاً - لهذه المحاولة الاستشراقية التي صدرت عن قوم، عز عليهم أن يسلموا بأن في كتبهم المقدسة ما يتناقض مع حقائق التاريخ والطبيعة، ثم يسام كتاب المسلمين (القرآن الكريم) من ذلك، فحاولوا أن يطبقوا عليه ما وجدوه في كتبهم بالاستناد إلى حجج واستدلالات - باطلة فيما يتصل بالقرآن الكريم - وأذاعوا ذلك بين بعض من يستمع لهم، ويأخذ عنهم من أبناء المسلمين، فكان ما كان من هذه الدعوى التي نعرض لها أصلاً في هذا المبحث!

وصدق رسول الله ρ حيث قال كما عند البخاري عن أبي سعيد رضي الله عنه: لَتَتَّبِعَنَّ سَنَنَ مَنْ قَبْلَكُمْ شَبْرًا بِشَبْرٍ وَدِرَاعًا بِدِرَاعٍ حَتَّىٰ لَوْ سَلَكَوا جُحْرَ ضَبٍّ لَسَلَكْتُمُوهُ قُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى؟ قَالَ: فَمَنْ؟(1).

لكن هؤلاء جميعاً، قد فاتهم أن القرآن الكريم لا يقاس على ما عند اليهود والنصارى - الآن - مما يسمونه (التوراة) و (الإنجيل)؛ لأنه قد ثبت التحريف والتبديل فيما أوحى به إلى موسى وعيسى، عليهما السلام، كما قال تعالى عن بني إسرائيل ثم عن الذين قالوا إنا نصارى: (فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (13) وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى

(1) صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل، 169/4، ح 3456.

أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (14)) المائدة: [13-14]، ومن ثم عقب الله تعالى على ذلك، بأن وجه إليهم النداء: (يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ (15) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (16)) [المائدة: 15-16].

فقياس القرآن على ما عند اليهود والنصارى -فيما يتصل بهذا الاختلاف- غير صحيح، وأيضاً، فإنّ ما حاول أصحاب هذه الدعوى أن يقيموا عليه دعواهم بالنسبة للقرآن الكريم باطل بصورة مطلقة.

وبعد هذا كله، فإننا نقدم في السطور التالية الرد المفصل على ما حاول خلف الله، أن يقيم فيه تناقضات بين آيات من القرآن الكريم وحقائق التاريخ أو الكون، ليتبين لنا -إن شاء الله- أن أوهامه في هذا لا تقل عن أوهام غيره الذين يشاركونه في جوهر الدعوى.

1- أما ما يتصل بقوله تعالى عن المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام: (وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا) [آل عمران:46]، حيث يشير إلى ما رواه الرازي من أن اليهود والنصارى ينكرون أن عيسى تكلم في زمن الطفولة، ويحتجون بأن هذا لو حدث لكان من الوقائع العجيبة التي تتقل بالتواتر.

فالحق أن الرازي روى ذلك، ثم قال: "أجاب المتكلمون عن هذه الشبهة وقالوا: إن كلام عيسى عليه السلام في المهدي، إنما كان للدلالة على براءة حال مريم عليها السلام، من الفاحشة، وكان الحاضرون جمعاً قليلاً، فالسامعون لذلك الكلام كان جمعاً قليلاً، ولا يبعد في مثله التواطؤ على الإخفاء"⁽¹⁾.

وإذن فإن الرازي لم يترك هذه الشبهة دون رد، وبالتالي لم يكن من الذين يقولون بها على سبيل الإيمان أو الاقتناع.

أما فيما يتصل بالتواريخ البشرية، فما لا شك فيه أنها أهملت تسجيل كثير من الأحداث الفردية - مهما تكن أهميتها في ذاتها - حيث لم يتوافر لها من الشهادة الصادقة وتوفر سبل الإذاعة، والنقل، والبقاء على مرّ العصور ما يكفل لها ذلك.

وقد تلعب يد التحريف والتجهيل والتعمية ببعض جوانب واقعة صحيحة في أصلها، فإذا بها قد جمعت في نهاية الأمر بين الحق والباطل في قصة واحدة.

(1) مفاتيح الغيب، للرازي، 8/55-56.

هذا معروف مسجل عن (أوهام التواريخ وأخطائها)، فهي تهمل وتتسى وتحرف، وتخدع وتتوهم، وكل هذا يتضمنه ما يسمى بـ (التاريخ البشري)، بخاصة في عصور ما قبل التدوين المنظم، ذي الأساليب والإمكانات المنضبطة شيئا ما.

وإذ كان هذا ثابتا لا شك فيه، فهل يقبل منطق البحث العلمي النزيه، أن يتخذ إغفال التواريخ القديمة لحادثة فردية مثل كلام طفل في المهد دليلا قاطعا على كذب الوحي في إخباره بها؟ أما عدم وجود ذكر لهذه الواقعة فيما عند اليهود والنصارى من كتب مقدسة، فلا يقوم هو الآخر دليلا يطعن في صحة ما جاء به القرآن من ذلك؛ لأن فيما في هذه الكتب المقدسة عندهم ما ثبت قطعا أنه مخالف للحق، ونضيف إليه أن المعقول المتفق مع طبائع الأمور، ألا يرد في التوراة المحرفة عند اليهود شيء عن واقعة كلام عيسى عليه السلام في المهد.

أما ما عند النصارى من الأناجيل، فمن الثابت أنها لم تدون وقت ما سجلته من أحداث، بل بعد ذلك، وأيضا فمن المعلوم أن الأناجيل الأربعة التي أقرتها الكنيسة، قد تضمنت أمورا وعقائد، كذبهم فيها القرآن الكريم، وعليها تقوم الديانة النصرانية - بعد ما بدل دين المسيح الحقيقي - مثل تجسد الإله، وتثليث الآلهة، وصلب المسيح عليه السلام فداء للبشر.. وإذ كان الأمر كذلك، فما المانع عقلا أو عادة من أن تكون الأناجيل النصرانية المعتمدة، قد تناولت الوقائع المتصلة بالمسيح عليه السلام بالزيادة والحذف والتبديل والتحريف؟ بل إن هذا هو الذي حدث فعلا.

2- وأما ما يتصل بقوله تعالى: (وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ) [غافر: 36]، فخلف الله يشير إلى ما رواه الرازي من قول اليهود: أطبق الباحثون عن تواريخ بني إسرائيل وفرعون أن هامان ما كان موجودا البتة في زمان موسى وفرعون، وإنما جاء بعدهما بزمن مديد.

والحق أن الرازي نقل هذه الشبهة ثم قال: "والجواب: أن تواريخ موسى وفرعون قد طال العهد بها، واضطربت الأحوال والأدوار، فلم يبق على كلام أهل التاريخ اعتماد في هذا الباب، فكان الأخذ بقول الله أولى". ويقول الرازي: "وقد كان المعترض قال: إن هذا كما لو قال أحد: إن أبا حنيفة كان موجودا في زمان النبي P، ويرد الرازي بقوله: "بخلاف حال رسولنا مع أبي حنيفة، فإن هذه التواريخ قريبة غير مضطربة، هي مضبوطة، فظهر الفرق بين البابين"⁽¹⁾.

ونضيف إلى ذلك أنه قد ورد ذكر (هامان) في القرآن الكريم ست مرات، منها ثلاث في سورة القصص (الآيات 6، 8، 38)، وواحدة في سورة العنكبوت (الآية 39)، واثنان في سورة غافر (الآيتان 24، 36)، وكلها تدل على أنه كان من معاوني فرعون، الذي بعث موسى عليه السلام في عصره: (وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى

(1) مفاتيح الغيب، للرازي 66/27.

الطَّيْنِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أُطَّلِعَ إِلَى إِلِهِ مُوسَى وَإِنِّي لِأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ) [القصص:38] فماذا في ذلك كله يمكن أن يتخذ دليلا على مخالفة القرآن للتاريخ

إن طعن اليهود ومن وافقهم، لا يقوم في شيء كدليل أو ما يشبه الدليل؛ لأن بحوثا متعددة قد أثبتت أن فيما عندهم تخليطا وأخطاء، فإذا تحاكما إلى التاريخ العام، فإننا نعرف أن (فرعون موسى) - من بين فراغنة مصر - ليس معروفا للمؤرخين بصورة قطعية متفق عليها⁽¹⁾.

والقرآن الكريم لم يذكر اسمه، والأقوال في تحديده عند المؤرخين متعددة، تعتمد على بعض الشواهد من النصوص والآثار، لا على علم يقيني قاطع حاسم، لا محل معه لخلاف أو اجتهاد. وإذا كان الأمر كذلك، فإن تحديد وزرائه ومعاونيه بالاستقصاء والحصص، أمر لا يمكن أن يدعيه - على سبيل القطع - مؤرخ يحترم عقله وعقول الناس، وفي مثل هذه الظروف: هل يستطيع إنسان ما أن يكذب الوحي القرآني اعتمادا على أقوال ومزاعم متناثرة، ليس لها أي مستند يقيني، فيزعم أنه خالف التاريخ في هذا؟

3- أما فيما يتصل بما ذكره خلف الله من أن قوله تعالى: (يَأْخُذُ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَعِيًّا) [مريم: 28]، يهيئ للمستشرقين والمبشرين الطاعنين - إذا قسناه بمقياس الصدق التاريخي - أن يطعنوا في موافقة هذا للحقيقة التاريخية⁽²⁾ - فليس فيما ذكرته آيات القرآن الكريم مما يتصل بذلك أدنى مخالفة لأية حقيقة.

وقد بين المفسرون الإسلاميون المحققون ذلك في صورة جلية، لا تحتمل أدنى لبس، وفي مقدمة هؤلاء: الفخر الرازي، الذي أكثر خلف الله من الرجوع إليه.

إذ أن هذه الفرية تؤدي إلى القول بأن موسى كان خالا لعيسى عليهما السلام، وأنه لم يفرق بين رسالتهما إلا سنوات قليلة بحكم هذه الصلة المباشرة، لكن الذي يستعرض آيات القرآن الكريم يأخذ منها بغاية من الوضوح، أنه كان بينهما مئات السنين، وعدد من أنبياء بني إسرائيل، كما جاء في قوله تعالى: (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِّقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِّقًا تَفْتُلُونَ) [البقرة/ 87] وقوله تعالى: (إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتَخْفُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنَ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ (44) وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (45) وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى

(1) راجع مثلا: قصة الحضارة لول ديورانت 324/1.

(2) راجع تفصيل قول خلف الله وما استشهد به في هذه القضية فيما سبق من عرض (نظريته).

وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ (46) وَلِيُخَوِّفَ أَهْلَ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَخُفْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (47)). [المائدة: 44-47].

وقوله تعالى: (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النَّبُوَّةَ وَالكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (26) ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ) [الحديد: 26-27]، وليس في القرآن الكريم كله، ولا في سنة النبي ﷺ، ولا في شيء من معتقدات المسلمين، أن موسى كان خالا مباشرا لعيسى عليهما السلام، أو أن بينهما أقل من مئات السنين، وهذا في ذاته يكفي لإبطال هذا الطعن.

أما ما استند عليه أصحابه من مناداة مريم في القرآن الكريم بيا (أخت هارون) فليس فيه عند التحقيق ما يبزر هذا الطعن، وقد تناوله المفسرون بالشرح فقالوا: إن هذا النداء محمول على واحد من أربعة وجوه كلها مقبول معقول⁽¹⁾:

الأول: أن هارون هذا كان رجلا صالحا من بني إسرائيل، ينسب إليه كل من عرف بالصلاح، والمراد: أنك كنت في الزهد والتقوى كهارون - فكيف صرت هكذا؟

والثاني: أن هارون هذا هو أخو موسى عليه السلام، لما روى عن النبي ﷺ: إنما عنوا هارون النبي، وكانت من أعقابه. وإنما قيل: أخت هارون، كما يقال: يا أخا همدان، أي: يا واحدا منهم.

والثالث: أنه كان رجلا معلنا بالفسق فشبهت به.

والرابع: كان لها أخ يسمى هارون من صلحاء بني إسرائيل والكلام على حقيقته.

والرازي يختار القول الرابع⁽²⁾، ويبدو أنه لم تصح عنده رواية حديث النبي ﷺ في ذلك.

لكننا لا نختار القول الرابع، بل نرى أن النداء في (يا أخت هارون) قد جرى مجرى التعبير في آيات عديدة في القرآن الكريم بلفظ الأخوة، دون أن يكون المراد هو أخوة النسب الحقيقية،

(1) قال ابن حجر في (الكافي الشاف في تخريج أحاديث الكشاف، للزمخشري) في قول الزمخشري: إنما عنوا

هارون النبي ما نصه: لم أجد هكذا إلا عند الثعلبي بغير سند، ورواه الطبري عن السدي قوله وليس بصحيح. فإن عند مسلم والنسائي والترمذي عن المغيرة بن شعبة قال: بعثني النبي ﷺ إلى نجران فقالوا لي: أرايتم شيئا تقرؤون (يا أخت هارون) وبين موسى وعيسى ما شاء الله من السنين، فلم أدر ما أجيبهم؟ فقال لي النبي ﷺ: هلا أخبرتهم أنهم كانوا يسمون بأسماء أنبيائهم والصالحين من قبلهم. وروى الطبري من طريق ابن سيرين: نبئت أن كعبا قال: إن قوله تعالى (يا أخت هارون) ليس بهارون أخي موسى، فقالت عائشة: كذبت؟ فقال لها: يا أم المؤمنين، إن كان النبي ﷺ قال فهو أعلم، وإلا فأنا أجد بينهم ستمائة سنة - انتهى كلام ابن حجر. ينظر: تفسير ابن كثير 200/5، كشف المشكل لابن الجوزي 92/4، أضواء البيان 415/3، زاد المعاد 563/3، درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية 68/6، صحيح مسلم، كتاب الآداب، باب النهي عن التكني بأبي القاسم، 171/6، ح2135.

(2) ينظر: تفسيره 207/21-208.

خاصة، بل المراد هو الانتساب في الجملة إلى قوم أو جماعة ما، كما ورد في قوله تعالى: (**وَأَلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا**) [الأعراف: 65]، وقوله تعالى: (**وَأَلَىٰ تَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا**) (الأعراف: 73)، وقوله تعالى: (**فَمَنْ عَفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبِعْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ**) [البقرة: 178]، وقوله: (**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ**) [الحجرات: 10]، وقوله: (**كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا**) [الأعراف: 38].

فالحاصل من ذلك كله أن القرآن الكريم كثيرا ما يستخدم لفظ الأخوة، مريدا به مطلق الانتساب في الجملة بالنظر إلى أمر رابط، ويكون ذلك مفهوما من السياق بوضوح، دون أن يكون المقصود هو أخوة النسب⁽¹⁾ الخاصة، وقد كان هذا عند قوم مريم، مما نجد مثيلا له عند العرب في قولهم: يا أخا العرب، يا أخا قريش، يا أخا هذيل، يا أخا همدان.. فما العجيب إذن في أن يجري النداء في (يا أخت هارون) على هذا النحو المألوف؟ وكيف يجر إلى هذه الأباطيل التي يرددها المبشرون وأشياعهم؟

وإذا كان هذا قد غاب عن المستشرقين الذي يجهلون أساليب البيان العربية – أو الذين يلتحقون بسوء المقصد دائما – فكيف غاب عن مسلم، يزعم أنه من مدرسة التفسير البياني القرآنية، ويطيل الحديث عن الأساليب البلاغية في القرآن الكريم!؟

4- أما ما يذكره خلف الله حول قوله تعالى: (**حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ**

فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ) [الكهف: 86]، من قوله: "بان للعقل الإسلامي أن مسألة غروب الشمس في عين حمئة لا تستقيم وما يعرف من حقائق هذا الكون"؛ فما هو (العقل الإسلامي) الذي يتكلم عنه خلف الله؟

أغلب الظن أنه هو (العقل الإسلامي) الذي تحدث عنه الدكتور طه حسين في كتابه (مستقبل الثقافة في مصر) حين قال: إن الكاتب الفرنسي "بول فاليري" أراد يوما أن يشخص العقل الأوربي، فرده إلى عناصر ثلاثة: حضارة اليونان وما فيها من أدب وفلسفة وفن، وحضارة الرومان وما فيها من سياسة وفقه، والمسيحية وما فيها من دعوة إلى الخير وحث على الإحسان، فلو أردنا أن نحلل العقل الإسلامي في مصر وفي الشرق القريب، أفتراه ينحل إلى شيء آخر غير هذه العناصر التي انتهى إليها تحليل بول فاليري؟

وبعد أن يفصل القول في ذلك ينتهي إلى قوله: "وإذن فهما نبحت ومهما نستقصي، فلن نجد ما يحملنا على أن نقبل أن بين العقل الأوربي والعقل المصري فرقا جوهريا"⁽²⁾.

(1) التي أنت فيها آيات أخرى مثل آيات سورة النساء (12، 23، 176) في الميراث والنكاح. والسياق يحدد في غاية من الوضوح معنى (الأخوة) المقصود في كل آية.

(2) مستقبل الثقافة في مصر، لطه حسين ص 29-30.

لكن هذا (العقل الإسلامي) الذي يتحدث الرجلان عنه ليس هو - على سبيل القطع - ما نعرفه ونعايشه من عقل إسلامي مرتكز على ما جاء به (القرآن الكريم) و (السنة الصحيحة) ولم يثبت له إطلاقاً أن في شيء منهما ما يخالف حقائق الكون أو التاريخ.

وفيما يتصل بالآية التي ذكرها خلف الله، فإن التعبير القرآني بالغ الدقة والصدق في تصوير ما يعبر عنه، بحيث لو تغير هذا التعبير - فرضاً - لما كان مطابقاً لحقيقة ما يعبر عنه.

وواضح غاية الوضوح من النص القرآني، أنه يعبر هنا عما وجده وظهر لذي القرنين - المحدود المعرفة بنطاق البشرية عندئذ - ألا نراه يقول: (حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ) [الكهف: ٨٦] أي وجد عند هذه العين الحمئة، التي ظهرت له الشمس غاربة فيها - قوماً، حيث يعود الضمير في (عندها) إلى أقرب مذكور وهو العين الحمئة.

فالتعبير القرآني المحكم المعجز يقول (وجدها تغرب)، ولم يقل إنها تغرب، حتى يكون هذا تعبيراً عن الحقيقة الكونية المطلقة. ومما يقطع - فيما أرى - بإعجاز القرآن الكريم وصدقه المطلق، أن الله تعالى عقب على ما (وجده) ذو القرنين في جهة مغرب الشمس ومطلعها بقوله تعالى: (كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا) [الكهف: ٩١] أي - والله تعالى أعلم - كذلك ظهرت له الأمور حسب علمه البشري القاصر، الذي لا إحاطة فيه بحقائق الأمور وكنهها في ذاتها، وقد أحطنا نحن علماً بكل ما وجده ذو القرنين وظهر له؛ لأن علمنا هو العلم الشامل المحيط بكل شيء بإطلاق.

أما محاولة خلف الله أن يخلط بين (ما حكاه القرآن عن أقوال البشر وتصوراتهم في مواقف معينة) و (ما هو من تقرير الله تعالى لحقائق مطلقة)، فيقول إن (كل) ما ورد في القرآن من قصص - محمول على النوع الأول وحده - فهو ما ترفضه النصوص القرآنية في غاية من الوضوح.

ونضيف إليه أيضاً، أن من يراجع صيغة (وجد) في القرآن الكريم، حين تنسب إلى البشر فسيدرك ما قررناه في جلاء، ولن نذهب بعيداً، بل إننا لن نجاوز سورة الكهف نفسها مثار اعتراض خلف الله على النص السابق.. فانظر إلى قوله تعالى فيها عن أحد الرجلين صاحب الجنتين الذي دخل جنته وهو ظالم لنفسه قال: (قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا (35) وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا (36)) [الكهف: 35-36]، فهل قوله (لأجدن) حكاية عن الحقيقة المطلقة، أم تعبير عن أفكاره وأمانيه الباطلة هو؟.

وانظر أيضاً إلى قوله تعالى في نفس السورة، حكاية عن قول موسى حينما لقي الخضر (عليهما السلام) فقال له الخضر: إنك لن تستطيع معي صبراً، فقال موسى مصوراً لما يعتقده في حال

صحبتة مع الخضر: (قَالَ سَتَجِدُنِي إِِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا) [الكهف: 69]، فهل هذا القول تعبير عن عقيدة موسى، فيما يكون من أمر مستقبل الصحبة- ولا يعلم الغيب المستقبل إلا الله- أم هو تعبير عن حقيقة المستقبل المطلقة، كما ظهرت بعد ذلك من تطور أمر الصحبة؟ إنَّ الجواب الواضح في الآيات التالية لقول موسى عليه السلام (ستجدني).. هذا هو الشأن إذن بقوله تعالى حكاية عما وجده ذو القرنين عند مغرب الشمس ومطلعها، فأين عدم الاستقامة المزعومة من خلف الله في ذلك كله⁽¹⁾.

5- ومثل هذا تماما ما يذكره خلف الله من أنه "بان العقل الإسلامي أنه لا يستطيع أن يتصور مساعدة الملائكة للمسلمين في غزوتي بدر وأحد. اللهم إلا أن يكون حديث القرآن عن ذلك حديث من يأخذ الناس بعقائدهم، تقوية للروح المعنوية وبثا للأمل القوي بالانتصار السريع في النفوس⁽²⁾.

و(العقل الإسلامي) حقا لم يبين له شيء من ذلك إطلاقا؛ لأنه يؤمن بالله وكلماته على أنها الحق الذي لا باطل فيه، وقد قرئت هذه الآيات، التي يشير إليها خلف الله على جمع المؤمنين الذين شهدوا الغزوتين، فما زادتهم إلا إيمانا و يقينا في صدق ما أخبر به ربهم، وصدق الله تعالى: (وَنَزَّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا) [الإسراء: 82].

فتثبيت الملائكة - بإذن الله - للمسلمين ثابت بالنص البين في القرآن الكريم في قوله تعالى: (إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَتُنَبِّئُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأَلْتِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَأَصْرَبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَأَصْرَبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ) [الأنفال: 12]، وقوله تعالى: (إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلاَفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ (124) بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا يُغْدِذْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلاَفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ (125) وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ) [آل عمران: 124-126].

ولست أدري ما هو المستند العقلي أو العلمي في تكذيب خبر متصل بالملائكة، وهم في تفصيلات أمورهم من عالم الغيب؟ وهل يعجز العقل الإسلامي المصدق بالوحي حقا عن تصور تثبيت الملائكة للمسلمين، أو تصديق ذلك؟

(1) مفاتيح الغيب، للرازي، 166/21-167، ويرفض الرازي في تعليق علمي سليم ما يقال من أن ما رآه ذو القرنين كان هو الحقيقة الكونية، معلا رفضه باختلاف موضع الشمس بحسب المواضع على الأرض، وكما يفسر بقية الآيات في وضوح وإحكام عام (ص168) وإذن فإن ما يذكره خلف الله عن حيرة (العقل الإسلامي) في ذلك لا يتفق مع ما عند المفسرين المحققين.

(2) الفن القصصي، لخلف الله، ص37.

اعتقد أن (العقل المادي) هو الذي يعجزه التصديق بغير المحسوس الملموس، أما العقل (الإسلامي) المصدق بكل ما أخبر الله به من غيب؛ لأنه يؤمن بصدق القرآن الكريم في جملته وتفصيله - فإنه يؤمن بالملائكة والجن والبعث وسائر الغيبات؛ لأنه - كما وصفه ربه تعالى - (يؤمن بالغيب).

إن القصص القرآني كلام الله عز وجل، بالحق نزل، وليس في شيء منه إلا الحق المطلق، وافق ما عند الناس من أهل الكتاب أو العرب، أو خالفهم؛ لأنه لا يقاس صدق شيء منه على ما عندهم أو عند غيرهم من علم بشري قاصر، يدخله الخطأ والوهم، حسبما سبق.

المبحث السادس: ما يستفاد من دراسة القصص القرآني :

إن للقصص القرآني منهجا تربويا متكاملا ومتناسقا مع منهج القرآن ؛ ذلك أن القرآن بقصصه ومواعظه وتوجيهاته وحدة متناسقة.

كما أن القرآن يستخدم قصصه لجميع أنواع التربية والتوجيه التي يشملها منهجه التربوي ، مثل: تربية الروح والعقل والجسد، والتربية بالقُدوة، وبالموعظة، كما أن القصص القرآني يربي الإنسان، تربية خلقية واجتماعية وجمالية .

ولقد جاء القرآن بقصص تربوية ذات أثر في علاقات الإنسان الخلقية والوجدانية ؛ ذلك مع جمال الأسلوب وبلاغة المعنى .

والقصة القرآنية وسيلة مهمة للتعليم والإرشاد والتشريع، ولها دور فاعل في بناء الفرد والمجتمع. ومن خلال القصص القرآني يمكن تثبيت الأخلاق ، وذلك بغرس القيم وإرساء دعائم الإسلام . والدارس للقصص القرآني يدرك الدور الفاعل الذي وظفته القصة في تربية العقيدة وتثبيتها؛ إذ ليس الغاية من التربية سوى العواطف الصالحة، ولا تصبح العواطف أساسا للخلق الكريم، إلا إذا تحولت إلى اتجاهات يكون ينبوعها الدائم هو العقيدة، وهكذا تتعمق العقيدة والأخلاق والقيم الإسلامية في النفوس، في الوقت الذي تتطهر فيه النفوس من المعتقدات والأخلاق والقيم الجاهلية الفاسدة، وذلك من خلال القصص القرآني .

وإذا كان الهدف الأسمى من التربية الإسلامية هو تكوين الإنسان المتكامل الشخصية ، فإن القصص القرآني يهدف إلى إثبات وحدة الإله، ووحدة وسائل الدعوة وطرقها ووحدة أساليب التربية والتعلم، ووحدة المصير .

أسئلة للمناقشة:

- ما معنى القصص؟
- ما أنواع القصص في القرآن الكريم؟
- وضح أهداف قصص الأنبياء.
- بين فوائد القصص القرآني.
- ما الحكمة من تكرار القصص في القرآن؟
- هل القصة القرآنية حقيقة أم خيال..؟

الفصل التاسع: المثل في القرآن الكريم⁽¹⁾.

في عرضنا لمثل القرآن، وقسمه، وجدله، سنحرص على الإيجاز في هذا التناول بالقدر الذي يسمح بإعطاء ملامح الصورة العامة لكل منها⁽²⁾.

المثل:

ورد في كتاب الله العزيز - في أكثر من آية - أنه سبحانه وتعالى يضرب الأمثال، في مثل قوله تعالى: (وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) [الحشر: 21] وقوله تعالى: (وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ) [العنكبوت: 43] ، وقوله: (وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ) [الزمر: 27].

قال الماوردي: من أعظم علم القرآن علم أمثاله، والناس في غفلة عنه؛ لاشتغالهم بالأمثال وإغفالهم الممثلات، والمثل بلا ممثل كالفرس بلا لجام والناقة بلا زمام.

وقد عده الإمام الشافعي مما يجب على المجتهد معرفته من علوم القرآن فقال: ثم معرفة ما ضرب فيه من الأمثال الدوال على طاعته، المثبتة لاجتناب معصيته⁽³⁾.

وقال الشيخ عز الدين: إنما ضرب الله الأمثال في القرآن تذكيراً ووعظاً، فما اشتمل منها على تفاوت ثواب أو على إحباط عمل أو على مدح أو ذم أو نحوه فإنه يدل على الأحكام⁽⁴⁾. وكما عنى العلماء بأمثال القرآن، فإنهم عنوا كذلك بالأمثال النبوية. وعقد لها أبو عيسى الترمذي باباً في جامعه، أورد فيه ستة عشر حديثاً⁽⁵⁾.

المبحث الأول: تعريف المثل:

الأمثال: جمع مثل، والمثل والمثيل، كالتشبه والتشبيه لفظاً ومعنى، وسمى "المثل"؛ لأنه مائل بخاطر الإنسان، أي: شاخص يتأسى به ويتعظ، ويخشى ويرجى⁽¹⁾.

(1) لقد تناول الأمثال، وكتب فيها جهاذة الأدباء والحكماء والبلاغيين والمفسرين، مثل: الأصمعي وأبي عبيد، القاسم بن سلام، والمفضل الضبي، والزركشي في البرهان، والسيوطي في الإتيان، والزرقاني في مناهل العرفان، .

(2) ينظر دراسات في علوم القرآن: د. عبد الخالق محمود، ص75-115، الإتيان، للسيوطي، 167/2.

(3) الإتيان، للسيوطي، 131/2.

(4) المصدر السابق. وتنتظر الآيات 17-20، من سورة البقرة.

(5) سنن الترمذي، أبواب عن رسول الله ﷺ، 539/4، وينظر: الإتيان، للسيوطي، 131/2. وقال القاضي أبو بكر بن العربي -رحمه الله تبارك وتعالى- مشيداً بفعل الترمذي هذا، فقال: "لم أرَ من أهل الحديث من صنّف فأفردَ للأمثال باباً غير أبي عيسى، والله ذرّه، لقد فتح باباً، وبنى قصرًا أو دارًا، ولكنه اختطَّ خطأً صغيرًا فنحن نفتح به، ونشكره عليه".

ويطلق المثل على الحال والقصة العجيبة الشأن، وبهذا المعنى فسر لفظ المثل في كثير من الآيات، كقوله تعالى: (مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ) [محمد: 15][2]، أي: قصتها وصفتها التي يتعجب منها.

وأشار الزمخشري إلى هذه المعاني الثلاثة في كشافه فقال: "والمثل في أصل كلامهم بمعنى المثل والنظير، ثم قيل للقول السائر الممثل مضروبه بمورده، ولم يضربوا مثلاً، ولا رأوه أهلاً للتسيير، ولا جديراً بالتداول والقبول، إلا قولاً فيه غرابة من بعض الوجوه - ثم قال: وقد استعير المثل للحال أو الصفة أو القصة إذا كان لها شأن وفيها غرابة³.

وهناك معنى رابع، ذهب إليه علماء البيان في تعريف المثل، فهو عندهم: المجاز المركب الذي تكون علاقته المشابهة، متى فشي استعماله، وأصله الاستعارة التمثيلية. كقولك للمتروك في فعل أمر: "ما لي أراك تقدم رجلاً وتؤخر أخرى" (4).

وقيل في ضابط المثل كذلك: إنه إبراز المعنى في صورة حسية تكسيه روعة وجمالاً، والمثل بهذا المعنى لا يشترط أن يكون له مورداً، كما لا يشترط أن يكون مجازاً مركباً. وإذا نظرنا إلى أمثال القرآن التي يذكرها المؤلفون، وجدنا أنهم يوردون الآيات المشتملة على تمثيل حال أمر بحال أمر آخر، سواء أورد هذا التمثيل بطريق الاستعارة أم بطريق التشبيه الصريح، أو الآيات الدالة على معنى رائع بإيجاز، أو التي يصح استعمالها فيما يشبه ما وردت فيه، فإن الله تعالى ابتدأها دون أن يكون لها مورد من قبل.

فأمثال القرآن لا يستقيم حملها على أصل المعنى اللغوي الذي هو التشبيه والنظير، ولا يستقيم حملها على ما يذكر في كتب اللغة لدى من ألفوا في الأمثال؛ إذ ليست أمثال القرآن أقوالاً استعملت على وجه تشبيه مضربها بموردها، ولا يستقيم حملها على معنى الأمثال عند علماء البيان، فمن أمثال القرآن ما ليس باستعارة، وما لم يفش استعماله. ولذا كان الضابط الأخير أليق بتعريف المثل في القرآن. فهو إبراز المعنى في صورة رائعة موجزة لها وقعها في النفس، سواء كانت تشبيهاً أو قولاً مرسلاً⁽¹⁾.

(1) الإبتقان، للسيوطي، 167/2، 168، مقدمة تفسير ابن النقيب في علم البيان ص138، وينظر: الأمثال في

القرآن الكريم، د. محمد جابر الفياض، ص27.

(2) ينظر: جامع البيان للطبري، 84/14.

3- ينظر: الكشاف، للزمخشري، 149/1.

(4) ينظر: نقد النثر لقدماء بن جعفر، 73، أسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجاني، ص82.

المبحث الثاني: أنواع الأمثال في القرآن:

فرّق الباحثون بين الأمثال القرآنية، وفقا لظهور المثل وكمونه، وطوله وقصره، وقيامه على التشبيه والتمثيل، وعدم قيامه عليهما، إلى غير ذلك من الاعتبارات.

الأمثال في القرآن ثلاثة أنواع:

الأول: مثل ظاهر، مصرح به.

الثاني: مثل كامن⁽²⁾.

الثالث: الأمثال المرسلة (جارية مجرى المثل).

المطلب الأول: النوع الأول: الأمثال المصرحة:

وهي ما صرح فيها بلفظ المثل، أو ما يدل على التشبيه، وهي كثيرة في القرآن الكريم، منها: قوله تعالى في حق المنافقين: (مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ (17) صُمُّ بُكْمٌ عُمِيٌّ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ (18) أَوْ كَصَيْبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ (19) يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) [البقرة: 17-20]⁽³⁾.

ففي هذه الآيات ضرب الله للمنافقين مثلين: مثلا بالنار في قوله "كمثل الذي استوقد نارا...". لما في النار من مادة النور، ومثلا بالمطر في قوله: (أو كصيب من السماء) لما في الماء من مادة الحياة، وقد نزل الوحي من السماء متضمنا لاستنارة القلوب وحياتها. وذكر الله حظ المنافقين في الحالين، فهم بمنزلة من استوقد نارا للإضاءة والنفع؛ حيث انتفعوا ماديا بالدخول في الإسلام،

(1) وكان الشيخ محمود شلتوت، يرى أن الأمثال المضروبة في القرآن الكريم لمجرد التمثيل المطلق، يجوز للمؤمن أن يعتقد أنها تقريب من الله وتمثيل، لكنه كان يرى أن القصص القرآني من صميم الواقع لا شك في ذلك، وقد نقد رأيه في الأمثال القرآنية نقدا شديدا.

والذي نؤمن به أن المثقف الراقي المتدين ينبغي أن يؤمن في غاية من اليقين، أن كل ما ورد في (القرآن الكريم) بإطلاق، حق لا مرية فيه ولا شك ولا تأويل؛ لأنه ببساطة - ليس إلا كلمات الله تعالى، العالم بكل شيء، القادر على كل شيء فأمثاله كلها حق؛ لأن كل مثال ضرب منها لا بد أن يكون قد حدث؛ لأنه يروى أمرا لا استحالة في حدوثه عقلا أو عادة أو تاريخا، فما مبرر القول إذن بالتقريب والتمثيل، والكلمات لله تعالى!. ينظر: مدخل للدراسات الإسلامية د. محمد بلتاجي ص 295-296، رسالة الإسلام التي تصدرها دار التقريب بالقاهرة، العدد الثالث، من السنة السابعة ص 233.

(2) ينظر: البرهان في علوم القرآن، للزركشي، 1/486، الإيتقان، للسيوطي، 2/132، جواهر الأدب لهاشمي، 1/288.

(3) ينظر: البرهان في علوم القرآن، للزركشي، والإيتقان، للسيوطي، الموضوع السابق.

ولكن لم يكن له أثر نوري في قلوبهم، فذهب الله بما في النار من الإضاءة "ذهب الله بنورهم" وأبقى ما فيها من الإحراق.

وذكر مثلهم المائي، فشبههم بحال من أصابهم مطر، فيه ظلمة ورعد وبرق، فخارت قواه ووضع أصبعيه في أذنيه وأغمض عينيه خوفا من صاعقة تصيبه؛ لأن القرآن بزواجه وأوامره ونواهيه وخطابه نزل عليهم نزول الصواعق.

قال ابن عباس فيما رواه عنه ابن أبي حاتم: "هذا مثل ضربه الله للمنافقين، كانوا يعتزون بالإسلام فيناكحهم المسلمون ويوارثونهم ويقاسمونهم الفئ، فلما ماتوا، سلبهم الله العز، كما سلب صاحب النار ضوءه "وتركهم في ظلمات"، يقول: في عذاب، أو كصيب، هو المطر، ضرب مثله في القرآن "فيه ظلمات" يقول ابتلاء "ورعد وبرق" تخويفا "يكاد البرق يخطف أبصارهم" يقول: يكاد محكم القرآن يدل على عورات المنافقين "كلما أضاء لهم مشوا فيه" يقول: كلما أصاب المنافقون في الإسلام عزا واطمأنوا، فإن أصاب الإسلام نكبة، قاموا فأبوا ليرجعوا إلى الكفر كقوله ﷻ ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ﴾ [الحج: 11] (1).

وذكر الله المثلين المائي والناري - في سورة الرعد للحق والباطل، فقال تعالى: (أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حُلِيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهٗ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ) [الرعد: 17] (2).

شبه الوحي الذي أنزله من السماء لحياة القلوب بالماء، الذي أنزله لحياة الأرض بالنبات، وشبه القلوب بالأودية، والسيول إذا جري في الأودية، احتمل زبدا وغثاء. فكذلك الهدى والعلم، إذا سرى في القلوب أثار ما فيها من الشهوات، ليذهب بها، وهذا هو المثل المائي في قوله: "أنزل من السماء ماء...". وهكذا يضرب الله الحق والباطل. وذكر المثل الناري في قوله: "ومما يوقدون عليه في النار...". فالمعادن من ذهب أو فضة أو نحاس أو حديد، عند سكبها تخرج النار ما فيها من الخبث وتفصله عن الجوهر، الذي ينتفع به فيذهب جفاء. فكذلك الشهوات يطرحها قلب المؤمن ويجفوها كما يطرح السيل والنار ذلك الزبد وهذا الخبث.

قال ابن عباس: هذا مثل ضربه الله، احتملت منه القلوب على قدر يقينها وشكلها، فأما الزبد فيذهب جفاء - وهو الشك - وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض - وهو اليقين، كما يجعل الحلى في النار، فيؤخذ خالصه ويترك خبثه في النار، كذلك يقبل الله اليقين ويترك الشك. وقال عطاء: هذا مثل ضربه الله للمؤمن والكافر.

(1) ينظر: فتح القدير، للشوكاني 5/1.

(2) ينظر: إعلام الموقعين عن رب العالمين، لابن القيم 118/1.

وعن قتادة: هذه ثلاثة أمثال، ضربها الله في مثل واحد، يقول: كما اضمحل هذا الزبد فصار جفاء لا ينتفع به ولا ترجى بركته، كذلك يضمحل الباطل عن أهله، وكما مكث هذا الماء في الأرض، فأمرعت وربت بركته وأخرجت نباتها. وكذلك الذهب والفضة حين أدخل في النار، فأذهب خبثه، كذلك يبقى الحق لأهله، وكما اضمحل خبث هذا الذهب والفضة حين أدخل في النار، كذلك يضمحل الباطل عن أهله⁽¹⁾.

المطلب الثاني: النوع الثاني: الأمثال الكامنة:

وهي التي لم يصرح فيها بلفظ التمثيل، ولكنها تدل على معان رائعة في إيجاز، يكون لها وقعها إذا نقلت إلى ما يشبهها، ويمثلون لهذا النوع بأمثلة منها:
1- ما في معنى قولهم: "خير الأمور أوساطها".

أ. قوله تعالى في البقرة: (لَا فَارِضٌ وَلَا بَكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ) [البقرة: 68].

ب. قوله تعالى في النفقة: (وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا) [الفرقان: 67].

ت. قوله تعالى في الصلاة: (وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتُ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا) [الإسراء: 110].

ث. قوله تعالى في الإنفاق: (وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ) [الإسراء: 29].

2- ما في معنى قولهم: "ليس الخبر كالمعينة".

قوله تعالى في إبراهيم عليه السلام: (قَالَ أَوْلَمْ تُؤْمِنُ قَالَ بَلَىٰ وَلَكِنَّ لِيْطْمَئِنَّ قَلْبِي) [البقرة: 260].

3- ما في معنى قولهم: "كما تدين تدان"

قوله تعالى: (مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ) [سورة النساء: 123].

4- ما في معنى قولهم: "لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين".

قوله تعالى على لسان يعقوب: (قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ) [يوسف: 64]⁽²⁾.

(1) الإتيان، للسيوطي، 168/2.

(2) ما ذكر من الأمثلة الكامنة ذكرها الزركشي في البرهان 486/1، وهناك كتاب في الأمثلة الكامنة غير مطبوع، ألفه الحسن بن الفضل " الأمثلة القرآنية الكامنة " أشار إليه د. محمد جابر فياض، ص204، وحزم باستفادة الزركشي منه في الأمثلة الكامنة، وينظر: التمثيل والمحاضرة للثعالبي، ص16.

وقد ذكر السيوطي في الإتيان عن الماوردي قال: سمعت أبا إسحاق إبراهيم بن مضارب بن إبراهيم يقول: سمعت أبي يقول: سألت الحسن بن الفضل فقلت: إنك تخرج أمثال العرب والعجم من القرآن، فهل تجد في كتاب الله: ... وذكر مجموعة من الأمثلة وما يقابلها من آيات قرآنية ومنها: من جهل شيئاً عاداه، احذر شر من أحسنت إليه، في الحركات البركات، لا تلد الحية إلا حبيبه، للحيطان آذان، وغير ذلك من الأمثلة⁽¹⁾.

المطلب الثالث: النوع الثالث: الأمثال المرسلة في القرآن الكريم⁽²⁾.

وهي جمل أرسلت إرسالاً من غير تصريح بلفظ التشبيه، فهي آيات جارية مجرى الأمثال. وسميت "المثل السائر". ومعنى السائر: أنه كثر استعماله، ويقال أيضاً: "تشبيه سائر"⁽³⁾. ومن أمثلة ذلك ما يأتي:

﴿.....﴾ [يوسف: 51]، (.....)
 ﴿.....﴾ [النجم: 58]، (.....)
 ﴿.....﴾ [يوسف: 41]، ﴿.....﴾ [الأنعام: 67]،
 ﴿.....﴾ [هود: 81]، ﴿.....﴾ [الأنعام: 67]،
 ﴿.....﴾ [فاطر: 43]، (.....)
 ﴿.....﴾ [الروم: 41]، (.....)
 (البقرة: 286)، ﴿.....﴾ [المدثر: 14]، (.....)
 ﴿.....﴾ [المائدة: 99]، (.....)
 ﴿.....﴾ [الرحمن: 60]، إلى غير ذلك من الآيات وهي كثيرة جداً في سور القرآن الكريم.

(1) الإتيان، للسيوطي، 168/2، 169، البرهان في علوم القرآن، للزركشي، 490/1-495.
 (2) نكر التعالبي في التمثيل والمحاضرة، ص18-19، اثني عشر لفظاً من القرآن، رأى أنها جارية مجرى المثل السائر.
 (3) ينظر: مقدمة تفسير ابن النقيب في البيان ص135، نهاية الإيجاز، للرازي ص230، وقد أفرد ابن رشيق باباً مستقلاً للحديث عن المثل السائر مفصلاً عن التشبيه والتمثيل. العمدة، لابن رشيق 280/1-286.

واختلفوا في هذا النوع من الآيات الذي يسمونه إرسال المثل، ما حكم استعماله استعمال الأمثال؟

فراه بعض أهل العلم خروجاً عن أدب القرآن، قال الرازي في تفسير قوله تعالى: "لكم دينكم ولي دين" جرت عادة الناس بأن يتمثلوا بهذه الآية عند التاركة، وذلك غير جائز؛ لأنه تعالى ما أنزل القرآن ليتمثل به، بل ليتدبر فيه، ثم يعمل بموجبه.

ورأى آخرون أنه لا حرج فيما يظهر أن يتمثل الرجل بالقرآن في مقام الجد، كأن يأسف أسفاً شديداً لنزول كارثة قد تقطعت أسباب كشفها عن الناس فيقول: "ليس لها من دون الله كاشفة"، أو يحاوره صاحب مذهب فاسد، يحاول استهواؤه إلى باطله فيقول: "لكم دينكم ولي دين"، والإثم الكبير في أن يقصد الرجل إلى التظاهر بالبراعة، فيتمثل بالقرآن حتى في مقام الهزل والمزاح⁽¹⁾.

المبحث الثالث: ما يتمثل به من قصص الأنبياء.

يضرب المثل بسفينة نوح، ونار إبراهيم، وذئب يوسف، وحوت يونس، وعصا موسى، وخاتم سليمان، وناقاة صالح، وجمار عزيز.

قيل للحسن بن يسار البصري رحمه الله: أيكذب المؤمن للمؤمن؟ فقال: أنسيتم إخوة يوسف؟ وكان يقال: لا يغرنكم البكاء، فإن أخوة يوسف جاءوا أباهم عشاء يبكون. ومن قصة موسى قولهم: الفرار مما لا يطاق من سنن المرسلين. يريدون قوله عز: (فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ) [الشعراء: 21].

ويقال: بيت فلان أفرغ من فؤاد أم موسى.

ويقول من ينبه على براءة ساحته: إني لم أعقر ناقاة صالح.

ويقال: فقر كفقير الأنبياء؛ لأن فقراءهم أكثر من أغنيائهم.

ويقال: فلان خليفة الخضر، إذا كان يديم السفر ويكثر المسير⁽²⁾.

(1) ينظر: البرهان للزركشي 486/1، الانتقان للسيوطي، 132/2، جواهر الأدب للهاشمي، 288/1.

(2) ينظر: التمثيل والمحاضرة للثعالبي 19-21، وقد اعتبرها البعض من الأمثال المستوحاة من قصص القرآن وآياته ينظر: الأمثال في القرآن الكريم وأثرها، ص 171، محمود بن شريف .

المبحث الرابع : أغراض الأمثال:(1).

- 1- الأمثال تبرز المعقول في صورة المحسوس، الذي يلمسه الناس، فيقبله العقل؛ لأن المعاني المعقولة لا تستقر في الذهن إلا إذا صيغت في صورة حسية، قريبة الفهم، كما ضرب الله مثلا لحال المنفق رياء، حيث لا يحصل من إنفاقه على شيء من الثواب، فقال تعالى: (فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ) [البقرة: 264].
- 2- وتكشف الأمثال عن الحقائق، وتعرض الغائب في معرض الحاضر، كقوله تعالى: (الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ) [البقرة: 275].
- 3- وتجمع الأمثال المعنى الرائع في عبارة موجزة؛ كالأمثال الكامنة والأمثال المرسله في الآيات السابقة الذكر.
- 4- ويضرب المثل للترغيب في الممثل؛ حيث يكون الممثل به مما ترغب فيه النفوس، كقوله تعالى: (مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) [البقرة: 261].
- 5- ويضرب المثل للتنفير؛ حيث يكون الممثل به مما تكرهه النفوس، كقوله تعالى في النهي عن الغيبة: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْنَاهُمْ) [الحجرات: 12].
- 6- ويضرب المثل لمدح الممثل كقوله تعالى في الصحابة: (ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ) [الفتح: 29]. وكذلك حال الصحابة، فإنهم كانوا في بدء الأمر قليلا، ثم أخذوا في النمو حتى استحك أمرهم، وامتلات القلوب إعجابا بعظمتهم.
- 7- ويضرب المثل حيث يكون للمثل به صفة يستقبحها الناس: كما ضرب الله مثلا لحال من آتاه الله كتابه، فتنكب الطريق عن العمل به وانحدر في الدنيا منغمسا. قال تعالى: (وَأْتَلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (175) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَتْرَكُهُ يَلْهَثُ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا) [الأعراف: 175 - 176].
- 8- والأمثال أوقع في النفس، وأبلغ في الوعظ، وأقوى في الزجر، وأقوم في الإقناع، وقد أكثر الله سبحانه وتعالى الأمثال في القرآن الكريم للتذكرة والعبرة، قال تعالى: (وَلَقَدْ صَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي

(1) ينظر: الإقناع للسيوطي، 131/2، البرهان في علوم القرآن للزركشي، 486/1-487.

هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ) [الزمر: 27]. قال تعالى: (وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ) [العنكبوت: 43]. وضربها النبي ﷺ في حديثه (1). ويكره العلماء ضرب الأمثال بالقرآن، ففي كتاب "فضائل القرآن لأبي عبيد النخعي" قال: كانوا يكرهون أن يتلو الآية عند شيء يعرض من أمور الدنيا. قال أبو عبيد: وكذلك الرجل يريد لقاء صاحبه أو يهم بحاجته، فيأتيه من غير طلب، فيقول كالمأزح: (تَمَّ جِنْتٌ عَلَى قَدَرٍ يَامُوسَى) [سورة طه: آية 40] (2)، فهذا من الاستخفاف بالقرآن، ومنه قول ابن شهاب الزهري: لا تناظر بكتاب الله ولا بسنة رسوله ﷺ. قال أبو عبيد: يقول: لا تجعل لها نظيرا من القول ولا من الفعل.

المبحث الخامس : الدور التربوي للأمثال:

تلعب الأمثال دورًا مهمًا في العملية التربوية، فهي من أحد الأساليب المهمة فيها، بما تمتلكه من قدرة مؤثرة في النفوس البشرية، فهي تكشف الحقائق وتوضح المعاني وتصورها في قوالب فنية محسوسة، كما تؤثر في سلوك الفرد وتفكيره، وتوجه الانفعالات والعواطف، وتغرس في النفوس المبادئ والأخلاق السامية، وتحرك نوازع الخير لدى الإنسان، وتربيته عقليًا، وأخلاقيًا، وسلوكيًا، واجتماعيًا؛ فهي أبلغ في الوعظ، وأوقع في النفس، وتسهم في الوصول إلى النتائج المطلوبة عن طريق تغيير السلوك وتوجيهه الوجهة الصحيحة. وضرب الأمثال طريقة تربوية ناجعة تؤثر تأثيرًا عميقًا في العملية الإصلاحية. وقد نبه كثير من العلماء إلى أهمية الأمثال، وفيما يلي بيان من أقوالهم:

يقول العلامة أبو السعود: "التمثيلُ أَلْفُ ذُرَيْعَةٍ إِلَى تَسْخِيرِ الْوَهْمِ لِلْعَقْلِ وَاسْتِنزَالِهِ مِنْ مَقَامِ الْاِسْتِعْصَاءِ عَلَيْهِ، وَأَقْوَى وَسِيلَةٍ إِلَى تَفْهِيمِ الْجَاهِلِ الْغَيْبِيِّ، وَقَمْعِ ثَوْرَةِ الْجَامِحِ الْآبِيِّ، كَيْفَ لَا! وَهُوَ رَفْعُ الْحِجَابِ عَنِ وُجُوهِ الْمَعْقُولَاتِ الْخَفِيَّةِ، وَإِبْرَازُ لَهَا فِي مَعْرَضِ الْمَحْسُوسَاتِ الْجَلِيَّةِ، وَإِبْدَاءٌ لِلْمُنْكَرِ فِي صُورَةِ الْمَعْرُوفِ، وَإِظْهَارٌ لِلْوَحْشِيِّ فِي هَيْئَةِ الْمَأْلُوفِ" (3).

(1) من ذلك قوله ﷺ: "الأعمال بالنيات" "إن من الشعر لحكمة" "لا ضرر ولا ضرار" "أنزلوا الناس منازلهم" "مظل الغني ظلم" "من غشنا فليس منا" "تخبروا لنظفكم فإن العرق دساس" "كل ميسر لما خلق له" "انصر أخاك ظالما أو مظلوما" "الأعمال بخواتيمها" "المرء على دين خليله" "دع ما يريبك إلى ما لا يريبك" "المجالس بالأمانة" إلى غير ذلك.

(2) ينظر: البرهان، للزركشي، 486/1، الإتيان، للسيوطي، 45/4.

(3) تفسير أبي السعود، 50/1.

ويقول العلامة الزمخشري: "التمثيل إنما يصار إليه لكشف المعاني وإدناء المتوهم من المشاهد، فإن كان المتمثل له عظيمًا، كان المتمثل به مثله، وإن كان صغيرًا كان المتمثل به كذلك" (1).

وقال العلامة الأصبهاني: لضرب العرب الأمثال واستحضار العلماء المثل والنظائر شيء ليس بالخفي في إبراز خفيات الدقائق ورفع الأستار عن الحقائق تريك به المتخيل في صورة المتحقق والمتوهم في معرض المتيقن والغائب كأنه مشاهد، وفي ضرب الأمثال تبكيت للخصم الشديد الخصومة، وقمع لسورة الجامح الأبى فإنه يؤثر في القلوب ما لا يؤثر وصف الشيء في نفسه (2).

فينبغي علينا دراسة الأمثال القرآنية والنبوية والاستفادة منها ومن نهجها وطريقتها وأسلوبها في تذليل الصعوبات التعليمية، لما لها من أهمية في القدرة على التوضيح والتأثير وعرض الحقائق بصورة واضحة ومقنعة .

أسئلة للمناقشة:

- 1) عرّف المثل لغة واصطلاحًا.
- 2) ما أنواع الأمثال في القرآن؟
- 3) استخرج من القرآن الكريم معنى الأمثال الآتية:
 - ليس الخبر كالمعاينة"
 - كما تدين تدان"
 - خير الأمور أوساطها"
- 4) بين أغراض الأمثال الآتية:
 - أ. قال تعالى: (فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ) [البقرة: 264].
 - ب. قال تعالى: (الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يُزِيدُهُمْ إِلَّا كَمَا يُزِيدُ النَّارَ يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ) [البقرة: 275].
- 5) هل يجوز ضرب الأمثال بالقرآن؟
- 6) حدد نوع المثل فيما يأتي:

(1) تفسير الزمخشري، 1/111.

(2) الإتيان، للسيوطي، 4/45.

- (الآن حَصَصَ الْحَقُّ) .
- (وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتُ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا) .
- (مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ

الفصل العاشر: القسم في القرآن الكريم⁽¹⁾.

المبحث الأول: القسم وأنواعه:

الأقسام جمع قسم: بفتح السين، بمعنى الحلف واليمين، وصيغة القسم الأصلية أن يؤتى بالفعل أقسم أو أحلف متعديا بالباء إلى المقسم به. ثم يأتي المقسم عليه، وهو المسمى بجواب القسم. فأجزاء صيغة القسم ثلاثية: الفعل الذي يتعدى بالباء، والمقسم به، والمقسم عليه.

والقسم في اللغة العربية نوعان:

قسم صريح (ظاهر): وهو ما ذكر معه حرف من حروف القسم: كالواو أو الباء، أو ما ذكر معه فعل من الأفعال الدالة عليه: كأقسم وحلف، أو ما ذكر معه الحرف والفعل معا نحو "أقسم بالله"، أو ما يدل عليه لفظ من ألفاظه، أسما كان أو مصدرا نحو: "يمين الله" أو "قسما بالله".

قسم مضمّر: وهو ما لم يذكر معه القسم صريحا، وله صورتان:

- ما دلت عليه اللام نحو قوله تعالى: (قَالُوا لَنْ نَمُوتَ نَحْنُ يَا نُوحُ لِتَكُونَ مِنَ الْمَرْجُومِينَ) [الشعراء: ١١٦] وقوله تعالى: (لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ نَصَبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ) [آل عمران: ١٨٦].
- وما دل عليه المعنى نحو قوله سبحانه: (إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ) [الطارق: ٤]، وقوله تعالى: (وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا) [مریم: ٧١]، والتقدير في الحالتين "والله".

وقد ورد القسم في القرآن الكريم صريحا ومضمرا في آيات كثيرة، وإن كان أكثر وروده في الآيات المكية. وقد جرى القسم المضمّر في القرآن الكريم على أساليب العرب المألوفة

(1) هذا المبحث مستفاد من " التبيان في أقسام القرآن " لابن قيم الجوزية، ص 57-63. وتناول الكتاب جميع المواضع التي ورد فيها القسم صريحا أو ضمنا في القرآن الكريم، مبتدئا بالآيات، وعرضها من آخر المصحف إلى أوله، مناقشا ومبينا تفسير الآيات في السور القصيرة التي تبتدئ بالقسم حتى نهايتها، وموضحا علاقة القسم في السورة بالمقسم عليه وجواب القسم، وعلاقة القسم بالسورة نفسها، وما ورد فيها من معان .

وقد ضمن المؤلف كتابه هذا اختلافات المفسرين واللغويين في الآيات المذكورة عند القسم، مرجحا بعض الأوجه على بعض، وقد يستطرد في بعض الآيات، فيخرج إلى معان أخرى خارجة عن القسم، فيذكر أكثر من مئة صفحة أو نحوها في بحث الأجهزة التي خلقها الله في جسم الإنسان وبيان وظائفها والإعجاز فيها، ثم يعود إلى الحديث عن القسم في الآية. تح: محمد حامد الفقي، دار المعرفة، بيروت - لبنان.

لهم، أما القسم الصريح فهو الذي لفت نظر المفسرين والباحثين، لما يمتاز به من خصائص مميزة له انفرد بها دون غيره من كلام العرب.

وقد ورد هذا القسم الصريح في إحدى وثمانين آية، أكثرها مكى، فمنها ثلاث وستون آية مكية، وثمانية عشرة آية مدنية.

ويرجع السبب في انتشار القسم في المرحلة المكية، إلى أن هذه المرحلة في تاريخ الدعوة الإسلامية هي التي شهدت حملات الرفض والإنكار لهذه الدعوة، والتشكيك فيما جاء به الدين الجديد من أمور غيبية جديدة على العرب لم يكونوا على استعداد لتقبلها، أو من أمور روحانية لم تهيئ لهم حياتهم المادية فرصة الاقتناع بها.

المبحث الثاني: لم أقسم الله تعالى:

إذا كانت الغاية من القسم: تحقيق الخبر وتوكيده، فما معنى قسم الله تعالى؟

إن كان لأجل المؤمن، فالمؤمن مصدق بمجرد الإخبار من غير قسم، وإن كان لأجل الكافر فلا يفيد. وعلى ذلك فهناك سببان، هما:

• أن القرآن نزل بلغة العرب، ومن عاداتها القسم، إذا أرادت أن تؤكد أمراً.

• ذكر القسم لكمال الحجة وتأكيدها، وذلك أن الحكم يفصل بأمرين:

إما الشهادة في مثل قوله تعالى: (شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) [آل عمران: ١٨] أو القسم في مثل قوله تعالى: (قُلْ إِي رَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ) [يونس: ٥٣]، وقد روى عن بعض الأعراب أنه سمع قوله تعالى: (وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ (22) فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِفُونَ) [الذاريات: ٢٢ - ٢٣]، صرخ وقال: من ذا الذي أغضب الجليل حتى ألجأه إلى اليمين.

وإذا كان القسم باسم معظم فكيف أقسم الله بمخلوقاته في الوقت الذي ورد فيه النهي عن القسم بغير الله؟ قال السيوطي:

أجيب عنه بأوجه:

أحدها: أنه على حذف مضاف: أي: ورب التين، ورب الشمس في قوله تعالى:

(وَالَّتَيْنِ وَالزَّيْتُونَ) [التين: ١]، وقوله (وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا) [الشمس: ١]، ومثله الباقي.

الثاني: أن العرب كانت تعظم هذه الأشياء وتقسم بها، فنزل القرآن على ما يعرفونه.

الثالث: أن الأقسام إنما تكون بما يعظمه المقسم أو يجله، وهو فوقه، والله تعالى ليس فوقه شيء، فأقسم تارة بنفسه وتارة بمصنوعاته؛ لأنها تدل على باري و صانع. وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن قال: إن الله يقسم بما يشاء من خلقه، وليس لأحد أن يقسم إلا بالله.

القسم بالنبي ρ:

قال العلماء: أقسم الله تعالى بالنبي ρ في قوله تعالى (لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ) [الحجر: 72]. لتعرف الناس عظمته عند الله ومكانته لديه.

وقد أخرج الطبري عن ابن عباس: مَا خَلَقَ اللَّهُ وَمَا ذَرَأَ وَمَا بَرَأَ نَفْسًا أَكْرَمَ عَلَى اللَّهِ مِنْ مُحَمَّدٍ ρ، وَمَا سَمِعْتُ اللَّهَ أَقْسَمَ بِحَيَاةِ أَحَدٍ غَيْرِهِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى ذَكَرَهُ: (لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ) [الحجر: 72] (1).

قال ابن كثير: "أقسم الله تعالى بحياة نبيه، صلوات الله وسلامه عليه، وفي هذا تشریف عظيم ومقام رفيع وجاه عريض... يقول وحياتك وعمرك وبقائك في الدنيا" (2).

المبحث الثالث: بم يقسم الله؟

وقد جرى القسم في القرآن الكريم على خمسة أساليب: فالله سبحانه يقسم بذاته الموصوفة بصفاته، ويقسم بآياته المستلزمة لذاته، ويقسم بنبيه ρ، ويقسم ببعض مخلوقاته، ويقسم بالقرآن الكريم.

المطلب الأول: قسم الله تعالى بذاته:

فقد ورد في عشر آيات، منها آيتان مدينتان، والثمانى الباقيات مكية، وهي:

1. (فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا) [النساء: 65].

2. (رَعِمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ) [التغابن: 7].

3. (وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقُّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ) [يونس: 53].

4. (فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (92) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ) [الحجر: 92].

(1) جامع البيان، للطبري، 118/17.

(2) تفسير ابن كثير، 555/2.

5. (وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَالِهَةً لِّسَالِنٍ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتُرُونَ) [النحل: 56].
6. (تَالِهَةً لَّقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) [النحل: 63].
7. (فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا) [مريم: 68].
8. (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ) [سبأ: 3].
9. (فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِفُونَ) [الذاريات: 23].
10. (فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ (40) عَلَىٰ أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ) [المعارج 40-41].

المطلب الثاني : القسم بالقرآن الكريم:

ورد القسم بالقرآن في خمسة مواضع، كلها مسبوقة بالحروف المقطعة التي افتتحت بها السور، وكلها أيضا مكية، وهي:

- 1- (يس 1) وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ (2) إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ) [يس: 1-3].
- 2- (ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ (1) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ) [ص: 1,2].
- 3- (حم 1) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (2) إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) [الزخرف: 1-3].
- 4- (حم 1) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (2) إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ) [الدخان: 1-3].
- 5- (ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ (1) بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ) [ق: 1-2].

المطلب الثالث: القسم بالنبي ρ :

فقد ورد في موضع واحد، وهو قوله تعالى ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر:72]. أما أكثر أقسام القرآن انتشارا في آياته الكريمة، فهي القسم بآياته ومخلوقاته، وهي التي تميز أسلوب القسم فيه بهذا الطابع الفريد الذي ينفرد به. والظاهرة التي تلفت النظر أن هذا الأسلوب من القسم، انفردت به الآيات المكية وحدها، ولم يرد في أي آية مدنية، كما يلفت النظر أيضا أن كل هذه الأقسام وردت في فواتح السور. أقسم الله بمخلوقاته، فأقسم بالملائكة في سورة الصافات وفي سورة النازعات. وأقسم سبحانه بالخيل في سورة العاديات.

المطلب الرابع: القسم بمظاهر الطبيعة :

أقسم سبحانه بمظاهر الطبيعة الدالة على عظم صنعه وعظيم قدرته الناطقة بوجوده ووحدانيته، وأنه رب السموات والأرض وما فيهن، فأقسم بالسماء والأرض، وبالشمس والقمر والنجوم والكواكب وأقسم بالليل والنهار ومراحلهما المتعاقبة: الفجر والصبح والضحى والعصر والشفق.

قال تعالى: (وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا (5) وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا) [الشمس: 5-6].

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ (11) وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ) [الطارق: 11-12].

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ) [الذاريات:7]، (وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ) [البروج: 1].

(وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ (1) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ (2) النَّجْمُ الثَّاقِبُ) [الطارق: 1-3].

(وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا (1) وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَّهَا (2) وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّهَا (3) وَاللَّيْلِ إِذَا

يَغْشَاهَا) [الشمس: 1-4].

(وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى (1) وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى) [الليل: 1-2].

(وَالْفَجْرِ (1) وَلَيَالٍ عَشْرٍ (2) وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ (3) وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ) [الفجر: 1-4].

(وَالضُّحَى (1) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى) [الضحى: 1-2].

(وَالْعَصْرِ (1) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ) [العصر: 1، 2].

(فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ (16) وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ (17) وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ) [الانشقاق: 16-18]

(كَلَّا وَالْقَمَرِ (32) وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ (33) وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ) [المدثر: 32-34].

(وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى) [النجم: 1].

فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنُوسِ (15) الْجَوَارِ الْكُنُوسِ (16) وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ (17) وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ (18) [التكوير: 15-18].

فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (75) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ [الواقعة: 75، 76].

وكذلك أقسم سبحانه بالرياح والسحاب وبالبحر والجبل.

وَالذَّارِيَاتِ ذُرُوءًا (1) فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا (2) فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا (3) فَالْمُقْسِمَاتِ أَمْرًا (4) [الذاريات: 1-4].

(وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا (1) فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا (2) وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا) المرسلات: 1-3. [الطور: 6].

المطلب الخامس: القسم بالأزمنة:

أقسم سبحانه بالأزمنة التي تحدد حركة الكون بإرادته وتقديره، أقسم بالأمكنة المقدسة التي شاءت حكمته أن تكون أرض رسالاته ورسالته: أقسم بطور سيناء حيث كلم موسى، وبفلسطين حيث ظهر عيسى، وبمكة المكرمة حيث بعث محمد عليه الصلاة والسلام.

والتين والزيتون (1) وطور سينين (2) وهذا البلد الأمين [التين: 1-3].

لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ (1) وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ [البلد: 1-2].

والمفسرون على أن التين والزيتون بلاد الشام، والبلد الأمين مكة المكرمة⁽¹⁾.

(1) لجأ بعض المفسرين إلى استنتاج الدلالة بالتين والزيتون علي منابتهما الأصلية من الأرض. فطور سينين هو الجبل الذي نودي موسى (عليه السلام) من جانبه في شبه جزيرة سيناء (أو سینا) ومعناها في اللغة: المباركة الحسنة، والجبل معروف اليوم باسم جبل موسى (أو جبل المناجاة)، والبلد الأمين هي: مكة المكرمة، وحرماها الأمن، وبها الكعبة المشرفة. وعطف القسم بهذين المكانين المباركين على القسم بكل من التين والزيتون أوحى إلى عدد من المفسرين إلى الاستنتاج بأن القسم بهاتين الثمرتين قد يتضمن من أحد جوانبه الإشارة إلى كرامة منابتهما الأصلية من الأرض، وذلك من مثل كل من بيت المقدس وجواره طور تينا، وبه المسجد الأقصى المبارك. ومن أشهر منابت كل من التين والزيتون (بأنواعهما المتميزة) بلاد الشام، والأولي بها طور تينا بجوار دمشق، وإن كانت الصياغة القرآنية في مطلع سورة التين واضحة الدلالة على الثمرتين اللتين تؤكلان باسم التين والزيتون، إلا أن ذلك لا ينفي الإشارة إلى منابتهما من الأرض، حتى يرتبط السياق بالقسم التالي بمكانين من أشرف أماكن الأرض، وفيها مكة المكرمة أشرفها على الإطلاق. ينظر: من أسرار القرآن. الإشارات الكونية في القرآن الكريم ومغزى دلالتها العلمية، د. زغول النجار. الشبكة الدولية للإنترنت - منتدى أبناء مصر. وفي أقوال المفسرين ينظر: القرطبي وابن كثير وغيرهما من التفاسير في موضع تفسير الآيات في سورة " التين".

المطلب السادس: القسم بيوم القيامة :

أقسم سبحانه بيوم القيامة، وبالنفس السوية، والنفس اللوامة، وأقسم بالقلم الذي علم به الإنسان ما لم يعلم وأقسم بالكتاب.

(لَا أُقْسِمُ بِبِئُومِ الْقِيَامَةِ (1) وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَامَةِ) [القيامة:1،2]
(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (7) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا) [الشمس:7،8].
(ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ) [القلم،1].

(وَالطُّورِ (1) وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ (2) فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ) [الطور: 1-3].

المطلب السابع : أعم قسم في القرآن الكريم :

أما أعم قسم ورد في القرآن فهو قوله تعالى: (فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ (38) وَمَا لَا تُبْصِرُونَ (39) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ) [الحاقة:38-40]، أقسم به سبحانه ليؤكد رسالة محمد سيد الأنبياء وخاتم المرسلين وخير خلقه أجمعين p.

المبحث الرابع: علام يقسم الله تعالى.

من يتتبع القسم في القرآن الكريم، يلحظ أن الله تعالى يقسم على أصول الإيمان الثلاثة: التوحيد، والرسالة، والبعث.

وتحت هذه الأصول الكبرى تندرج فروع وجزئيات متعددة. وقد ركز القرآن الكريم على هذه الأصول الاعتقادية؛ لأنها كانت أشد ما فاجأ العرب من الدين الجديد، وأشد ما أثار إنكارهم ورفضهم وتكذيبهم، فقد ظهر الرسول ρ بدعوته والعرب ممعنون في ماديتهم، بعيدا عن كل هذه المعاني الروحية والمسائل الغيبية التي يدعو إليها الإسلام.

ومن هنا كانت الدعوة إلى الإيمان بالغيب أول عنصر من عناصر الدعوة الإسلامية، ومن هنا -أيضا- كانت قضية البعث أهم قضية، شغلت أذهان العرب، وكذلك دعوة الإسلام إلى عبادة إله واحد كانت دعوة غريبة عليهم، وهم الذين عبدوا الآلهة المتعددة؛ لذا فقد عجبوا من عقيدة التوحيد، كما أنكروا أن يكون القرآن من عند الله.

ولذلك دارت أكثر أقسام القرآن حول هذه الأصول الاعتقادية الثلاثة:

ففي سورة الصافات نرى مثلا للقسم على الأصل الأول - التوحيد - . وفي سورة يس نرى مثلا للقسم على الأصل الثاني - الرسالة - . وفي سورة الذاريات نرى مثلا للقسم على الأصل الثالث - البعث .

وراء هذه الأصول الثلاثة الكبرى، نرى فروعا كثيرة تتردد في الأقسام القرآنية:

كالقسم في سورة الليل على أن الجزاء يوم القيامة مرتبط بعمل الإنسان في الحياة، وأن ليس للإنسان إلا ما سعى تحقيقا للعدل الإلهي.

وفي "سورة الشمس" نرى القسم يدور حول فكرة قريبة من الفكرة السابقة، وهي عن المنهج والطريق، فالله قد خلق الإنسان ورسم له طريق الخير والشر، وألهم نفسه الفجور والتقوى، فمن زكى نفسه وطهرها، فقد أفلح وفاز يوم القيامة، ومن حجب ما فيها من خير، وكشف عما فيها من شر، فقد خاب وخسر يوم القيامة.

وفي "سورة الطارق" يدور القسم حول فكرة أن الله لم يترك الإنسان في هذه الحياة سدي، وإنما خلقه وكلف ملائكته بحفظه ومراقبته وإحصاء أعماله، حتى يكون حسابه يوم القيامة بناء على صحيفة أعماله التي سجلت عليه في حياته.

وفي "سورة العصر" قسم على سبيل الفوز في الدنيا والآخرة هو الإيمان والعمل الصالح والأخذ بأسباب الحق والصبر.

وفي "سورة المعارج" نرى قسما على قدرة الله التي لا يقف دونها شيء.

وفي "سورة النجم" يقسم الله سبحانه على صدق الإسراء والمعراج، ردا على ما أثاره المشركون حوله من تكذيب للنبي ﷺ.
وهكذا تعددت مجالات القسم في القرآن الكريم، تعدد ما أدرك الله بعلمه وحكمته إنه في حاجة إلى القسم عليه، فكانت هذه الأصول الاعتقادية الثلاثة هي المجالات الأساسية، ووراءها مجالات فرعية كثيرة⁽¹⁾.

(1) ينظر: التبيان في أقسام القرآن لابن قيم الجوزية، 7-10، ط/ دار الكتب العلمية.

المبحث الخامس: الظواهر الأسلوبية التي يتميز بها القسم في القرآن:

إذا تأملنا القسم في القرآن الكريم، فإننا نلاحظ أنه يمتاز بظواهر أسلوبية مميزة، نتناولها في المطالب الآتية.

المطلب الأول: الظاهرة الأولى: حذف جواب القسم في بعض الآيات:

والظاهرة التي تلفت النظر هنا أن هذا الحذف لم يرد إلا في الآيات المكية، ولم يرد في أي آية مدنية. وأكثر ما يكون ذلك، إذا كان في المقسم به ما يدل على المقسم عليه، أو - بعبارة أخرى - إذا كان في لفظ القسم ما يدل على موضوعه، وذلك لأن المراد من القسم يفهم بذكر المقسم به، فيكون ذكر المقسم عليه لا ضرورة له، ويكون حذفه أوجز وأبلغ، ولذلك نلاحظ أن حذف الجواب يكون في إحدى حالتين: في حالة ظهوره والعلم به، أو في حالة دلالة السياق عليه.

ففي قوله تعالى ﴿(ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ (1) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ)﴾ [ص:1،2]، جواب القسم محذوف؛ لأن في القسم ما يدل عليه، وهو وصف القرآن بأنه ذو الذكر، أو؛ لأن السياق بعده يدل عليه، وهو وصف الكافرين بأنهم في عزة وشقاق، أي: في كبرياء الجاهلية الكاذبة، وخلافهم المتعصب مع المؤمنين بالدين الجديد. وعلى هذا يكون القسم على القرآن الكريم وصدقه، أو على أن الأمر ليس كما يقول كفار مكة من تعدد الآلهة.

وبعض المفسرين يرون أن جواب القسم هو قوله تعالى ﴿(بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ)﴾ فكأن الله يقسم على ذلك. وقال كثيرون: إن تقدير الجواب: إن القرآن لحق وهذا يطرد في كل ما شابه ذلك كقوله: ﴿(ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ)﴾، وقوله: ﴿(لَا أَقْسَمُ بِبِئْسَ الْقِيَامَةِ)﴾ فإنه يتضمن إثبات المعاد. وقوله: ﴿(وَالْفَجْرِ)﴾ أنها أزمان تتضمن أفعالا معظمة من المناسك وشعائر الحج، التي هي عبودية محضة لله تعالى وذل وخضوع لعظمته، وفي ذلك تعظيم ما جاء به محمد وإبراهيم عليهما الصلاة والسلام.

ويمكن أن نجد أمثلة كثيرة على ذلك: في سورة النازعات، والفجر، وغيرهما. ويذهب ابن القيم مذهبا طريفا في تفسير هذه الظاهرة الأسلوبية، إذ يرى في كتابه "التبيان في أقسام القرآن"⁽¹⁾، أن من بين آيات القرآن التي حذف جوابها، ما أريد به التنبيه على أهمية المقسم به دون أن يراد مقسم عليه بعينه، ولهذا يستغني عن ذكره؛ لأن هذا القسم في الحقيقة يتضمن الجواب المقسم عليه، وإن لم يذكر لفظا.

إن هذا الأسلوب من القسم القرآني إنما قصد به اللفت إلى المقسم به، بما يغني عن تأويل جواب محذوف أو غير محذوف، فلم يعد السياق في حاجة إلى تكملة أو جواب.

المطلب الثاني: الظاهرة الثانية: اقتران فعل القسم بلا النافية في بعض الآيات:

(1) ينظر: التبيان، لابن القيم، ص10.

وقد ورد ذلك في ثماني آيات كلها مكية، ولم يرد في أي آية مدنية، وهذا الأسلوب نادر في كلام العرب، حتى ليعد أسلوباً قرآنياً خالصاً، وتردد هذا الأسلوب أيضاً في حديث النبي ρ فقد كثر في إيمانه ρ ذلك القسم الرقيق "لا والذي نفسي بيده" أو "لا والذي نفس محمد بيده". ويذكر ابن القيم في كتابة "التبيان" أن أكثر يمين الرسول ρ "لا ومقلب القلوب".

والآيات الثماني التي ورد فيها هذا الأسلوب القرآني من القسم هي:

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ الْوَاقِعَةِ: [75]).

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ (38) وَمَا لَا تُبْصِرُونَ) [الحاقة: 38-39].

(فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ) [المعارج: 40].

(لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ (1) وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ) [القيامة: 1-2].

(فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنُوسِ (15)) [التكوير: 15].

(فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ) [الانشقاق: 16].

(فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ) [البلد: 1].

وفي آية مدنية واحدة وردت "لا" بغير فعل، جريا على أساليب العرب - وهو اقتران "لا" النافية بغير الفعل - وذلك في قوله تعالى: (فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا) [النساء: 65]. ويرى النحاة أن "لا" في هذه الآية نافية لفعل محذوف يدل عليه الفعل المذكور، تقديره "فلا يؤمنون وربك لا يؤمنون"، فأخبر أولاً ثم أكد بالقسم بعد ذلك، فاستغنى بذكر الفعل بعد القسم عن ذكره قبله.

وقد اختلفت آراء العلماء في تفسير "لا" هذه وتعددت.

ويرى الشيخ محمد عبده في تفسيره لجزء عم أن "لا أقسم" عبارة من عبارات العرب في القسم ويراد بها تأكيد الخبر، كأنه في ثبوته وظهوره لا يحتاج إلى قسم. وتعليل الأستاذ الإمام صحيح، إلا أنه أسلوب نادر في كلام العرب.

المطلب الثالث: الظاهرة الثالثة: اقتران القسم بأداة الزجر والردع "كلا"

وقد وردت كلا مقترنة بالقسم في خمس آيات كلها مكية وهي:

(كَلَّا وَالْقَمَرَ (32) وَاللَّيْلَ إِذْ أَدْبَرَ (33) وَالصُّبْحَ إِذَا أَسْفَرَ) [المدثر: 32-34].

(كَلَّا لئن لَمْ يَنْتَه لَسَفَعًا بِالنَّاصِيَةِ) [العلق: 15].

(كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (3) ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ) [التكاثر: 3-4].

(كَلَّا لِيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ) [الهمزة: 4].

المطلب الرابع: الظاهرة الرابعة: ورود "إذا" بعد القسم الصريح:

وقد ورد ذلك في اثنتي عشرة آية كلها مكية، والذي يلفت النظر في هذه الظاهرة أن

القسم في هذه الآيات كلها بمراحل الليل والنهار الزمنية.

(وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى) [النجم: 1].

(وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ) [المدثر: 34].

(وَاللَّيْلِ إِذَا عَسَسَ (17) وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ) [التكوير: 17-18].

(وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ) [الانشقاق: 18]. وغيرها كثير.

ويرى ابن هشام في كتابه "المغني" أن "إذا" في هذه الآيات ظرف للحال، وليس فيها معنى الشرطية، ولا تدل على الاستقبال، وربما كان الأقرب إلى سياق الآيات أن تكون للدلالة على استغراق الزمن¹، وكأن الله يقسم بهذه الظواهر الطبيعية التي هي من آيات خلقه وقدرته ليلفت النظر إلى أنها متجددة دائما وستظل متجددة على امتداد الزمان كله حتى تقوم الساعة. ووراء هذه الظواهر ظواهر أخرى كثيرة، وصل بها العلماء إلى اثنتين وعشرين ظاهرة، وأكثرها من الظواهر المألوفة في أساليب العرب في القسم.

¹ - قال ابن هشام: ومن ذلك إذا التي بعدها القسم نحو {وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى} {وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى} إذ لو كانت شَرْطِيَّةً كَانَ مَا قَبْلَهَا جَوَابًا فِي الْمَعْنَى كَمَا فِي قَوْلِكَ آتِيكَ إِذَا أَتَيْتَنِي فَيَكُونُ التَّقْدِيرُ إِذَا يَغْشَى اللَّيْلُ وَإِذَا هَوَى النَّجْمُ أَقْسَمْتَ وَهَذَا مُنْتَعَجٌ لَوْجَهَيْنِ:

أحدهما: أن القسم الإنشائي لا يقبل التعليل؛ لأن الإنشاء إيقاع والمعلق يحتمل الوقوع وعدمه فأما إن جائي فوالله لأكرمنه، فالجواب في المعنى فعل الإكزام؛ لأنه المُسَبَّبُ عَنِ الشَّرْطِ وَإِنَّمَا دَخَلَ الْقِسْمُ بَيْنَهُمَا لِمَجْرَدِ التَّوَكِيدِ وَلَا يُمَكِّنُ ادِّعَاءَ مِثْلِ ذَلِكَ هُنَا؛ لِأَنَّ جَوَابَ وَاللَّيْلِ ثَابِتٌ دَائِمًا وَجَوَابَ وَالنَّجْمِ مَاضٍ مُسْتَمِرٌّ الْإِنْتِظَارُ فَلَا يُمَكِّنُ تَسْبِيحَهُمَا عَنِ أَمْرِ مُسْتَقْبَلٍ وَهُوَ فِعْلُ الشَّرْطِ.

وَالثَّانِي: أَنَّ الْجَوَابَ خَبْرِيٌّ فَلَا يَدُلُّ عَلَيْهِ الْإِنشَاءُ لِتَبَايُنِ حَقِيقَتَهُمَا. ينظر: مغني اللبيب لابن هشام ، ص136.

المطلب الخامس.

الظاهرة الخامسة: وهي ظاهرة طريفة تستحق الإشارة إليها، تتصل بأسلوب القرآن في استخدام حروف القسم "الواو والباء والتاء"، فقد وردت التاء مقترنة بلفظ الجلالة "الله" في الآيات المكية فقط، ولم ترد في الآيات المدنية، كقوله تعالى: (وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولُوا مُدْبِرِينَ) [الأنبياء:57] في حين وردت الباء مقترنة به في الآيات المكية والمدنية على السواء، كقوله تعالى: (وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَىٰ) [النحل:38]، وقوله سبحانه: (وَسَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوْ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ) [التوبة:42] أما الواو فلم ترد في الآيات المكية ولا الآيات المدنية مقترنة به، وإنما وردت مع لفظ الجلالة "الرب" مضافا إلى الضمير الذي يشير إلى النبي ρ ، كقوله: (فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (92) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ) [الحجر:92]، أو مضافا إلى آياته الدالة على قدرته كقوله تعالى: (فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطُقُونَ) [الذاريات:23]، ولكن أكثر ورودها في القسم بمظاهر الطبيعة أو في القسم بالقرآن نحو قوله تعالى: "والعصر" و"الضحى" و"والليل" و"والفجر" و"وليل عشر" و"والسما" و"الطارق" و"كلا والقمر"، وهكذا، ونحو قوله تعالى: (ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ) [ق: 1] (حم 1) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ) [الزخرف: 1-2]، وهكذا.

المطلب السادس

الظاهرة السادسة: من الظواهر الطريفة أيضا، أن مادة "حلف" لم ترد إلا في الآيات المدنية، ولم ترد في الآيات المكية إلا في آية واحدة هي قوله تعالى: (وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ) [القلم: 10]. وفي كل مواضع ورودها جاءت في مقام الحنث باليمين، ومن هنا لم ترد مقترنة بالله تعالى.

أما مادة "قسم" فقد قصر ورودها على الآيات المكية، ولم ترد في الآيات المدنية. ولعل ذلك هو الذي جعل صاحبي لسان العرب والقاموس المحيط وغيرهما من علماء اللغة يذكرون أن الحلف معناه القسم، غير أن الحلف الذي ورد في القرآن الكريم لا يصح أن يكون مرادفا للقسم.

أسئلة للمناقشة

- (1) ما الفرق بين القسم الظاهر والمضمر؟
- (2) اذكر صور القسم المضمر.
- (3) ما السبب في انتشار القسم في المرحلة المكية؟
- (4) القسم لا يكون إلا بمعظم، فكيف أقسم الله بمخلوقاته؟
- (5) لم أقسم الله بالنبى؟
- (6) بم يقسم الله.
- (7) اذكر موضعين من المواضع التي أقسم الله فيها بذاته.
- (8) عدد المواضع التي أقسم الله فيها بالقرآن الكريم؟
- (9) بأي شيء أقسم الله تعالى في هذه الآية: (لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ) [الحجر: 72].
- (10) اذكر موضعا أقسم الله فيه بأحد مظاهر الطبيعة وعلة ذلك .
- (11) ما الظواهر الأسلوبية التي يتميز بها القسم في القرآن؟
- (12) اختلفت آراء العلماء في تفسير "لا" في قوله تعالى: (لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ (1) وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ) [القيامة: 1-2]، وضح ذلك.

الفصل الحادي عشر: الجدل في القرآن.

المبحث الأول: الجدل:

المطلب الأول تعريف الجدل لغة واصطلاحاً:

الجدل في اللغة: اللد في الخصومة والقدرة عليها، وجادله أي خاصمه مجادلة وجدالاً. والجدل: مقابلة الحجة بالحجة؛ والمجادلة: المناظرة والمخاصمة. وقال ابن فارس: الجِدَالُ: الخصومة؛ سمي بذلك لشدته⁽¹⁾.

معنى الجدل اصطلاحاً:

قال الراغب: (الجِدَالُ: المفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة). وقال الجرجاني: "الجدل: دفع المرء خصمه عن إفساد قوله: بحجة، أو شبهة، أو يقصد به تصحيح كلامه"⁽²⁾. وقال أيضاً: (الجدال: هو عبارة عن مرآة يتعلق بإظهار المذاهب وتقريرها"⁽³⁾).

المطلب الثاني: أقسام الجدل في القرآن الكريم:

1 - الجدل الممدوح: "هو الجدل في تقرير الحق، ودعوة الخلق إلى سبيل الله، والذب عن دين الله تعالى"⁽⁴⁾.

وهو الذي أمر الله تعالى به رسوله ρ في مجادلة المشركين فقال: (ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بَالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ) [النحل: 125]، وقال: (وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ) [العنكبوت: ٤٦].

2 - الجدل المذموم: "محمول على الجدل في تقرير الباطل، وطلب المال، والجاه"⁽⁵⁾.

ومنه قوله تعالى: (وَقَالُوا أَلَّهِئْنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ) [الزخرف: ٥٨] ومنه قوله تعالى: (مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْزِرُكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ) [غافر: ٤]، ومنه قوله تعالى: (وَجَادِلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ) [غافر: ٥].

(1) ينظر في معنى الجدل لغة واصطلاحاً: مقاييس اللغة، ابن فارس، 433/1، لسان العرب، لابن منظور، 420/1، المفردات، الراغب الأصفهاني، ص 97.

(2) التعريفات، للجرجاني، ص 74، الكليات، للكفوي، ص 353.

(3) التعريفات، للجرجاني، ص 75، التوقيف على مهمات التعاريف، للمناوي، ص 122.

(4) مفاتيح الغيب، للرازي، 320/5.

(5) المصدر السابق.

وقد ذكر الله في القرآن الكريم أنه من طبيعة الإنسان في قوله تعالى: (وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا) [الكهف:54]، أي: خصومة ومنازعة.

المطلب الثالث: أوجه الجدل في القرآن الكريم:

الأول: الخصومة، قال: (وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ) [الرعد: ١٣].

الثاني: السؤال، قال الله: (يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ) {هود: 74} أي: سأل رسلنا ويستثبت أمر ما يعذب به قوم لوط.

الثالث: المناظرة على إثبات الحق وإبطال الباطل، قال: (قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا) [هود: 32].

وقد يكون المناظران محقين بأن يكون كل واحد منهما يناظر ليعرف الحق، ولا يكونان متجادلين إلا وأحدهما مبطل أو كلاهما.

الرابع: المراء، قال الله: (ولا جدال في الحج) ، فنهى عن المراء الواقع بين المترافقين في طريق الحج.

المبحث الثاني: طريق القرآن في الجدل.

وطريق القرآن في الجدل تختلف عن طريقة المتكلمين، وقد ضرب القرآن الكريم بسهم وافر في ذلك.

قال الزركشي: "اعلم أن القرآن العظيم قد اشتمل على جميع أنواع البراهين والأدلة، وما من برهان ودلالة وتقسيم وتحديد شيء من كليات المعلومات العقلية والسمعية، إلا وكتاب الله تعالى قد نطق به، ولكن أورده تعالى على عادة العرب دون دقائق طرق أحكام المتكلمين لأمرين:

أحدهما: سبب ما قاله سبحانه: (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ) [إبراهيم:4].

وثانيهما: أن المائل إلى دقيق المحاجة هو العاجز عن إقامة الحجة بالجليل من الكلام، فإن من استطاع أن يفهم بالأوضح الذي يفهمه الأكثرون، لم يتخط إلى الأغمض الذي لا يعرفه إلا الأقلون، ولم يكن ملغزا، فأخرج تعالى مخاطباته في حاجة خلقه من أجل صورة تشتمل على أدق دقيق، لتفهم العامة من جليلها ما يقنعهم، ويلزمهم الحجة، وتفهم الخواص من أثنائها ما يوفى على ما أدركه فهم الخطباء.

وعلى هذا حمل الحديث المروي "وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا مِنْهُ آيَةٌ إِلَّا وَلَهَا ظَهْرٌ وَبَطْنٌ، وَمَا فِيهِ حَرْفٌ إِلَّا وَلَهُ حَدٌّ وَلِكُلِّ حَدٍّ مَطْلَعٌ" (1) لا على ما ذهب إليه الباطنية، ومن هذا الوجه كل من كان حظه في العلوم أوفر، كان نصيبه من علم القرآن أكبر، ولذلك إذا ذكر تعالى حجة على ربوبيته ووحدانيته، أتبعها مرة بإضافته إلى أولي العقل، ومرة إلى السامعين، ومرة إلى المفكرين، ومرة إلى المتذكرين، تنبيهاً أن بكل قوة من هذه القوى يمكن إدراك حقيقة منها، وذلك نحو قوله تعالى: (إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) [الرعد:4]، وغيرها من الآيات (2).

ومن الجدل نوع منطقي تستنتج منه النتائج الصحيحة من المقدمات الصادقة، فقد ذكر أهل العلم، أن من أول سورة الحج إلى قوله تعالى: (وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ) [الحج:6-7]، خمس نتائج تستنتج من عشر مقدمات.

قوله تعالى: (وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ) [الحج:6]، لأنه قد ثبت عندنا بالخبر المتواتر أنه تعالى أخبر بزلزلة الساعة معظماً لها، وذلك مقطوع بصحته؛ لأنه خبر أخبر به من ثبت صدقه عن ثبوت قدرته، منقول إلينا بالتواتر فهو حق، ولا يخبر بالحق عما سيكون، إلا الحق فإله هو الحق.

وأخبر تعالى أنه يحيي الموتى؛ لأنه أخبر عن أهوال الساعة بما أخبر، وحصول فائدة هذا الخبر موقوفة على إحياء الموتى ليشاهدوا تلك الأحوال التي يقبلها الله من أجلهم.

وقد ثبت أنه قادر على كل شيء، ومن الأشياء إحياء الموتى فهي يحيي الموتى، وأخبر أنه على كل شيء قدير؛ لأنه أخبر أنه من يتبع الشياطين ومن يجادل فيه بغير علم يذقه عذاب السعير، ولا يقدر على ذلك إلا من هو على كل شيء قدير، فهو على كل شيء قدير.

وأخبر أن الساعة آتية لا ريب فيها؛ لأنه أخبر بالخبر الصادق أنه خلق الإنسان من تراب إلى قال تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ

(1) مصنف عبد الرزاق، كتاب فضائل القرآن، باب تعاهد القرآن ونسيانه، 3/358، ح5965.

(2) البرهان، الزركشي، 2/34.

مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ آجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّىٰ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (5) [الحج: ٥]، وضرب لذلك مثلا بالأرض الهامدة التي ينزل عليها الماء، فتتهتز وتربو وتنتبت من كل زوج بهيج، ومن خلق الإنسان على ما خبر به فأوجده بالخلق ثم أعدمه بالموت ثم يعيده بالبعث، وأوجد الأرض بعد العدم فأحيها بالخلق ثم أماتها بالمحل ثم أحيها بالخصب، وصدق خبره في ذلك كله بدلالة الواقع المشاهد على المتوقع الغائب، حتى انقلب الخبر عيانا صدق خبره في الإثبات بالساعة.

ولا يأتي بالساعة إلا من يبعث من في القبور؛ لأنها عبارة عن مدة تقوم فيها الأموات للمجازاة فهي آتية لا ريب فيها، وهو سبحانه وتعالى يبعث من في القبور.

كما استدل سبحانه وتعالى على المعاد الجسماني بضروب:

أحدها: قياس الإعادة على الابتداء، كما قال تعالى: (كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ) [الأعراف: ٢٩].
 (كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ) [الأنبياء: ١٠٤] وقوله تعالى: (أَفَعَيَّبْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ) [لق: ١٥].

ثانيها: قياس الإعادة على خلق السموات والأرض بطريق الأولى، قال تعالى: (أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ) [يس: ٨١]

ثالثها: قياس الإعادة على إحياء الأرض بعد موتها بالمطر والنبات.

رابعها: قياس الإعادة على إخراج النار من الشجر الأخضر، فقد روى الحاكم وغيره أن أبي بن خلف جاء بعظم ففته فقال: أحيي الله هذا بعد ما بلى ورم؟ فأنزل الله: (قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ) [يس: ٧٩]، فاستدل سبحانه وتعالى برد النشأة الأخرى إلى الأولى والجمع بينهما بعلة الحدوث، ثم زاد في الحجاج بقوله: (الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقَدُونَ) [يس: ٨٠] وهذه في غاية البيان في رد الشيء إلى نظيره والجمع بينهما من حيث تبديل الأعراض عليهما.

دلالة التمانع دليل وجود الله:

ومن ذلك الاستدلال على أن صانع العالم واحد بدلالة التمانع المشار إليها في قوله: (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ) [الأنبياء: ٢٢]؛ لأنه لو كان للعالم صانعان، لكان لا يجري تدبيرهما على نظام ولا يتسق على إحكام، ولكن العجز يلحقهما أو أحدهما، وذلك؛ لأنه لو أراد أحدهما إحياء جسم وأراد الآخر إماتته، فإما أن تنفذ إرداتهما، فيتناقض لاستحالة تجزئ الفعل إن فرض الاتفاق، أو لامتناع اجتماع الضدين إن فرض

الاختلاف، وإما أن لا تنفذ إرادتهما فيؤدي إلى عجزهما، أو لا تنفذ إرادة أحدهما فيؤدي إلى عجزه، والإله لا يكون عاجزا⁽¹⁾.

(1) ينظر: اقتضاء الصراط المستقيم، ابن تيمية/1/46، تفسير ابن كثير 3/254، تفسير الطبري 18/49، ويقول: يقول تعالى نكره: لو كان في السموات والأرض آلهة تصلح لهم العبادة سوى الله الذي هو خالق الأشياء، وله العبادة والألوهية التي لا تصلح إلا له (لفسدنا) يقول: لفسد أهل السموات والأرض. وهو بذلك يفرق بين توحيدي الربوبية والألوهية- كما هو شأن جمهور أهل السنة والجماعة- مع ما بينهما من تضمن والتزام فقد فسر آية الأنبياء بتوحيد الألوهية المستلزم للربوبية.

المبحث الثالث: أنواع من مناظرات القرآن :

المطلب الأول: ما يذكره سبحانه وتعالى من الآيات الكونية المقرونة بالنظر والتدبر للاستدلال على أصول العقائد؛ لتوحيده سبحانه في ألوهيته، والإيمان بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر . وهذا النوع كثير في القرآن الكريم؛ فمنه قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (21) الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ) [البقرة: 21-22].

وقوله تعالى: (وَاللَّهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (163) إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَخْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (164)) [البقرة: 163، 164].

المطلب الثاني: ما يرد به على الخصوم، ويلزم أهل العناد، ولهذا صور مختلفة:

1- منها تقرير المخاطب بطريق الاستفهام عن الأمور التي يسلم بها الخصم، وتسلم بها العقول حتى يعترف بما ينكره، كالاستدلال بالخلق على وجود خالق، في مثل قوله تعالى: (أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ الْخَالِقُونَ (35) أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ (36) أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيِّرُونَ (37) أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلَيَأْتِيَنَّهُمْ مِسْمَعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (38) أَمْ لَهُ الْنبَاتُ وَلَكُمُ النَّبُوتُ (39) أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ (40) أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ (41) أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ (42) أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (43)) [الطور: 35-43].

2- الاستدلال بالمبدأ على المعاد، كقوله تعالى: (أَفَعِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي نَبَسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ) [ق: 15]، وقوله تعالى: (أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى (36) أَلَمْ يَكُنْ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُُمْتَى (37) ثُمَّ كَانَ عِلْقَةً فَخَلَقَ فَسَوَى (38) فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى (39) أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى (40)). [القيامة: 36، 40]، وقوله تعالى: (فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ (5) خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ (6) يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ (7) إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ) [الطارق: 5-8].

3- ومثله الاستدلال بحياة الأرض بعد موتها بالإنبات على الحياة بعد الموت للحساب، كقوله تعالى: (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْتَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِ الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) [فصلت: 39].

4-إبطال دعوى الخصم بإثبات نقيضها، كقوله تعالى: (قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعَلِمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ نَزَّاهُمْ فِي حَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ) [الأنعام:91]. ردا على اليهود فيما حكاه الله عنهم بقوله تعالى: (وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ) [الأنعام:91]

5-السبر والتقسيم- بحصر الأوصاف، وإبطال أن يكون واحد منها علة للحكم، كقوله تعالى: (ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْرِ اثْنَيْنِ قُلْ الذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمْ الْأُنثَيَيْنِ أَمْ مَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ نُبُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (143) وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ الذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمْ الْأُنثَيَيْنِ أَمْ مَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) [الأنعام:143،144].

تفصيل القول:

السبر و التقسيم مسلك اجتهادي، من مسالك العلة في باب القياس، يستفاد منه في تخريج علة تصلح؛ لأن تكون مناط الحكم.

وهو حصول الأوصاف في الأصل المقيس عليه، وإبطال ما لا يصلح بدليل، فيتعين أن يكون الباقي علة.

والسبر: هو الاختبار، أي: اختبار الوصف في صلاحيته وعدمها للتعليل به.

والتقسيم: حصر الأوصاف المحتملة للتعليل؛ بأن يقال: العلة إما كذا أو كذا.

وهو مقدم في الوجود على السبر؛ لأنه تعداد الأوصاف التي يتوهم صلاحيتها للتعليل، ثم يسبرها، أي: ليختبرها ليميز الصالح للتعليل من غيره، فكان الأولى أن يقال "التقسيم والسبر" لأن الواو وإن لم تدل على الترتيب، لكن البداية بالمقدم أجود.

وأجيب عنه: بأن السبر وإن تأخر عن التقسيم، فهو مقدم عليه أيضا؛ لأنه أولاً يسبر المحل، هل فيه أوصاف أم لا؟ ثم يقسم ثم يسبر ثانيا، فقدم السبر في اللفظ باعتبار السبر الأول.

وأجيب أيضا، بأن المؤثر في معرفة العلية إنما هو السبر. وأما التقسيم فإنما هو لاحتياج السبر إلى شيء يسبر⁽¹⁾.

(1) ينظر كلام الأصوليين على السبر والتقسيم في: الإحكام للآمدي 3/364، المستصفي، للغزالي 2/295، إرشاد الفحول، الشوكاني ص 213، شرح الكوكب، لابن النجار 4/142، الإيضاح لقوانين الاصطلاح،

أما فائدة هذه العملية في القرآن، فواضح لا إشكال فيه، فالكتاب هو المصدر الأول والرئيس للأحكام الشرعية، فهو النص الأول، وعلم أصول الفقه، إنما هو للإعمال في النصوص، وإثبات العلة و القياس و ما الى ذلك، فهو لب علم الأصول.

قال السيوطي موضحاً: فإن الكفار لما حرموا ذكور الأنعام تارة، وإناتهم أخرى، رد تعالى ذلك عليهم بطريق السبر والتقسيم فقال - إن الخلق لله تعالى، خلق من كل زوج مما ذكر ذكراً وأنثى، فمّم جاء تحريم ما ذكرتم: أي: ما علته، لا يخلو إما أن يكون من جهة الذكورة أو الأنوثة أو اشتمال الرحم الشامل لهما أو لا يدري له علة، وهو التعبدى، بأن أخذ ذلك عن الله تعالى. والأخذ عن الله تعالى: إما بوحى أو إرسال رسول أو سماع كلامه ومشاهدة تلقي ذلك عنه، وهو معنى قوله - أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا -، فهذه وجوه التحريم لا تخرج عن واحد منها. والأول: يلزم عليه أن يكون جميع الذكور حراماً، والثاني: يلزم أن تكون جميع الإناث حراماً. والثالث: يلزم عليه تحريم الصنفين معاً، فبطل ما فعلوه من تحريم بعض في حالة، وبعض في حالة؛ لأن العلة على ما ذكر تقتضي إطلاق التحريم، والأخذ عن الله بلا واسطة باطل، ولم يدعوه، وبواسطة رسول كذلك؛ لأنه لم يأت إليهم رسول قبل النبي ρ، وإذا بطل جميع ذلك ثبت المدعى، وهو أنّ ما قالوه افتراء على الله وضلال⁽¹⁾.

6- إفحام الخصم وإلزامه ببيان أن مدعاه يلزمه القول بما لا يعترف به أحد، كقوله تعالى: (وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ) [الأنعام: 100]، فنفي التولد عنه لامتناع التولد من شيء واحد، وأن التولد أيضاً إنما يكون من اثنين وهو سبحانه لا صاحبة له، وأيضاً فإنه خلق كل شيء، وخلق له لكل شيء، يناقض أن يتولد عنه شيء، وهو بكل شيء عليم، وعلمه بكل شئ يستلزم أن يكون فاعلاً بإرادته، فإنّ الشعور فارق بين الفاعل بالإرادة والفاعل بالطبع، فيمتنع مع كونه عالماً أن يكون كالأمور الطبيعية التي تتولد عنها الأشياء بلا شعور كالحار والبارد، فلا يجوز إضافة الولد إليه.

لمحيي الدين ابن الجوزي ص 188، تيسير التحرير، لأمير بادشاه 4/46، وينظر في تعريفه لغة: مختار الصحاح، الرازي 283، المصباح المنير، للقيومي 382/1.

(1) الإتيان، للسيوطي، 173/3، 174.

المبحث الرابع: الأنواع المصطلح عليها في علم الجدل⁽¹⁾

1- القول بالموجب: وحقيقته رد كلام الخصم من فحوى كلامه.

ومثاله قوله تعالى: (يَقُولُونَ لَئِن رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ) [المنافقون:8]، فالأعز وقعت في كلام المنافقين كناية عن فريقهم، والأذل عن فريق المؤمنين، وأثبت المنافقون لفريقهم إخراج المؤمنين من المدينة، فأثبت الله في الرد عليهم صفة العزة لغير فريقهم، وهو الله ورسوله والمؤمنون، فكأنه قيل صحيح ذلك ليخرجن الأعز منها الأذل، لكن هم الأذل المخرج، والله ورسوله الأعز المخرج.

2- التسليم: وهو أن يفرض المحال، إما منفياً أو مشروطاً بحرف الامتناع؛ ليكون المذكور

ممتنع الوقوع لامتناع وقوع شرطه، ثم يسلم وقوع ذلك تسليماً جدلياً، ويدل على عدم فائدة ذلك على تقرير وقوعه.

كقوله تعالى: (مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَعَلَىٰ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ) [المؤمنون:91]، المعنى: ليس مع الله من إله، ولو سلم أن معه سبحانه وتعالى إلهاً، لزم من ذلك التسليم، ذهاب كل إله من الاثنين بما خلق، وعلو بعضهم على بعض، فلا يتم في العالم أمر ولا ينفذ حكم ولا تنتظم أحواله، والواقع خلاف ذلك، ففرض إلهين فصاعداً محال لما يلزم منه المحال.

3- الإسجال: وهو أن تثبت على لسان خصمك ألفاظاً في سياق آخر، تسجل به عليه ما

كان عنده محمل شبهة وإنكار، وذلك مثل قوله تعالى: (وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ) [الأعراف:44].

وفي الاتقان: وهو الإتيان بألفاظ تسجل على المخاطب وقوع ما خوطب به نحو

(رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ) [آل عمران:194]، وقوله تعالى: (رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) [غافر:8]، فإن في ذلك إسجالاً بالإيتاء والإدخال حيث وصفا بالوعد من الله الذي لا يخلف وعده.

(1) تنظر المسألة في: البرهان في علوم القرآن، الزركشي،، 147/2-148، الإتيان، للسيوطي، 52/4-57، مناهج الجدل في القرآن الكريم، د. زاهر الألمعي 445-450، أدب البحث والمناظرة، محمد أمين الشنقيطي، 76/2، ويعد الحسن بن قاسم الطبري (350هـ) أول من دون في الجدل مطلقاً في كتابه "المحرر في النظر".

4- الانتقال: وهو أن ينتقل المستدل إلى استدلال غير الذي كان آخذًا فيه؛ لكون الخصم لم يفهم وجه الدلالة من الأول.

كما جاء في مناظرة الخليل الجبار لما قال له: (رَبِّي الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ) [البقرة: ٢٥٨]، فقال الجبار (أنا أحيى وأميت) ثم دعا بمن وجب عليه القتل فأعتقه، ومن لا يجب عليه فقتله، فعلم الخليل أنه لم يفهم معنى الإحياء والإماتة، أو علم ذلك وغالط بهذا الفعل، فانقل عليه السلام إلى استدلال لا يجد الجبار له وجهًا، يتخلص به منه فقال (إن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب) فانقطع الجبار وبهت، ولم يمكنه أن يقول: أنا الآتي بها من المشرق؛ لأن من هو أسن منه يكذبه.

5- المناقضة: وهو تعليق أمر على مستحيل، إشارة إلى استحالة وقوعه كقوله تعالى: (وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ) [الأعراف: 40].

الفصل الثاني عشر: المطلق والمقيد¹.

المطلب الأول : تعريفهما:

المُطْلَقُ: هو اللَّفْظُ الدَّالُّ على فردٍ غيرِ مُعَيَّنٍ، أو أفرادٍ غيرِ مُعَيَّنِينَ.

مثلُ: (رجل) لفردٍ غيرِ مُحدَّدٍ، و(رجال) لأفرادٍ غيرِ مُحدَّدِينَ.

والمُقَيَّدُ: هو اللَّفْظُ الدَّالُّ على فردٍ غيرِ مُعَيَّنٍ، أو أفرادٍ غيرِ مُعَيَّنِينَ مع اقتترانه بصفةٍ تُحدِّدُ

المُرَادُ به.

مثلُ (رجلٌ بصريٌّ)، و (رجالٌ صالحون).

المطلب الثاني: دلالة المطلق والمقيد:

* أولاً : دلالة المطلق: اللَّفْظُ المُطْلَقُ باقٍ على إطلاقه حتَّى يردَ دليلُ التَّقْيِيدِ.

الأمثلة:

1. قوله تعالى في كَفَّارَةِ الظَّهَارِ: { وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَا } [المجادلة: 3].

لفظُ { رَقَبَةٍ } مُطْلَقٌ من أيِّ قَيْدٍ، فلو أعتق المظاهرُ رَقَبَةً على أيِّ وصفٍ أجزاء مؤمنة كانت أو كافرةً، خلافاً للشافعية والمالكية .

2. قوله تعالى في أحكام الموارِيث: { مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ } [النساء: 11]، فلفظُ { وَصِيَّةٍ } مُطْلَقٌ وردَ الدَّلِيلُ من السُّنَّةِ بتقييده بالتُّلُثِ، كما في حديثِ سعدِ بنِ أبي وقاصٍ رضي الله عنه قال: كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يعوذني عامَ حَجَّةِ الوداعِ من وَجَعٍ اشتدَّ بي، فقلتُ: إنِّي قد بلغَ بي من الوجعِ وأنا ذو مالٍ، ولا يرثني إلا ابنةً، أفأتصدَّقُ بثُلثي مالي؟ قال: (لا) فقلتُ بالشُّطْرِ؟ فقال: (لا) ، ثم قال: (الثُّلُثُ والثُّلُثُ كبيرٌ (أو كثيرٌ)، إنَّك أن تذرَ ورثتَكَ أغنياءَ خيرٌ من أن تذرهم عالةً يتكفِّفون النَّاسَ²).

• ثانيا : دلالة المقيد: يجبُ العملُ بالمقيد إلا إذا قامَ دليلٌ على إلغائه.

الأمثلة:

¹ - ينظر: شرح الكوكب المنير (3/ 392)، المحصول (2/ 521)، الإحكام للأمدي (3/ 3)، كشف الأسرار (2/ 286)، حاشية البناني على جمع الجوامع (2/ 44)، فواتح الرحموت (1/ 360)، شرح تنقيح الفصول ص 266، إرشاد الفحول ص 164، أصول الفقه الإسلامي، الزحيلي (1/ 208).

² - الحديث متفقٌ عليه.

1. قوله تعالى في كَفَّارَةِ الظَّهَارِ: { فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامَ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَا } [المجادلة: 4]، فقوله: { مُتَتَابِعَيْنِ } قيدٌ يجبُ إعماله، فلا تُجزئ الكفَّارَةُ لو صامَ شهرين مُقطَّعين.

2. وقوله تعالى: { وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ } [النساء: 23]، فقوله: { فِي حُجُورِكُمْ } قيدٌ لكنه لا أثر له وإنما خرج مخرج الغالب، لأنَّ بنتَ الزَّوْجَةِ تَكُونُ غالبًا مع أُمِّهَا، على هذا جمهورُ العلماءِ أنَّ بنتَ الزَّوْجَةِ المدخولِ بها محرَّمةٌ بمجردِ الدُّخُولِ بِأُمِّهَا كانت في بيتِ الزَّوْجِ وتحت رعايته أو كانت في موضعٍ بعيدٍ لا شأنَ له بها، لكن ذهب أميرُ المؤمنين عليٌّ رضي الله عنه إلى إعمالِ هذا القيدِ بناءً على الأصل، وتابعه على قوله الظَّاهريَّةُ.

فعن مالك بن أوس بن الحدثان قال: كانت عندي امرأة فتوفيت، وقد ولدت لي، فوجدت عليها، فلقيني علي بن أبي طالب فقال: مالك؟ قلت: توفيت المرأة، فقال علي: لها ابنة؟ قلت: نعم، وهي بالطائف، قال: كانت في حُجْرِكَ؟ قلت: لا، هي بالطائف، قال: فانكحها، قلت: فأين قولُ الله: { وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ } قال: إنَّها لم تكن في حُجْرِكَ، إنَّما ذلك إذا كانت في حُجْرِكَ¹.

*المطلب الثالث: متى يُحمل المطلق على المقيد؟

- إذا ورد نصان أحدهما مطلق، والثاني مقيد، فاتفق العلماء على جواز حمل المطلق على المقيد في حالات، ومنعه في حالات، ولكن عند حمل المطلق على المقيد اختلفوا في صورته وشروطه.

- إذا وردَ القيدُ مُقْتَرَنًا بِاللَّفْظِ، فَالْقَاعِدَةُ: وَجُوبُ إِعْمَالِ الْقَيْدِ، وَلَكِنْ إِذَا جَاءَ الْقَيْدُ مُنْفَصِلًا عَنِ الْإِطْلَاقِ، بَأَنْ يَجِيءَ هَذَا فِي نَصِّ، وَهَذَا فِي نَصِّ آخَرَ، فَلَهُ أَرْبَعُ حَالَاتٍ:

1. إِذَا اتَّحَدَ فِي الْحُكْمِ وَالسَّبَبِ، فَيَجِبُ حَمْلُ الْمُطْلَقِ عَلَى الْمَقْيَدِ.

مثاله: قوله تعالى: { حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالِدُ وَالْحُنْزِيرُ } [المائدة: 3]، مع قوله: { قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خُنْزِيرٍ } [الأنعام: 145]، فالسبب واحد وهو وجود الضرر في الدم، والحكم متحد، وهو حرمة تناول الدم، والنص الأول مطلق "والدم" والنص الثاني مقيد "دمًا مسفوحًا" فيحمل المطلق على

¹ - أخرجه ابن أبي حاتم كما في (تفسير ابن كثير) 513/1 بإسنادٍ صحيح.

المقيد، ويكون الدم المحرم هو المسفوح، أما الباقي في العروق واللحم فهو مباح مغفو عنه، وكذلك الدم الجامد وهو الكبد والطحال فهما حلالان.

ومثال آخر: قوله تعالى في التيمم: {فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ} [المائدة: 6]، وفي آية أخرى في التيمم: {فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ} [النساء: 43]، فالسبب واحد وهو إرادة الصلاة، والحكم واحد وهو وجوب المسح، والآية الأولى فيها إطلاق للمسوح به وهو التراب مطلقاً (طاهراً أو نجساً)، والآية الثانية مقيدة بالصعيد الطيب (أي التراب الطاهر) فيحمل المطلق على المقيد، ويجب مسح الوجه والكفين بالتراب الطاهر، لا النجس¹.

2. إذا اختلفا في الحكم والسبب، فلا يُحملُ المطلقُ على المقيدِ.

مثالُهُ: قوله تعالى: { وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا } [المائدة: 38] مع قوله: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ } [المائدة: 6]، فلفظ (الأيدي) مطلق في الآية الأولى، ومقيد في الآية الثانية، لكنَّ حكمَ الأولى وجوبُ قطع الأيدي، وسببها السرقة، وحكمُ الثانية وجوبُ غسل الأيدي، وسببها القيامُ إلى الصلاة. فعلاقة التأثير منعدمةٌ بينَ الحكمين، فلا يصحُّ حملُ المطلقِ على المقيدِ.

ولذا روي في السنة تقييدُ القطع بالكفِّ إلى الرُسخ، وهذا وإن كانَ النَّقلُ بخصوصه لا يثبتُ به إسناده، لكنَّهُ لم يُنقلْ غيرهُ والرَّوايةُ فيه ليستُ بساقطةٍ، وهو المرويُّ فعلُهُ عن أصحابِ النَّبيِّ - صلى الله عليه وسلم -، وقد اعتضدَ بأصلٍ شرعيٍّ، ذلك أنَّ لفظ (اليد) يُرادُ به الكفُّ، كما يُرادُ به إلى المرفقِ، كما يُرادُ به إلى المنكبِ، والحدُّ يسفُطُ بالشُّبهةِ، كما لا يتجاوزُ به قدرُ اليقينِ، واليقينُ ههنا بقطعِ أدنى ما يُسمَّى يداً، وبه يتحقَّقُ المقصودُ.

ومثال آخر: قوله تعالى في كفارة القتل الخطأ: {فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ} [النساء: 92]، وقوله تعالى في كفارة اليمين: {فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةٌ لِأَيْمَانِكُمْ} [المائدة: 89]، فالسبب مختلف، وهو القتل، والحنث في اليمين، والحكم مختلف: شهرين، ثلاثة أيام، وورد الصيام الأول مقيداً بالتتابع، والثاني مطلقاً عن التتابع، فلا يحمل المطلق على المقيد، إلا أن الحنفية اشترطوا التتابع في صيام كفارة اليمين بقراءة ابن مسعود الشاذة: {فصيام ثلاثة أيام متتابعات}.

3. إذا اختلفا في الحكم واتَّحدا في السببِ، فلا يُحملُ المطلقُ على المقيدِ.

مثالُهُ قوله تعالى: { فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ } [المائدة: 6]، مع قوله قبل ذلك في الآية: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا

¹ - ينظر: أصول الفقه الإسلامي، الزحيلي (1/ 213).

وَجُوهَكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ { فلفظُ (الأيدي)، في الموضعِ الأوَّلِ مُطلقٌ، وفي الثاني مقيدٌ (إلى المرافق)، السَّبَبُ مُتَّحِدٌ فِي النَّصِّينِ، فَكِلَاهُمَا فِي الْقِيَامِ إِلَى الصَّلَاةِ لَكِنَّ الْحُكْمَ مُخْتَلَفٌ فِي الْأَوَّلِ وَجُوبُ النَّيِّمِ لِلصَّلَاةِ عِنْدَ فَقْدِ الْمَاءِ، وَفِي الثَّانِي وَجُوبُ الْوُضُوءِ.

فَلَا يَصِحُّ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ أَنْ يُقَالَ: تُمَسَّحُ الْأَيْدِي فِي النَّيِّمِ إِلَى الْمَرَافِقِ، حَمَلًا لِلْمُطْلَقِ فِي نَصِّ النَّيِّمِ عَلَى الْمَقْيَدِ فِي نَصِّ الْوُضُوءِ.

وَلِذَا جَاءَتْ السُّنَّةُ بِعَدَمِ اعْتِبَارِهَا هَذَا الْقَيْدِ فِي النَّيِّمِ خِلَافًا لِلْحَنْفِيَّةِ وَالشَّافِعِيَّةِ وَمِنْ وَافِقِهِمْ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لِعَمَّارِ بْنِ يَاسِرٍ: (إِنَّمَا كَانَ يَكْفِيكَ أَنْ تَضْرِبَ بِيَدَيْكَ الْأَرْضَ، ثُمَّ تَنْفُخَ، ثُمَّ تَمْسَحَ بِهِمَا وَجْهَكَ وَكَفْيَكَ¹) وَهُوَ قَوْلُ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، وَجَمَاعَةٍ مِنَ التَّابِعِينَ وَمَذْهَبُ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ وَكَثِيرٍ مِنْ أَهْلِ الْحَدِيثِ، وَمَا رُوِيَ مِنَ الْأَحَادِيثِ فِي أَنَّ النَّيِّمَ إِلَى الْمَرْفِقَيْنِ، فَلَا يَثْبُتُ مِنْهُ شَيْءٌ مِنْ قَبْلِ الرَّوَايَةِ.

4. إِذَا اتَّحَدَ فِي الْحُكْمِ وَاخْتَلَفَا فِي السَّبَبِ، فَلَا يُحْمَلُ الْمُطْلَقُ عَلَى الْمَقْيَدِ.

مِثَالُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي كَفَّارَةِ الظَّهَارِ: { وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَا } [المجادلة: 3]، مَعَ قَوْلِهِ فِي كَفَّارَةِ قَتْلِ الْخَطَا: { فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ } [النساء: 92]، فَلَفْظُ (رَقَبَةٍ) فِي الْآيَةِ الْأُولَى مُطْلَقٌ، وَفِي الثَّانِيَةِ مَقْيَدٌ بِالْإِيمَانِ، الْحُكْمُ وَاحِدٌ هُوَ: الْكَفَّارَةُ، وَالسَّبَبُ مُخْتَلَفٌ، فَالْأُولَى الظَّهَارُ، وَالثَّانِيَةُ الْقَتْلُ.

فَلَا يَصِحُّ فِي هَذَا الْحَالَةِ حَمْلُ الْمُطْلَقِ عَلَى الْمَقْيَدِ عِنْدَ الْحَنْفِيَّةِ وَمِنْ وَافِقِهِمْ خِلَافًا لِلشَّافِعِيَّةِ، يُؤَيِّدُ ذَلِكَ فِي الْمِثَالِ الْمَذْكُورِ أَنَّ الْكَفَّارَةَ عَقُوبَةٌ شُرِعَتْ لِعَلَّةٍ، وَلِكَلِّ حُكْمٍ عَلَتْهُ الْمُنَاسَبَةُ لَهُ، قَدْ تَطَهَّرَ وَقَدْ تَخَفَى، وَلَعَلَّ الْمَقَامَ هُنَا أَنْ شُدِّدَ فِي كَفَّارَةِ الْقَتْلِ لَشِدَّةِ أَمْرِهِ بِخِلَافِ الظَّهَارِ، وَالْقَيْدُ فِي هَذَا الْحُكْمِ تَشْدِيدٌ كَمَا لَا يَخْفَى، وَاللَّهُ تَعَالَى رَحِيمٌ بَعْبَادِهِ، فَحَيْثُ لَمْ يُشَدِّدْ فَلَا يُقَالُ: أَرَادَ هُنَا التَّشْدِيدَ لِكُونِهِ شَدَّدَ فِي حُكْمٍ آخَرَ مِثَالِ هَذَا الْحُكْمِ فِي مُسْمَاهُ، فَتِلْكَ زِيَادَةٌ فِي الشَّرْعِ وَمَشَقَّةٌ عَلَى الْأُمَّةِ².

¹ - متفقٌ عليه.

² - ينظر: في حمل المطلق على المقيد وعدمه في الحالات والصور السابقة في: المحصول (2/ 214)، الإحكام للأمدى (3/ 4)، المستصفي للغزالي (2/ 185)، البناني على جمع الجوامع (2/ 57)، كشف الأسرار (2/ 287)، المعتمد أبو الحسين النصري المعتزلي (1/ 312)، شرح الكوكب المنير للفتوحى (3/ 395)، العدة لأبي يعلى (2/ 636)، روضة الناظر، ابن القيم ص 366، إرشاد الفحول للشوكاني ص 166، شرح تنقيح الفصول للقرافي ص 269، علم أصول الفقه، خلاف ص 192.

الفصل الثالث عشر: فواتح وخواتيم السور، والمناسبات

المبحث الأول: فواتح السور:

قال السيوطي⁽¹⁾: قال أهل البيان، من البلاغة حسن الابتداء، وهو أن يتأق في أول الكلام؛ لأنه أول ما يقرع السمع، فإن كان محرراً، أقبل السامع على الكلام ووعاه، وإلا أعرض عنه. ولو كان الباقي في نهاية الحسن، فينبغي أن يؤتى فيه بأعذب لفظ وأجزله، وأرقه وأسلسه، وأحسنه نظماً وسبكاً، وأصح معنى وأوضحه، وأحلاه من التعقيد، والتقديم والتأخير المناسب أو الذي لا يناسب.

قالوا: وقت أتت جميع فواتح السور على أحسن الوجوه وأبلغها وأكملها، كالتحميدات وحروف الهجاء والنداء وغير ذلك.

ومن الابتداء الحسن: نوع أخص منه، يسمى براعة الاستهلال، وهو أن يشتمل أول الكلام على ما يناسب الحال المتكلم فيه، ويشير إلى ما سبق الكلام لأجله. والعلم الأسنى في ذلك "سورة الفاتحة" التي هي مطلع القرآن، فإنها مشتملة على جميع مقاصده، كما روى البيهقي عن الحسن قال: أنزل الله تعالى مائة وأربعة كتب، أودع علومها أربعة منها: التوراة، والإنجيل، والزيور، والفرقان، ثم أودع علوم التوراة والإنجيل والزيور: الفرقان، ثم أودع علوم القرآن: المفصل، ثم أودع علوم المفصل: فاتحة الكتاب، فمن علم تفسيرها، كان كمن علم جميع علم تفسير جميع الكتب المنزلة.

وقد وجه ذلك بأن العلوم التي احتوى عليها القرآن وقامت بها الأديان أربعة:

1- علم الأصول ومداره على معرفة الله تعالى وصفاته، وإليه الإشارة ب: (الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (2) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) [الفاتحة: 2-3]، ومعرفة النبوات وإليه الإشارة ب: (صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ) [الفاتحة: 7]، ومعرفة المعاد، وإليه الإشارة ب: (مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ) [الفاتحة: 4].

2- وعلم العبادات وإليه الإشارة ب: (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) [الفاتحة: 5].

3- وعلم السلوك وهو حمل النفس على الآداب الشرعية والانقياد لرب البرية وإليه الإشارة: () اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ) [الفاتحة: 6].

4- علم القصص والاطلاع على أخبار الأمم السالفة والقرون الماضية، ليعلم المطلع على ذلك سعادة من أطاع الله وشقاوة من عصاه، وإليه الإشارة بقوله: (صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ) [الفاتحة: 7]، فنبه في الفاتحة على جميع مقاصد القرآن،

(1) الإتيان، للسيوطي، النوع الستون، 106/2 .

وهذا هو الغاية في براعة الاستهلال، مع ما اشتملت عليه من الألفاظ الحسنة والمقاطع المستحسنة وأنواع البلاغة.

ولقد افتتح الله سور القرآن بعشرة أنواع من الكلام لا يخرج شيء من السور عنها:
أولاً: التناء عليه تعالى ويشمل:

أ- التحميد[5 سور] هي: الفاتحة - الأنعام - الكهف - سبأ - فاطر.

ب-تبارك [سورتان] وهما: الفرقان- الملك.

ج-التسبيح [7 سور] وهي: الإسراء -الحديد - الحشر -الصف -الجمعة -التغابن -
الأعلى.

ثانياً: حروف التهجي وتشمل [29 سورة] هي: البقرة - آل عمران - الأعراف - يونس - هود

- يوسف - الرعد - إبراهيم - الحجر - مريم - الشعراء - النمل - القصص -

العنكبوت - الروم - لقمان - السجدة - ص - غافر - فصلت - الثورى - الزخرف -

الدخان - الجاثية - الأحقاف - ق - ن - بالإضافة الى يس - طه.

ثالثاً: النداء وتشمل [10 سور] منها:

[5 سور] ببناء الرسول p وهي: الأحزاب - الطلاق - التحريم - المزمل - المدثر.

[5 سور] ببناء الأمة الإسلامية وهي: النساء - المائدة - الحج - الحجرات - الممتحنة.

رابعاً: الجمل الخبرية وتشمل [21 سورة] هي: الأنفال - براءة - النحل - الأنبياء -

المؤمنون - النور - الزمر - محمد - الفتح - القمر - الرحمن - المجادلة - الحاقة -

المعارج - نوح - عبس - القدر - البينة - القارعة - التكاثر - الكوثر.

خامساً: القسم ويشمل [17 سورة] هي: الصافات - الذاريات - الطور - النجم - المرسلات

- النازعات - البروج - الطارق - الفجر - الشمس - الليل - الضحى - التين -

العاديات - العصر. إضافة إلى القيامة - البلد.

سادساً: الشرط يشمل [7 سور] هي: الواقعة - المنافقون - التكوير - الانفطار - الانشقاق -

الزلزلة - النصر.

سابعاً: الأمر ويشمل [6 سور] هي: الجن - اقرأ - الكافرون - الصمد - الفلق - الناس.

ثامناً: الاستفهام ويشمل [6 سور] هي: الإنسان - عم - الغاشية - الشرح - الفيل -

الماعون.

تاسعاً: الدعاء ويشمل [3 سور] هي: المطففين - الهمة - المسد.

عاشراً: التعليل ويشمل سورة واحدة هي: قريش.

المبحث الثاني: خواتم السور:

هي أيضا مثل الفواتح في الحسن؛ لأنها آخر ما يقرع الأسماع، فلهذا جاءت متضمنة للمعاني البديعة من إيذان السامع بانتهاء الكلام، حتى لا يبقى معه للنفوس تشوف إلى ما يذكر بعد؛ لأنها بين أدعيه ووصايا وفرائض وتحميد وتهليل ومواظب، ووعود ووعيد إلي غير ذلك، كتفصيل جملة المطلوب في خاتمة الفاتحة، إذ المطلوب الأعلى: الإيمان المحفوظ من المعاصي المسببة لغضب الله والضلال، ففصل جملة ذلك بقوله [الذين أنعمت عليهم] والمراد: المؤمنون، ولذلك أطلق الإنعام ولم يقيده، ليتناول كل إنعام؛ لأن من أنعم الله عليه بنعمة الإيمان، فقد أنعم عليه بكل نعمة؛ لأنها مستتعبة لجميع النعم، ثم وصفهم بقوله [غير المغضوب عليهم ولا الضالين] يعني أنهم جمعوا بين النعم المطلقة، وهي نعمة الإيمان وبين السلامة من غضب الله تعالى والضلال المسببين عن معاصيه وتعدي حدوده.

وكالدعاء الذي اشتملت عليه الآيتان من آخر سورة البقرة.

وكالوصايا التي ختمت بها سورة آل عمران: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) [آل عمران: ٢٠٠] ، والفرائض التي ختمت بها سورة النساء، وحسن الختم بها لما فيها من أحكام الموت الذي هو آخر أمر كل حي، ولأنها آخر ما نزل من الأحكام. والتبجيل والتعظيم الذي ختمت به المائدة.

وكالوعد والوعيد الذي ختمت الأنعام، وكالتحريض على العبادة بوصف حال الملائكة الذي ختمت به الأعراف، وكالحض على الجهاد وصلة الأرحام الذي ختمت به الأنفال. وكوصف الرسول ومدحه، والتهليل الذي ختمت به براءة، وتسليته عليه الصلاة والسلام في خاتمة يونس وهود، ووصف القرآن ومدحه الذي ختمت به يوسف، والوعيد والرد على من كذب الرسول الذي ختمت به الرعد.

ومن أوضح ما أذن بالختام خاتمة إبراهيم: (هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ) [إبراهيم: ٥٢]، ومثلها خاتمة الأحقاف، وكذا خاتمة الحجر بقوله: (وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ) [الحجر: ٩٩].

وانظر إلى سورة الزلزلة، كيف بدأت بأهوال القيامة وختمت بقوله تعالى: (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (7) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ) (الزلزلة: ٧ - ٨) ، وانظر إلى براءة آخر آية نزلت، وهي قوله تعالى: (وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ) [البقرة: ٢٨١]، وما فيها من الإشعار بالآخيرية المستلزمة للوفاة، وكذا آخر سورة نزلت، وهي سورة النصر" وفيها الإشعار بالوفاة، كما أخرج البخاري من طريق سعيد بن جبير، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

سَأَلَهُمْ عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: (إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ) [النصر: ١]، قَالُوا: فَتُخَ الْمَدَائِنِ وَالْقُصُورِ، قَالَ: مَا تَقُولُ يَا ابْنَ عَبَّاسٍ؟ قَالَ: أَجَلٌ، أَوْ مَثَلٌ ضَرِبَ لِمَحَمَّدٍ ρ، نُعِيَتْ لَهُ نَفْسُهُ⁽¹⁾.

المبحث الثالث: المناسبات بين الآيات والسور:

إن معرفة المناسبة بين الآيات تساعد على حسن التأويل، ودقة الفهم، ولذا أفرد بعض العلماء هذا المبحث بالتصنيف⁽²⁾.

المطلب الأول: تعريف المناسبة :

المناسبة في اللغة: المقاربة والمشاكله⁽³⁾، يقال فلان يناسب فلاناً، أي: يقرب منه ويشاكله منه المناسبة في العلة في باب القياس، وهي الوصف المقارب للحكم⁽⁴⁾

وفي الاصطلاح: هي الرابطة بين شيئين بأي وجه من الوجوه. وفي كتاب الله تعني ارتباط السورة بما قبلها وما بعدها. وفي الآيات تعني وجه الارتباط في كل آية بما قبلها وما بعدها⁽⁵⁾. والمراد بالمناسبة هنا: وجه الارتباط بين الجملة في الآية الواحدة -أو بين الآية والآية في الآيات المتعددة، أو بين السورة والسورة. والربط: عام أو خاص، عقلي أو حسي أو خيالي أو غير ذلك من أنواع العلاقات أو التلازم الذهني⁽⁶⁾.

المطلب الثاني: أهمية علم المناسبات: ⁽⁷⁾

1. يعد علم المناسبات من أشرف العلوم العظيمة؛ لأنه يتعلق بكتاب الله تعالى فهو علم دقيق يحتاج إلى فهم واضح لمقاصد القرآن الكريم وأهدافه، وتدقيق لنظمه، ولبيان المعجز.
2. يبين مدى ارتباط الكلام ببعضه ببعض.

(1) صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا، 179/6، ح4969.

(2) ممن صنف فيه أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير الأندلسي النحوي (ت807هـ) في كتاب سماه "البرهان في مناسبة ترتيب سور القرآن" وللشيخ برهان الدين البقاعي كتاب في هذا سماه "نظم الدرر في تناسب الآيات والسور". وينظر هذا المبحث "البرهان في علوم القرآن، الزركشي، 35/1.

(3) مقاييس اللغة لابن فارس 324/5 والصاحح، للجوهري 422/1 .

(4) أصول الفقه لأبي زهرة، ص241 ط دار الفكر العربي.

(5) مباحث في التفسير الموضوعي: الدكتور مصطفى مسلم، ص ٥٨، الطبعة الأولى ١٤١٠ هـ ١٩٨٩ م .

(6) ينظر: الإتيان، للسيوطي، 139/2.

(7) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للباقعي 6/1 البرهان في علوم القرآن، الزركشي، 1 / 62، مباحث في التفسير الموضوعي، لمسلم، ص ٥٨ .

٣ - تكميل المقصود من كل سورة وفهم المراد من القرآن

٤ - يعين على فهم معنى الآيات القرآنية وتحديد المراد منها

٥ - معرفة المناسبة مفتاح لكثير من كنوز القرآن وحكمه:

٦ - إظهار أسرار الإعجاز القرآني والكشف عن كنوزه:

قال الزركشي: "وفائدته جعل أجزاء الكلام بعضها آخذًا بأعناق بعض، فيقوى بذلك الارتباط، ويصير التأليف، حاله حال البناء المحكم المتلائم الأجزاء⁽¹⁾. تتوقف معرفة المناسبات والربط بين الآيات على، اجتهاد المفسر، ومعرفته بإعجاز القرآن، وأسراره البلاغية.

ولا يعني أن يُلتَمَس لكل آية مناسبة، فإنَّ القرآن الكريم نزل منجمًا حسب الوقائع والأحداث، وقد يدرك المفسر ارتباط آياته وقد لا يدركها، فلا ينبغي أن يعتسف المناسبة اعتسافًا، وإلا كانت تكلفًا ممقوتًا.

قال الشيخ عز الدين بن عبد السلام⁽²⁾: "المناسبة علم حسن، ولكن يشترط في حسن ارتباط الكلام أن يقع في أمر متحد مرتبط أوله بآخره، فإن وقع على أسباب مختلفة لم يشترط فيه ارتباط أحدها بالآخر".

ثم قال: "ومن ربط بين ذلك فهو متكلف بما لا يقدر عليه إلا برباط ركيك، يسان عنه حسن الحديث فضلاً عن أحسنه، فإن القرآن نزل في نيف وعشرين سنة في أحكام مختلفة ولأسباب مختلفة، وما كان كذلك لا يأتي ربط بعضه ببعض⁽³⁾.

المطلب الثالث: عناية المفسرين بعلم المناسبة

وقد عنى بعض المفسرين ببيان المناسبة بين الجمل، أو بين الآيات، أو بين السور⁽⁴⁾ واستنبطوا وجوه ارتباط دقيقة.

فالجملة قد تكون تأكيدًا لما قبلها، أو بيانًا، أو تفسيرًا أو اعتراضًا تذييليًا - ولهذا أمثلته كثيرة.

(1) البرهان في علوم القرآن، الزركشي، 1/ 36.

(2) الملقب بسلطان العلماء، توفي سنة 660هـ، . طبقات الشافعية، السبكي، 5/ 80.

(3) البرهان في علوم القرآن، الزركشي، 1/ 37 .

(4) وجه الارتباط بين السور مبني على أن ترتيب السور توقيفي، وقد اختلف العلماء في ذلك، وسبق عرضها في الفصل الرابع.

وللآية تعلقها بما قبلها على وجه من وجوه الارتباط يجمع بينهما، كالمقابلة بين صفات المؤمنين وصفات المشركين، ووعده هؤلاء ووعيد أولئك، وذكر آيات الرحمة بعد آيات العذاب، وآيات الترغيب بعد آيات الترهيب، وآيات التوحيد والتتزيه بعد الآيات الكونية، وهكذا...

المبحث الرابع: أنواع المناسبات.

المطلب الأول: المناسبة بين أول السورة وخاتمة ما قبلها:

وقد تكون المناسبة بين السورة والسورة، كافتتاح سورة "الأنعام" بالحمد: (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ) [الأنعام: 1] فإنه مناسب لختم سورة المائدة في الفصل بين العباد ومجازاتهم: (إِنَّ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَعَفَّرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) [المائدة: 118-120]. إلى آخر السورة.

وكافتتاح سورة الحديد بالتسبيح: (سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) [الحديد: 1] فإنه مناسب لختام سورة الواقعة في الأمر به ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ [الواقعة: 96] وكارتباط سورة: (لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ) بسورة "الفيل" فإن هلاك أصحاب الفيل كانت عاقبة تمكين قريش من رحلتها شتاءً وصيفاً، حتى قال أخفش، اتصالها بها من باب قوله تعالى: (فَأَلْتَقِطُهُ أَلْ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا) [القصص: 8].

المطلب الثاني: المناسبة بين فواتح السور وخواتمها:

وقد تكون المناسبة بين فواتح السور وخواتمها... ومن ذلك ما في سورة "القصص" فقد بدأت بقصة موسى، وبيان مبدأ أمره ونصره، ثم ما كان منه عندما وجد رجلين يقتتلان وحكي الله دعاءه: (قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ) [القصص: 17] ثم ختم الله السورة بتسليية رسولنا μ لخروجه من مكة والوعد بعودته إليها، وينهيه عن أن يكون ظهيراً للكافرين: (إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (85) وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ) [القصص: 85-86].

المطلب الثالث: مناسبة الآية لما قبلها ولما بعدها:

مثال ذلك قوله تعالى: (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) {الفاصلة: 5} فإنه لما ذكر في أول استحقاق الله تعالى لكل المحامد، وكونه رباً للعالمين، وهو الرحمن الرحيم، وهو مع كل هذا، الملك المتصرف في اليوم الذي لا ملك فيه لأحد إلا لله. كان من شأن كل عاقل أن يقبل على من هذه صفاته وتلك عظمته، معترفاً بالعبودية له، والدُّلُّ الكامل لجناحه العظيم، ملتجئاً إليه،

طالباً منه العون والمدد، ثم إنّه لما حمد وأثنى، ومجد، واعترف بالعبودية، ناسب أن يستشرف للطلب من ذلك الرب المستعان، فيقول (اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ) [الفاتحة: 6] (1).

المطلب الرابع: المناسبة بين الآية وفاصلتها:

مثال ذلك قوله تعالى: (وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) [المائدة: 38]، وتتضح مناسبة فاصلة هذه الآية لمضمونها فيما يأتي فقد روي أن بعض الأعراب سمع قارئاً يقرأ: والسارق والسارقة إلى آخرها وختمها بقوله: والله غفور رحيم فقال: ما هذا كلام فصيح، فقيل له: ليس التلاوة كذلك، وإنما هي والله عزيز حكيم فقال: بخ، عز فحكم فقطع، ولو غفر ورحم لما قطع (2).

المطلب الخامس: وقد تكون المناسبة في مراعاة حال المخاطبين.

كقوله تعالى: (أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (17) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (18) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (19) وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ) [الغاشية: 17-20] فجمع بين الإبل والسماء والجبال، مراعاة لما يجري عليه الإلف والعادة بالنسبة إلى المخاطبين في البادية، حيث يعتمدون في معاشهم على الإبل، فتتصرف عنايتهم إليها، ولا يتأتى لهم ذلك إلا بالماء الذي ينبت المرعى وترده الإبل، وهكذا يكون بنزول المطر، وهو سبب تقلب وجوههم في السماء، ثم لا بد لهم من مأوى يتحصنون به ولا شيء أمنع كالجبال، وهم يطلبون الكلاء والماء فيرحلون من أرض ويهبطون أخرى، ويتنقلون من مرعى أجذب إلى مرعى أخصب، فإذا سمع أهل البادية هذه الآيات، خالطت شغاف قلوبهم بما هو حاضر لا يغيب عن أذهانهم.

(1) ينظر: نظم الدرر، 17/1.

(2) البحر المحيط، لأبي حيان، 255/4، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، 87/3 .

أسئلة للمناقشة

- 1) قال أهل البيان: (من البلاغة حسن الابتداء)، اشرح هذه العبارة.
- 2) ما المراد من براعة الاستهلال؟
- 3) استخرج من الآيات الآتية العلوم التي احتوى عليها القرآن الكريم وبها قامت الأديان:
- 4) (الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (2) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) [الفاتحة:2-3].
- 5) (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) [الفاتحة:5].
- 6) (اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ) [الفاتحة: ٦].
- 7) (صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ) [الفاتحة:٧].
- 8) اذكر السور التي افتتحت بالتحميد، والسور التي افتتحت بالتسبيح.
- 9) ما السور التي افتتحت بثناء الرسول صلى الله عليه وسلم ؟
- 10) عرّف المناسبة في اللغة والاصطلاح .
- 11) بيّن أهمية علم المناسبات .
- 12) كان للمفسرين عناية كبيرة بعلم المناسبات، دلل على ذلك.
- 13) بيّن المناسبة بين سورة الواقعة وسورة الحديد.
- 14) اذكر آية من القرآن الكريم، ثم بيّن المناسبة بينها وبين فاصلتها.
- 15)
- 16)
- 17)
- 18)
- 19)
- 20)
- 21)
- 22)
- 23)
- 24)
- 25)
- 26)
- 27)
- 28)
- 29) الفصل الرابع عشر: إعجاز القرآن الكريم.

(30) تمهيد:

(31) قد جرت حكمة الله الأزلية، أن يؤيد أنبياءه ورسله بالمعجزات الباهرات، والدلائل الواضحات، والحجج والبراهين الدامغة، التي تدل على صدقهم، وعلى أنهم أنبياء مرسلون من عند الله العزيز القدير.

(32) وقد خص الله تبارك وتعالى: نبينا محمداً ρ بالمعجزة العظمى (القرآن الكريم)، ذلك النور الرباني، والوحي السماوي الذي ألقاه على قلب نبيه، قرآناً عربياً غير ذي عوج، يتلوه آناء الليل وأطراف النهار، والذي أحيا به أجيالاً من العدم، كانت في عداد الموتى، فأحياها الله بنور هذا القرآن، وهداها أقوم طريق، فجعلها خير أمة أخرجت للناس، وصدق الله حيث يقول: (أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) [الأنعام: 122].

(33) ولئن كانت معجزة الأنبياء السابقين معجزات "حسية"، تتناسب مع العصر والزمان، الذي بعثوا فيهما، كمعجزة (موسى) عليه السلام، حيث كانت (اليد والعصا)؛ لأنه بعث في زمن كثر فيه السحرة، واشتهر فيه السحر، وكذلك معجزة (عيسى) عليه السلام، حيث كانت بإحياء الموتى، وإبراء الأكمه (1). والأبرص، والإخبار عن بعض المغيبات؛ لأنه بعث في عصر، كثر فيه الطب والحكمة، وظهر فيه الأطباء البارعون، فأتاهم عيسى بن مريم عليه السلام، بما أدهشهم وأعجزهم من شفاء المرضى، وإحياء الموتى وإبراء العمي والبكم والصم (2).

(34) أقول: إذا كانت معجزات الأنبياء السابقين معجزات (مادية حسية) (3)، فإن معجزة محمد بن عبدالله معجزة (روحية عقلية) وقد خصه الله بالقرآن، معجزة العقل الباقي على الزمان، ليراها ذوو القلوب والبصائر فيستتبروا بضيائها وينتفعوا بهديها في المستقبل والحاضر، فقد ورد عن سيد المرسلين أنه قال: " ما من نبي من الأنبياء إلا أعطي من

(1) أي: الأعمى، قال تعالى: (وأبرئ الأكمه والأبرص، وأحيي الموتى بإذن الله) [آل عمران: 49].

(2) ينظر في الحديث عن بعض معجزات النبي، ρ : جامع البيان للطبري، 51/12، تفسير ابن كثير 4/ 427، صحيح البخاري، باب: انشقاق القمر، ح 3656، فتح الباري، لابن حجر، لابن حجر، 41/9، في قوله تعالى: (اقتربت الساعة وانشق القمر)، والترمذي، باب: مناقب أبي هريرة، ح 4003، وقال: حسن غريب (تكثر التمر لأبي هريرة) وغيرها .

(3) ينظر: مباحث في إعجاز القرآن، مصطفى مسلم، ص22، فكرة إعجاز القرآن، نعيم الحمصي، ص13.

الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً، أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً"⁽¹⁾.

المبحث الأول: تعريف الإعجاز وإثباته.

المطلب الأول : تعريف الإعجاز:

الإعجاز: إثبات العجز، والعجز في التعارف: اسم للقصور عن فعل الشيء، وهو ضد القدرة، وإذا ثبت الإعجاز، ظهرت قدرة المعجز، والمراد بالإعجاز هنا: إظهار صدق النبي ρ في دعوى الرسالة بإظهار عجز العرب عن معارضته في معجزته الخالدة - وهي القرآن - وعجز الأجيال بعدهم⁽²⁾.

والمعجزة: أمر خارق للعادة، مقرون بالتحدي، سالم عن المعارضة، دال على صدق مدعى النبوة. وسميت معجزة؛ لأن البشر يعجزون عن الإتيان بمثلاً⁽³⁾.

وهناك فرق بين الكرامة والمعجزة، فالكرامة هي: أمر خارق للعادة، يجريه الله على يد ولي من أوليائه، معونة له على أمر ديني أو دنيوي⁽⁴⁾، وتكون على يد بعض الصالحين، من الملتزمين بأحكام الشريعة إكراماً لهم من الله عز وجل، ولا عصمة لصاحب الكرامة⁽⁵⁾.

والقرآن الكريم تحدى به النبي ρ العرب، وقد عجزوا عن معارضته مع طول باعهم في الفصاحة والبلاغة، ومثل هذا لا يكون إلا معجزاً.

فقد ثبت أن الرسول ρ تحدى العرب بالقرآن على ثلاث مراحل:

أ- تحداهم بالقرآن كله في أسلوب عام يتناولهم ويتناول غيرهم من الإنس والجن تحدياً، يظهر على طاقتهم مجتمعين، بقوله تعالى: (قُلْ لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً) [الإسراء: 88].

ب- ثم تحداهم بعشر سور منه في قوله تعالى: (أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين (13) فإلّم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو فهل أنتم مسلمون) [هود: 13-14].

(1) رواه البخاري، كتاب: فضائل القرآن، باب: كيف نزل الوحي، 182/6، ح 4696 .

(2) ينظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، 4/ 232، لسان العرب، لابن منظور،، ابن منظور، 369/5 .

(3) ينظر: الإتيان، للسيوطي، 116/2.

(4) شرح العقيدة الواسطية، ابن تيمية، 349/1.

(5) ينظر: مقدمة في إعجاز القرآن، د. مروان وحيد شعبان، ص 39.

ج- ثم تحداهم بسورة واحدة منه في قوله تعالى (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) [يونس: 38].

وعجز العرب عن معارضة القرآن مع توفر الدواعي، عجز للغة العربية في ريعان شبابها وعنفوان قوتها.

والإعجاز لسائر الأمم على مرّ العصور، ظل ولا يزال في موقف التحدي شامخ الأنف، فأسرار الكون التي يكشف عنها العالم الحديث، ما هي إلا مظاهر للحقائق العليا التي ينطوي عليها سر هذا الوجود في خالقه ومدبره، وهو ما أجمله القرآن، أو أشار إليه_ فصار القرآن بهذا معجزا للإنسانية كافة.

والإعجاز لا يتحقق إلا إذا توافرت أمور ثلاثة:

أ- الأول: التحدي، أي: (طلب المباراة والمعارضة).

ب- الثاني: أن يكون الدافع إلى رد التحدي قائما.

ج- الثالث: أن يكون المانع منتفيا.

المطلب الثاني: أنواع التحدي⁽¹⁾:

والتحدي الذي جاء في القرآن الكريم كان على نوعين:

1. التحدي العام.

2. التحدي الخاص.

أما الأول: فقد ورد لجميع الخلائق بما فيهم الفلاسفة، والعباقر، والعلماء، والحكماء، وجاء لجميع البشر دون استثناء، عربهم وعجمهم، أبيضهم وأسودهم، مؤمنهم وكافرهم، قال تعالى ﴿ قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء: 88].

أما الثاني: (التحدي الخاص) فقد جاء للعرب خاصة، وعلى الأخص منهم -كفار قريش- وقد ورد هذا التحدي على نوعين أيضا:

1. تحدي كلي: وهو التحدي بجميع القرآن، في أحكامه، وروعته، وبلاغته، وبيانه.

2. تحدي جزئي: وهو التحدي بمثل سورة من سور القرآن الكريم، ولو من أقصر سورة كسورة الكوثر.

المبحث الثاني: شروط المعجزة الإلهية.

(1) تنظر المسألة في: فتح القدير للشوكاني، 644/2، تفسير المراغي، 143/14، مباحث في إعجاز القرآن، مرجع سابق، ص32، المعجزة القرآنية، د. محمد حسن هيتو، ص33.

وللمعجزة شرائط خمسة، نبه عليها العلماء، فإن اختلف منها شرط لا تكون معجزة:

1. الشرط الأول: أن تكون مما لا يقدر عليه إلا الله سبحانه وتعالى.
 2. الشرط الثاني: أن تخرق العادة وتكون مخالفة للسنن الكونية.
 3. الشرط الثالث: أن يستشهد بها مدعي الرسالة على صدق دعواه.
 4. الشرط الرابع: أن تقع على وفق دعوى النبي المتحدي بتلك المعجزة.
 5. الشرط الخامس: ألا يأتي أحد بمثل تلك المعجزة على وجه المعارضة (1).
- فهذه الشروط الخمسة، إن تحققت، كان الأمر الخارق للعادة معجزة دالة على نبوة صاحب الدعوى التي ظهرت المعجزة على يده، وإن لم تتحقق خرجت عن كونها معجزة، ولم تدل على صدق صاحب الدعوى.

***أما الشرط الأول:** فإنه لو أتى آت - في زمان يصح فيه مجيء الرسل - وادعى الرسالة وجعل معجزته أن يقوم ويقعد، ويأكل ويشرب، ويتحرك من مكان إلى مكان، لم يكن هذا الذي ادعاه معجزة، ولا دالا على صدقه، لقدرة الخلق على مثله، وإنما يجب أن تكون المعجزات كفلق البحر، وانشقاق القمر، وإحياء الموتى،...إلى آخره.

***وأما الثاني:** وهو خرق العادة، فلو قال المدعي للنبوة: معجزتي أن تطلع الشمس من المشرق وتغرب من المغرب، وأن يأتي النهار بعد الليل، لم يكن فيما ادعاه معجزة، لأن هذه الأمور وإن كان لا يقدر عليها إلا الله، لكنها لم تفعل من أجله، وقد كانت من قبله، فليس فيها دلالة على صدقه.

***وأما الثالث:** وهو أن يستشهد بها مدعي النبوة، وتحصل عند طلبها تصديقا لدعواه، فلو ادعى إنسان أن معجزته، أن ينقلب الجماد إلى حيوان أو إنسان، ولم ينقلب لا يدل على صدق دعواه.

***وأما الرابع:** وهو أن تقع المعجزة على وفق الدعوى، لا على خلافه؛ لأنها حينذاك تكون تكديبا له، روي أن (مسليمة الكذاب) - لعنه الله - طلب منه أصحابه أن يتقل في بئر، ليكثر فيها الماء، فغارت البئر، فدل على كذبه (2).

(1) ينظر: مقدمة في إعجاز القرآن، د. مروان وحيد شعبان، ص38، تفسير المنار، محمد رشيد رضا، 382/7،

شرح المواقف للجرجاني، 8/ 223 .

(2) ينظر: تفسير القرطبي 70/1.

وأما الخامس: ألا تعارض المعجزة، فإن عورضت، بطل كونها معجزة، ولم تدل على صدق صاحبها، فلو استطاع أحد فلق البحر أو شق القمر، لم تعد معجزة، ولهذا قال تعالى: في خطاب المشركين (فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ) [الطور: 34].

المبحث الثالث: بم كان إعجاز القرآن؟

القرآن العظيم كلام الله المعجز للخلق، في أسلوبه ونظمه، وفي روعته وبيانه، وفي علومه وحكمه، وفي تأثير هدايته، وفي كشفه الحجب عن الغيوب الماضية والمستقبلية. ولقد جاء العلماء في كشف أسرار البيان عن إعجاز القرآن، بعد أن ثبتت عندهم بالوجدان والبرهان، وقد أجمع أهل العربية قاطبة، وأهل اللسن منهم والبيان، على أن القرآن (معجز بذاته) أي: أن إعجازه إنما كان بفصاحة ألفاظه، وروعة بيانه، وأسلوبه الفريد، الذي لا يشابهه فيه أسلوب، لا من نثر، ولا من شعر، ومسحته اللفظية الخلافة، التي تتجلى في نظامه الصوتي، وجماله اللغوي، وبراعته الفنية.

مذهب أهل الصّرفة:

وقد ذهب بعض المعتزلة منهم (أبو إسحاق النّظام) إلى أن إعجاز القرآن إنما كان بـ (الصّرفة)، بمعنى أن الله عز وجل، صرف البشر عن معارضة القرآن، مع قدرتهم عليها، وخلق فيهم العجز عن محاكاته في أنفسهم وألسنتهم، ولولا أن الله صرفهم عن ذلك لاستطاعوا أن يأتوا بمثله. يقول (مصطفى الرافعي) رحمه الله⁽¹⁾: وقد اختلفت آراء المعتزلة في وجه إعجاز القرآن، فذهب شيطان المتكلمين (أبو إسحق النّظام) إلى أن الإعجاز كان بالصّرفة، وهي أن الله صرف العرب عن معارضة القرآن مع قدرتهم عليها، فكان هذا الصرف خارقاً للعادة وقال (المرتضى من الشيعة): بل معنى الصّرفة، أن الله سلبهم العلوم التي يحتاج إليها في المعارضة، ليجيئوا بمثل القرآن.. فكأنه يقول: إنهم بلغاء يقدرون على مثل النظم والأسلوب، ولا يستطيعون ما وراء ذلك مما لبسته ألفاظ القرآن من المعاني، إذ لم يكونوا أهل علم، ولا كان العلم في زمنهم.. وهذا رأي بين الخلط كما ترى!

ثم قال: وعلى الجملة، فإن القول بالصّرفة لا يختلف عن قول العرب فيه: (إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ) [المدثر: 24]، وهذا زعم رده الله على أهله، وأكذبهم فيه، وجعل القول به ضرباً من العمى: (أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ) [الطور: 15].

وعلى ذلك المذهب الفاسد، يمكن أن يقال: إن المعجز ليس هو القرآن الكريم على حد زعمهم إنما هو (الصّرفة) التي بسببها عجزوا عن الإتيان بمثله: (صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ) [التوبة: 127].

(1) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، الرافعي، ص164. وتتنظر المسألة في: الإتيان، للسيوطي، 314/2، البرهان في علوم القرآن، الزركشي، 95/2، المعجزة الكبرى للعلامة محمد أبي زهرة، ص39، مقالات الإسلاميين، أبو الحسن الأشعري، 296/1، الفرق بين الفرق عبد القاهر البغدادي، ص131-133.

دفع شبهة القول بالصّرفة⁽¹⁾:

إن أصحاب هذا القول يذهبون إلى أن القرآن ليس معجزاً بذاته، وإنما كان إعجازه بسبب أمرين:

الأول: الصارف الإلهي الذي زهدهم في المعارضة، فكسلوا وقعدوا.

الثاني: العارض المفاجئ الذي عطل مواهبهم البيانية وقدرتهم البلاغية.

وهذا القول - بشقيه - باطل، لا يثبت أمام البحث، ولا يتفق مع الواقع وذلك لعدة

أسباب:

أولاً: لو كان هذا القول صحيحاً، لكان الإعجاز في (الصّرفة) لا في القرآن نفسه، وهذا باطل بالإجماع.

ثانياً: لو صح القول بالصّرفة، لكان ذلك (تعجيزاً) لا (إعجازاً)؛ لأنه حينئذ يشبه ما لو قطعنا لسان إنسان ثم كلفناه بعد ذلك بالكلام، فهذا ليس من باب العجز، وإنما هو من باب التعجيز.

ثالثاً: لو كان هناك صارف زهدهم في المعارضة من (كسل أو ملل)، لما وقفوا في وجه نبي الإسلام، ولما آذوه وأصحابه، ولما عذبوا المسلمين وشردوهم، ولما قاطعوا الرسول وعشيرته وحاصروهم في الشعب، حتى أكلوا ورق الشجر، ولما فاوضوه وساوموه على أن يترك الدعوة ثم اضطره إلى الهجرة هو وأصحابه الكرام، إلى غير ما هنالك من دوافع وبواعث، جعلتهم يسلكون كل سبيل للقضاء على الإسلام.

رابعاً: لو كان هناك عارض مفاجئ، عطل مواهبهم البيانية، لأعلنوا ذلك في الناس، ليلتمسوا العذر لأنفسهم، وبالتالي ليقبلوا من شأن القرآن، ولكانوا بعد نزول القرآن أقل فصاحة وبلاغة منهم قبل نزوله، وهذا باطل واضح البطلان.

خامساً: لو كان هذا العارض المفاجئ صحيحاً؛ لأمكننا نحن الآن، وأمكن المشتغلين بالأدب العربي في كل عصر، أن يعارضوا القرآن، وأن يتبينوا الكذب في دعوى إعجازه، وكل هذه الأشياء باطلة، فهل يرضى عاقل لنفسه أن يقول بعد ذلك كله: إن العرب كانوا مصروفين عن معارضة القرآن ونبي القرآن، وأنهم كانوا مخلدين إلى العجز والكسل، زاهدين في النزول لذلك الميدان؟!!

وهل يصح لإنسان يحترم نفسه وعقله أن يصدق بمثل هذا الافتراء القول (بتعطيل المواهب والحواس) بعد أن يستمع إلى شهادة ألدّ الأعداء من صناديد قريش وهو (الوليد بن المغيرة) حيث

(1) تنظر المسألة في: المعجزة الكبرى، أبو زهرة، ص83، وما بعدها، دراسات في علوم القرآن، د. فهد الرومي، ص274، مناهل العرفان، للزرقاني، 302/2.

قال كلمته المشهورة: (والله لقد سمعت أنفاً كلاماً ليس من كلام بشر، ليس بشعر ولا نثر ولا كهانة، والله إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه ليعلو وما يعلى عليه) والفضل ما شهدت به الأعداء.

المبحث الرابع: وجوه إعجاز القرآن الكريم⁽¹⁾

آراء العلماء في الإعجاز:

بعد أن أجمع العلماء على إعجاز القرآن بذاته، وعلى عدم استطاعة أحد من البشر الإتيان بمثله، اختلفت آراؤهم في وجه إعجاز القرآن على آراء:

(أ) يرى بعضهم: أن وجه الإعجاز في القرآن، هو ما اشتمل عليه من النظم الغريب المخالف لنظم العرب ونثرهم، في مطالعه، ومقاطعته، وفواصله.

(ب) ويرى البعض الآخر: أن وجه الإعجاز، إنما يكمن في فصاحة ألفاظه، وبلاغة عباراته، وجودة سبكه، إذ هو في الدرجة العليا من البلاغة التي لم يعهد مثلها.

(ت) ويرى آخرون أن الإعجاز في خلوه من التناقض، واشتماله على المعاني الدقيقة، والأمور الغيبية التي ليست بمقدور البشر، ولا في استطاعتهم معرفتها، كما أنه سليم من التناقض والتعارض.

(ث) وهناك من يقول: إن وجه الإعجاز هو ما تضمنه القرآن من المزايا الظاهرة والبدائع الرائقة، في الفواتح، والمقاصد، والخواتيم في كل سورة، والمعول عليه عندهم ما يلي:

1- الفصاحة في الألفاظ.

2- البلاغة في المعاني.

3- صورة النظم البديع.

وهذه الأقوال كلها لا تخرج عن دائرة واحدة هي (الدائرة البيانية) التي امتاز بها القرآن، وهي وإن كانت حقاً إلا أن إعجاز القرآن ليس في (الفصاحة والبلاغة) فحسب، بل هناك وجوه أخرى لإعجاز القرآن.

وقد أجاد العلامة (القرطبي) رحمه الله، فعَدَّ عشرة وجوه لإعجاز القرآن، كما ذكر فضيلة الشيخ (الزرقاني) في كتابه (مناهل العرفان) أربعة عشر وجهاً من وجوه الإعجاز، ومنها ما ذكره القرطبي ومنها ما لم يذكره، ونحن نذكر هذه الوجوه بالإيجاز، ثم نعقبها بشيء من التفصيل:

(1) تنظر المسألة في: إعجاز القرآن للباقلاني، ص 62-71، الشفاء للقاضي عياض، ص 156-168، الإعلام

بما في دين النصارى من الفساد، القرطبي، ص 329-334، أعلام النبوة للماوردي، ص 126-152 .

وجوه إعجاز القرآن الكريم:

- أولاً: النظم البديع المخالف لكل نظم معهود في لسان العرب.
- ثانياً: الأسلوب العجيب المخالف لجميع الأساليب العربية.
- ثالثاً: الجزالة التي لا يمكن لمخلوق أن يأتي بمثلها.
- رابعاً: التشريع الدقيق الكامل، الذي يبرز كل تشريع وضعي.
- خامساً: الإخبار عن المغيبات التي لا تعرف إلا بالوحي.
- سادساً: عدم التعارض مع العلوم الكونية المقطوع بصحتها.
- سابعاً: الوفاء بكل ما أخبر عنه القرآن الكريم من وعد ووعد.
- ثامناً: العلوم والمعارف التي اشتمل عليها (العلوم الشرعية والعلوم الكونية).
- تاسعاً: وفاؤه بحاجات البشر.
- عاشراً: تأثيره في قلوب الأتباع والأعداء.

أما الوجه الأول من وجوه إعجازه فهو (النظم البديع) المخالف لكل نظم معهود في لسان العرب، فالقرآن الكريم لا يشبهه شيء في نظمه، لا من شعر ولا من نثر، وذلك بشهادة أساطين البلاغة، وأئمة الفصاحة والبيان، (الوليد بن المغيرة) و (عتبة بن ربيعة) وغيرهما من فصحاء العرب ومشاهيرهم.

أما الوجه الثاني لإعجاز القرآن: فهو (الأسلوب العجيب) المخالف لجميع الأساليب العربية، فقد جاء القرآن بذلك الأسلوب الرائع الخلاب، الذي بهر العرب برونقه وجماله، وعذوبته وحلاوته، وقد كانت فيه من الخصائص العليا ما لم توجد في كلام بشر على نحو ما وجدت في القرآن، خصوصاً وأن النبي ﷺ تحدى به فأعجز أساطين الفصحاء، وأعيان مقاولي البلغاء، وأخرس السنة فحول البيان، وذلك في عصر، كانت القوى فيه قد توافرت على الإجابة والتبريز في هذا الميدان، وفي أمة كانت مواهبها محشودة للتفوق.

أما الوجه الثالث من وجوه الإعجاز، ذلك الإيجاز الرائع، والجزالة الخارقة التي ليس بإمكان مخلوق من البشر أن يحيط بها أو يأتي بمثلها لأنها فوق الطاقة البشرية، والقدرة الإنسانية.

لقد كان البدوي، راعي الغنم، يسمع القرآن، فيخر ساجداً لله رب العالمين، وذلك لروعة هذا الكتاب المجيد، ولما يفعل به في نفوس السامعين، وهو دليل رقة الإحساس، ولطف الشعور من أولئك الرعاة الجفاة.

يروى أن (الأصمعي) خرج ذات يوم فلقى جارية، وسمعها تنشد أبياتا من الشعر رائعة، فأعجب بتلك الأبيات وهزت منه النفس والقلب، بجمال أسلوبها، وروعة بيانها، وفصاحة ألفاظها، فقال لها: قاتلك الله ما أفصحك؟! فقالت له: ويحك أو يعد هذا فصاحة بعد قول الله تبارك وتعالى: (وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ) [القصص: 7]، ثم قالت له: فقد جمعت هذه الآية على وجازتها بين أمرين، ونهيين، وخبرين، وبشارتين⁽¹⁾.

فالآية الكريمة جمعت بين أمرين وهما: (أرضعيه) و (ألقيه في اليم) ونهيين وهما: (ولا تخافي) و (ولا تحزني) وخبرين وهما: (أوحينا) و (خفت) وبشارتين وهما: (إنا رادوه إليك) و (وجاعلوه من المرسلين)، فالبشارة الأولى برده إليها سليما كريما، والبشارة الثانية وهي أن الله سبحانه وتعالى سيجعله رسولا هاديا.

فانظر - رعاك الله - كيف أدركت هذه الجارية البدوية، بفطرتها العربية، سرا من أسرار هذا القرآن، فكان الآية نظمت في عقد من اللؤلؤ والمرجان فكانت لآئها بميزان.

وأما الوجه الرابع من وجوه إعجاز القرآن الكريم ذلك التشريع الإلهي الكامل، الذي يسمو فوق كل تشريع وضعي عرفه البشر في القديم والحديث، فالقرآن الكريم هو الذي وضع أصول العقائد، وأحكام العبادات، وقوانين الفضائل والآداب، وقواعد التشريع الاقتصادي والسياسي والمدني والاجتماعي، وهو الذي نظم حياة الأسرة، والمجتمع، ووضع أعدل المبادئ الإنسانية الكريمة التي ينادي بها دعاة الإصلاح في القرن العشرين ألا وهي (المساواة، العدالة، الحرية) إلى غير ما هنالك من أسس الحضارة والتشريع، الذي تسعى إليه المدنية الحديثة.

وقد نص القرآن الكريم على أمهات الجرائم، وأعظمها خطراً على مستقبل الفرد والجماعة، ووضع لكل منها عقوبات مقدره، لا يجوز الزيادة عليها أو النقصان منها، أو التساهل في تطبيقها، وترك ما سوى ذلك من (الجرائم الخفيفة) للحاكم المسلم، ينفذ فيها ما يراه من العقوبة، على ضوء السنة النبوية المطهرة، وبالشكل الذي يحقق روح الإسلام من إرادة الخير للناس، وتطهير المجتمع من المفاسد والمظالم الاجتماعية.

أما الجرائم الكبيرة التي عين لها القرآن عقوبات رادعة فهي خمسة (جريمة القتل، جريمة الزنى، جريمة السرقة، جريمة قطع الطريق، جريمة الاعتداء على كرامة الناس بالقذف).

ولعل أروع مثل للمقارنة بين (التشريع الإلهي القرآني) وبين (التشريع الوضعي) الذي هو من صنيع البشر، ذلك الأثر العظيم الذي تركه القرآن الكريم في نفوس العرب بسبب تلك الطريقة

(1) ذكرها القرطبي في تفسيره، 252/13.

الحكيمة التي سلكها في معالجة المفساد والأمراض الاجتماعية، حيث قضى على كل فساد، واستأصل كل جريمة من نفوسهم، وجعلهم خير أمة أخرجت للناس، فملكوا الدنيا وسادوا العالم.

والوجه الخامس من وجوه إعجاز القرآن الكريم (إخباره عن المغيبات)، وذلك برهان ساطع، ودليل قاطع، على أن هذا القرآن ليس من كلام بشر، إنما هو كلام عالم الغيوب، الذي لا تخفى عليه خافية، ولو كان من صنع محمد - كما زعموا - لظهرت علائم الوضع في تلك الأخبار الغيبية، بوقوعها على خلاف ما أخبر، ولاقتضح أمره بالكذب الصريح، وحاشاه ρ من الكذب على الله.

أ- فمن هذه الأخبار الغيبية، إخباره عن الحرب التي ستقع بين الروم والفرس، وستكون الغلبة فيها والانتصار للروم، بعد أن انكسروا في الحرب السابقة وذلك في قوله تعالى: (الم (1) غَلِبَتِ الرُّومُ (2) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (3) فِي بَضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (4) بَنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (5)) [الروم: 1-5].

يقول الزمخشري: وهذه الآية من الآيات البينة الشاهدة على صحة النبوة، وأن القرآن من عند الله؛ لأنها إنباء عن علم الغيب الذي لا يعلمه إلا الله.

ب- التنبؤ بإظهار الإسلام على جميع الأديان، وذلك في قوله تعالى: (هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ) [التوبة: 33]. وكذلك التنبؤ بالمستقبل الباسم الذي سيكون للمؤمنين وذلك في قوله تعالى: (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا) [النور: 55]. وقد تحقق هذا الوعد الإلهي، فأظهر الله الإسلام على جميع الأديان، ومكن المسلمين في الأرض في حياة النبي ρ.

ولم يبق جزء منها، إلا دان للمسلمين بالطاعة، ومن لم يدخل في الإسلام، دخل في ذمة المسلمين، وخضع لسلطانهم، ودفع الجزية لهم، ثم سار أصحابه من بعده إلى أرض كسرى وأرض هرقل، فأزالوا دولة الفرس، ودولة الرومان، ولم يمض قرن من الزمان حتى اتسعت رقعة الدولة الإسلامية، فصارت تمتد من بحر الظلمات في المغرب إلى تخوم الصين في المشرق، فتتحقق بذلك الوعد الكريم، وكان وعد الله مفعولاً.

وهذا أمر خارق للعادة، فكان وجهًا من وجوه الإعجاز؛ لأن مثله لا يتفق إلا بإخبار من عند الله جل وعلا، ولا يغيب عن بالنا أن جميع القصص الذي جاء في القرآن الكريم، هو من باب الإخبار عن غيوب الماضي، الذي أطلع الله رسوله الكريم عليه، وما كان له علم بها.

والوجه السادس من وجوه إعجاز القرآن، تلك الإشارات الدقيقة إلى بعض العلوم الكونية التي سبق إليها القرآن قبل أن يكشفها العلم الحديث، ثم عدم تعارضه مع ما يكشفه العلم من نظريات علمية حديثة، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الناحية من نواحي الإعجاز بقوله جل شأنه: (سُنُّرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ) [فصلت: 53].

وقد عرف هذه الوجه في عصرنا الحديث بمسمى الإعجاز العلمي، واعتنى به العلماء كثير، وهو يهتم بدراسة الآيات التي فيها إشارة إلى قضايا تتعلق بالطب، أو بالفلك أو النبات والحيوان، وغيرها .

ومع اعتقادنا بأن القرآن العظيم ليس كتاب طبيعة أو هندسة أو فيزياء، وإنما هو كتاب (هداية وإرشاد) وكتاب (تشريع وإصلاح)، ولكن مع ذلك لم تخل آياته من الإشارات الدقيقة، والحقائق الخفية، إلى بعض المسائل الطبيعية، والطبية، والجغرافية، مما يدل على إعجاز القرآن وكونه وحياً من عند الله، فمن المقطوع به أن محمداً ρ ، كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب، ومع ذلك فإن النظريات العلمية التي أشار إليها القرآن لم تكن معلومة في عصره، ولم يكتشف العلم أسرارها إلا منذ زمن قريب، وذلك من أصدق البراهين على أن هذا القرآن، ليس من تأليف محمد ρ - كما يزعم بعض المستشرقين - إنما هو وحي من الله، أنزله على قلب سيد المرسلين، بلسان عربي مبين.

الوجه السابع من وجوه الإعجاز في القرآن الكريم (الوفاء بالوعد) في كل ما أخبر عنه، وفي كل ما وعد الله سبحانه عباده به، وهذا الوعد ينقسم إلى قسمين: وعد مطلق، كوعده بنصر رسوله، ونصر المؤمنين على الكافرين. ووعد مقيد كشرط التقوى وشرط الصبر كقوله تعالى: (وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (2) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ) [الطلاق: 2-3].

الوجه الثامن من وجوه إعجاز القرآن، هذه العلوم والمعارف التي زخر بها القرآن الكريم. إن القرآن قد جاء بالعلوم المتنوعة، والمعارف المتعددة، في العقائد، والعبادات والتشريع والتنظيم، وفي الأخلاق والمعاملات، وفي حقول شتى: في التربية والتعليم، وفي السياسة والاقتصاد، وفي الفلسفة والاجتماع، وكذلك في القصص والأخبار، وفي أصول المناظرة والجدل. ولا شك أن هذا الوجه من أظهر وجوه الإعجاز، فكيف يستطيع رجل أمي أن يأتي بمثل ما في القرآن من هذه العلوم والمعارف تحقيقاً وكمالاً، مؤيداً بالحجج والبراهين، بعد أن قضى معظم حياته لا يعرف شيئاً عنها، ولم ينطق بقاعدة أو أصل منها، ولا حكم بفرع من فروعها إلا أن يكون وحياً من الله تعالى؟

- الوجه التاسع من وجوه إعجاز القرآن (وفاؤه بحاجات البشر)** وهذا الوجه من وجوه الإعجاز ظاهر جلي، يدركه كل متأمل في شريعة الإسلام، فقد جاء القرآن الكريم بهدايات تامة كاملة، شاملة واسعة، تفي بحاجات البشر في كل زمان ومكان، ويتجلى ذلك إذا استعرضت المقاصد النبيلة التي رمى إليها القرآن في هدايته وإرشاده وهي بإيجاز:
- 1- إصلاح الأفراد.
 - 2- إصلاح المجتمعات.
 - 3- إصلاح العقائد.
 - 4- إصلاح العبادات.
 - 5- إصلاح الأخلاق.
 - 6- إصلاح الحكم والسياسة.
 - 7- إصلاح الشؤون المالية.
 - 8- إصلاح الشؤون الحربية.
 - 9- إصلاح الثقافة العلمية.
 - 10- تحرير العقول والأفكار من الخرافات.

الوجه العاشر من وجوه إعجاز القرآن: ذلك التأثير البالغ الذي أحدثه في قلوب أتباعه وأعدائه، حتى لقد بلغ من شدة التأثير، أن المشركين أنفسهم كانوا يخرجون في جنح الليل يستمعون إلى تلاوة القرآن من المسلمين، وحتى تواصلوا فيما بينهم ألا يستمعوا إلى القرآن، وأن يرفعوا أصواتهم بالضجيج، حينما يتلوه محمد، لئلا يؤمن به الناس: (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَبُونَ) [فصلت:26].

ولقد بلغ من تأثير القرآن في القلوب، أن يفيء إلى ضلاله أشد الناس عداوة له، وأعظمهم عنادا، فيسلم كثير من هؤلاء الزعماء، وعلى رأسهم (عمر بن الخطاب) و (سعد بن معاذ) و (أسيد بن حضير) وغيرهم من القادة والرؤساء.

الوجه الحادي عشر من وجوه الإعجاز في القرآن الكريم (سلامته من التناقض والتعارض خلافا لجميع كلام البشر)، وصدق الله حيث يقول: (أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا) [النساء:82].

هذه بعض وجوه الإعجاز في القرآن الكريم.. معجزة النبي الأمي إلى العالمين في كل زمان ومكان إلى يوم يبعثون.

أسئلة للمناقشة

أكمل الجمل التالية:

المجموعة الأولى:

- علم القراءات القرآنية هو.....
- من فوائد معرفة القرآن المكي والمدني.....و.....
- قام الصحابي الجليل..... بجمع القرآن في عهد سيدنا أبي بكر، رضي الله عنه.
- سبب النزول هو.....
- النسخ هو.....
- أنكر.....النسخ، ويزعمون أنه يستلزم البداء.
- أنواع النسخ في القرآن.....و.....و.....
- الأنواع المصطلح عليها في علم الجدل هي.....و.....و.....و.....و.....

المجموعة الثانية:

- كيف جُمع القرآن في عهد سيدنا أبي بكر، رضي الله عنه؟
- ما ضوابط الجمع التي وضعها سيدنا عثمان، رضي الله عنه؟
- هل العبارة بعموم اللفظ أم بخصوص السبب؟
- ماذا تعني جملة "آيات الصفات" وما موقف العلماء من تفسيرها؟
- هل يقع النسخ في أصول العبادات والمعاملات؟
- اذكر بعضاً من فوائد القصص القرآني؟
- ماذا يعني مصطلح "الأمثلة الكامنة" مع ذكر مثال لذلك؟
- هل نتمثل بقصص الأنبياء الوارد في القرآن الكريم، مثل: سفينة نوح وعصا موسى وغيرهما؟
- ما الغاية من القسم القرآني، وعلام يقسم الله تعالى؟
- ما شروط الإعجاز؟
- ما شروط المعجزة؟
- ماذا تعرف عن: الصرفة، وكيف ترد على من قال به؟.

الفصل الخامس عشر: مصطلح "علم تفسير القرآن".

المبحث الأول: تاريخ التفسير - تطوره:

المطلب الأول: التفسير لغة واصطلاحًا:

التفسير لغة: التفسيرُ: تفعيلٌ من الفسرِ، وهذه المادة يدور معناها حول البيان والوضوح، ولذا قيل: الفسرُ: كشفُ المغطى، وقيل: هو مأخوذٌ من قولهم: فسرتُ الحديثَ، أفسرُهُ فسرًا؛ إذا بيّنته، وأوضحته. وفسرته تفسيراً⁽¹⁾.

ومنه قوله تعالى: (وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا) [الفرقان: 33]، أي: بيانا وكشفاً.

وقال الزركشي: (أما التفسير في اللغة فهو راجع إلى معنى الإظهار والكشف) (2).

التفسير اصطلاحًا:

هناك تعريفات متعددة تتقارب في المعاني وتتباين في الألفاظ نتيجة لوجهة نظر العلماء، والذي نرجحه ونميل إليه هو تعريف العلامة الزركشي وهو:

علمٌ يفهم به كتاب الله المنزل على نبيه محمد ρ وبيان معانيه واستخراج أحكامه وحكمه (3). وهذا التعريف جامع مانع.

المطلب الثاني: التأويل لغة واصطلاحًا:

التأويل لغة: هو مصدر أول وله في لغتنا العربية عدة معان وهي:

1. يأتي بمعنى التفسير والتوضيح والبيان، قال ابن منظور (أول الكلام وتأوله: دبره وقدره، وأوله وتأوله فسره) (4).

2. الرجوع، آل الشيء يؤول أولاً ومالاً: رجع. ومنه قوله عز وجل: (فَإِنْ تَنَارَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا) [النساء: 58] وقوله أحسن تأويلاً معناه (أجمل عاقبة وأحمد مآلاً أي مصيراً) (5).

(1) لسان العرب، لابن منظور، 55/5، تاج العروس، للزبيدي، 323/13، تهذيب اللغة: 283/12.

(2) البرهان في علوم القرآن، الزركشي، 147/2.

(3) المصدر السابق، 13/1.

(4) لسان العرب، لابن منظور، 131/1.

(5) كلمات القرآن تفسير وبيان، حسنين مخلوف: 64.

3. وكذلك ورد بمعنى تأويل الأعمال دون الأقوال كقوله تعالى: (سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا) [الكهف 78] وواضح أن التأويل هنا بيان سبب أعمال الخضر عليه السلام كقتله الغلام، وخرقه السفينة وإقامته الجدار.

التأويل اصطلاحاً:

هناك اختلاف بين تعاريف السلف والخلف في التأويل، فعند السلف له معنيان هما:

1. التأويل هو: (تفسير الكلام وبيان معناه، سواء وافق ظاهره أو خالفه، فيكون التأويل والتفسير عند هؤلاء متقارباً أو مترادفاً) ولعل هذا ما عناه مجاهد بقوله: (أن العلماء يعلمون تأويله - يعني القرآن) (1) أي: تفسيره.

1. وعرفه البغوي، والكواشي: (هو صرف الآية إلى معنى موافق لما قبلها وبعدها تحتمله الآية، غير مخالف للكتاب والسنة من طريق الاستنباط) (2).

2. وعرفه أبو نصر القشيري: (التفسير مقصور على الاتباع والسماع والاستنباط مما يتعلق بالتأويل) (3).

والذي يدقق النظر في التعاريف سالفة الذكر، سيجد أن تعريف البغوي والكواشي هو أفضلها؛ لوضوح معالمه، وتلائمه مع كتاب الله عز وجل.

وعليه يكاد أن ينعقد اجماع المتأخرين على أن (التأويل هو صرف اللفظ عن المعنى الراجح إلى المعنى المرجوع لدليل يقترن به التأويل) (4) ولذلك فعلى المؤول وظيفتان هما:

1. بيان احتمال اللفظ للمعنى الذي ادعاه (5).

2. بيان الدليل الموجب للصرف إليه عن المعنى الظاهر (6).

(1) مناهل العرفان، للزرقاني،، 473/1 .

(2) البرهان في علوم القرآن، الزركشي،، 150/2، وينظر: الإتيان، للسيوطي، 169/4 .

(3) الإتيان، للسيوطي، 194/4 .

(4) مجموع الرسائل، ابن تيمية: 17/2: شرح الطحاوية في العقيدة السلفية، لابن أبي العز، دار المعارف، مصر 1373هـ: 154.

(5) مجموع الفتاوى، لابن تيمية: 288/13 .

(6) المصدر السابق .

المطلب الثالث: حاجة الناس إلى التفسير:

أولاً: من أهداف نزول القرآن الكريم الدلالة على صدق النبوة والرسالة، أى أنه نزل ليكون المعجزة الكبرى للنبي ρ ، ومعرفة أوجه إعجازه لا تتم إلا عن طريق تفسيره.

ثانياً: ومن أهداف القرآن الكريم كذلك، أن الله أنزله ليكون روحاً لهذه الحياة، ونوراً للناس يهديهم إلى ما فيه سعادتهم فى الدنيا، وفلاحهم فى الآخرة، أنزله ليكون منهج حياتهم فى أمور العقيدة والعبادات والمعاملات والأخلاق، وسائر شئون الدين والدنيا والآخرة، ولن يتأتى للأمم والجماعات والأفراد الرقى فى مدارج الكمال إلا بالعمل بهذا القرآن، ولن يتأتى العمل به إلا بعد فهمه فهماً صحيحاً، وهذا الفهم الصحيح لا يتأتى إلا بتفسير القرآن.

ثالثاً: معلوم أن العلوم تنقسم إلى علوم دنيوية، وعلوم شرعية، والعلوم الدنيوية يتوقف الانتفاع بها على الوجه الأكمل والأصلح للبشرية على العلوم الشرعية، والتخلق بالآداب الإلهية، وإلا كانت دماراً للبشرية، وهذا ما نراه فى عصرنا، حينما تحللت تلك العلوم من الأخلاق الربانية، فكانت نقمة ووبالاً على أهلها، وعلى الدنيا كلها، والعلوم الشرعية متوقفة أيضاً بدورها على القرآن الكريم، والقرآن الكريم لا يمكن الاستفادة منه - كما ذكرنا - إلا بتفسيره، فثبت من هذا أن كل كمال دينى أو دنيوى متوقف على تفسير القرآن الكريم⁽¹⁾.

المطلب الرابع: أقسام التفسير.

يقسم التفسير أقساماً متعددة ترجع لاعتبارات معينة كالاتى:

1. وينقسم التفسير باعتبار معرفة الناس له إلى أربعة أقسام:

وهذا ما روى عن ابن عباس أنه قال: (التفسير أربعة أوجه: تفسير تعرفه العرب من كلامها، وتفسير لا يعذر أحد بجهالته، وتفسير تعرفه العامة وتفسير لا يعلمه إلا الله فمن ادعى علمه فهو كاذب)⁽²⁾.

فالتفسير الذى تعرفه العرب هو الذى يرجع إلى معرفة اللغة والإعراب والمفسر لا بد له أن من اطلاع واسع وعميق على معاني اللغة وقواعدها الإعرابية⁽³⁾.

أما التفسير الذى لا يعذر أحد بجهالته فهو اللفظ الذى يفيد معنى واحداً جلياً لا يخفى على أحد ولا يلتبس تأويله، فكل إنسان حينما تطرق مسامعه الآية الكريمة: (فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ) [محمد:

(1) الموسوعة القرآنية المتخصصة، مجموعة من الأساتذة، 242، 243 .

(2) مجموع الفتاوى، ابن تيمية: 384/13، وينظر: الإتيان، للسيوطي: 188/4 .

(3) ينظر: الإتيان، للسيوطي: 189/4، مناهل العرفان، للزرقاني، 478/1 .

[19]، يتبادر لذهنه أنه لا شريك لله في الألوهية، وكذلك إدراكنا الأمر الوارد بقوله تعالى: (وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّكْعِينَ) [البقرة: 43] فمثل هذا لا يعذر أحد بجهالته؛ لأنه معلوم بالضرورة(1).

أما التفسير الذي يعرفه العلماء فهناك ألفاظ تحتمل معنيين فصاعدا فهذا لا يجوز لغير العلماء الاجتهاد فيه. وعلى العلماء اعتماد الدلائل والشواهد في معرفته، وليس لهم أن يعتمدوا على رأيهم الذي لا يدعمه شاهد ولا يعززه برهان، وهذا يغلب عليه إطلاق لفظ التأويل(2).

أما التفسير الذي لا يعلمه إلا الله فهو الذي يخص الأمور التي استأثر الله بعلمها والتي تخص الغيب، كقيام الساعة، وتفسير الروح، والحروف المقطعة والمتشابه وغير ذلك(3).

2. ويقسم التفسير باعتبار مذاهبه إلى:

أ. تفسير بالمأثور: وهو ما ورد بكتاب الله العزيز أو السنة الشريفة أو أقوال الصحابة ص ما يوضح ويبين ويكشف مراد الله جل ثناؤه(4). ومثاله قوله سبحانه: (وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ (2) النَّجْمُ الثَّاقِبُ) [الطارق: 2-3] فكلمة - النجم الثاقب - وضحت وبينت معنى كلمة - الطارق - التي سبقتها وأمثال هذا كثير لمن يتدبر القرآن الكريم.
ب. تفسير بالرأي: وهو تفسير القرآن العظيم بالاجتهاد الذي يعتمد جميع الشروط اللازمة التي يجب الاستناد إليها(5).

3. التفسير من حيث جوازه وعدم جوازه ينقسم إلى:

أ. جائز: وهو الذي يسلك فيه المفسر الشروط الموضوعية دونما إخلال أو تفريط بأي منها قال عبد الله بن المبارك ر (ليكن الذي تعتمد عليه الأثر وخذ من الرأي لك الحديث، وهذا هو الفهم الذي يخص الله سبحانه به من يشاء)(6).

ب. غير جائز: وهو الذي لا يسير المفسر به على هدى الشروط بل يتبع الهوى ويحمل الآيات ما لا تحتمل وبدون برهان ولا دليل، وقد حذر الخليفة الراشد الفاروق عمر ر عن

(1) ينظر: الإتيان، للسيوطي، 189/4، مناهل العرفان، للزرقاني، 478/1 - 479.

(2) ينظر: الإتيان، للسيوطي، 190/4، مناهل العرفان، للزرقاني، 479/1.

(3) ينظر: المصدران السابقان.

(4) ينظر: مناهل العرفان، للزرقاني، 480/1، التفسير والمفسرون: 152/1.

(5) مناهل العرفان، للزرقاني، 517/1، التفسير والمفسرون: 255/1.

(6) إعلام الموقعين عن رب العالمين، ابن القيم، دار الجيل، بيروت، 1973م: 82/1، وينظر: جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر، إدارة الطباعة المنيرية: 137/2.

هذا بقوله: (إياكم والرأي فإن أصحاب الرأي أعداء السنن، أعيتهم الأحاديث أن يعوها وتفلتت منهم أن يحفظوها فقالوا في الدين برأيهم)(1)، قال تعالى: (فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بغيرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) [القصص: 50]، فالآية أفادة شينين أما الاستجابة لله ورسوله، وأما اتباع الهوى من غير دليل، ولا يخفى أن الأول محمود والثاني مذموم(2).

المطلب الخامس: شروط المفسر وآدابه.

ولما كان القرآن الكريم لا تنهض إلى استقصاء معانيه فهوم الخلق، ولا يحيط بوصفه على الإطلاق ذو اللسان الطلق، حتى لو أعطى العبد بكل حرف من القرآن ألف فهم لم يبلغ نهاية ما أودعه الله في آية من كتابه.

فلقد ساق العلماء هنا لتيسير فهم القرآن وتفسيره على طالبي فهمه ومفسريه ما يعد في جانب منه علوماً مكتسبة في قلوبهم، وفي جانب آخر مواهب وملكات في نفوسهم، وفي جانب ثالث آداباً وأخلاقاً لهم اشترطوا تحصيلها ضرورة قبل الخوض في تفسير كلام الله تعالى، والكشف عن مراده فله تعالى - كما قال الغزالي - مواهب جعلها أصولاً للمكاسب، فمن وهبه عقلاً يسر عليه السبيل، ومن ركب فيه خرقاً نقص ضبطه من التحصيل، ومن أيده بتقوى الاستناد إليه في جميع أموره علمه وفهمه(3).

ومن هذه الشروط:

1. أن يكون عالماً بظاهر التنزيل، عارفاً باختلاف القراءات وما يختلف به المعنى وما لا يختلف.

2. أن يحفظ أقاويل المفسرين من السلف والخلف، فإن ذلك أهدى له فيما يريده وأدنى إلى الصواب فيه، وقد شنع العلماء على من يزعم لنفسه الاستقلال بالتفسير ويدعى استغناءه عما سبق من أقوالهم.

3. أن يعرف الأفاصيل والأخبار، وشأن نزول الآيات ليحمل كل آية على ما تقتضيه قصة نزولها، والعلم بالناسخ والمنسوخ، إذ إن علم التفسير منه ما يتوقف على النقل ومنه ما لا يتوقف عليه، ويكفي في تحصيله التقه على الوجه المعتبر.

(1) إعلام الموقعين: 55/1، وينظر: جامع بيان العلم وفضله: 135/2.

(2) ينظر إعلام الموقعين: 47/1.

(3) البرهان في علوم القرآن، الزركشي، 6/5/1.

4. أن يكون عارفاً بلغة العرب وطريقة النحو والإعراب، وهو باب واسع ينتظم علوم العربية، ابتداءً مما تجب البداءة به من تحقيق الألفاظ المفردة، وتحصيل معانيها، ويدخل في ذلك علم اللغة والاشتقاق والتصريف، وكيفية أداء التركيب للمعنى ودرجة وضوحه وبيانه، وأسرار فصاحته وجماله وإعجازه.

5. أن يكون عالماً بأصول العقيدة والفقهاء وأحكام الشريعة من العبادات والمعاملات والسنة الواردة في ذلك كله، ليضع الآيات التي تنتظم هذه الأصول والأحكام مواضعها.

6. أن يكون عالماً بأبواب السر من الإخلاص والتوكل والتفويض والأذكار الباطنة، وما يصلح الأعمال ويفسدها. وآفات الدنيا ومعائب النفس وسبيل التوقي من فسادهما ليتأتى له تفسير الآيات المنتظمة لهذه المعاني، فكتاب الله فهمه دقيق لا يصل إليه إلا من تبحر في العلوم وعامل الله بتقواه في السر والعلانية وأجله عن مواقف الشبهات(1).

7. أن يكون جيد الفريضة، ذكي الفهم، قوي الفكرة؛ فإن البليد قد يتقاعد عن فهم ما يبين له، فكيف يستتبط ما لم يبين له، فأصل الوقوف على معاني القرآن هو التدبر والتفكير، والعمل بما علم(2).

8. أن يكون من أهل الزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة، فمن رغب في الدنيا، انصرفت همته إليها وسيكون ما يسبق إلى قلبه من وجود ما يريد أن يتكلم فيه على وفاق ما في همته، وما أخوفه إذ ذاك أن يصرف كتاب الله تعالى إلى ما تهوى نفسه فيضل بنفسه ويضل غيره (3). وقد قال تعالى: (وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ) [العنكبوت: 69].

9. أن يكون مفوضاً أمره إلى الله تعالى، متضرعاً إليه أن يلهمه الرشد والتوفيق محاذراً الإعجاب بنفسه والاتكال على عقله وجودة قريحته، فإن المعجب مخذول، والمتكبر مصروف كما قال الله تعالى: (سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ) [الأعراف: 146].

(1) مقدمتان في علوم القرآن، تحقيق آرثر جفري ص 174.

(2) البرهان في علوم القرآن، الزركشي، 180/2.

(3) مقدمتان في علوم القرآن، ص 175.

المبحث الثاني: مصادر التفسير وأهم المؤلفات فيه:

المطلب الأول: تفسير النبي ﷺ للقرآن الكريم:

في القرآن الكريم آيات كثيرة يفهم منها أن الله ﷻ هو المبين الأول للقرآن مثل قوله تعالى: (كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ) [البقرة: 187].

ولما كان القرآن نزل باللغة العربية، وهي لغة الرسول ﷺ، فقد اقتضى هذا أن يكون الرسول ﷺ أدق فهماً وأشمل ادراكاً لما أمر به، ولهذا نجد الصحابة يسألون الرسول ﷺ عن بيان ما خفي عليهم من القرآن ويرجعون إليه في تفسير ما صعب عليهم فهمه.

ويمكن القول بعد هذا، أن الرسول ﷺ هو المفسر الأول -بعد الله عز وجل- للقرآن الكريم فحين نزل قوله تعالى: (وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (81) الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ) [81-82 الأنعام] قال الصحابة: أينا لم يلبس إيمانه بظلم؟ ففسر النبي ﷺ لفظ الظلم بأنه: الشرك (1)، واستدل عليه بقوله تعالى: (يَابُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ) [لقمان: 13].

ولم يكن الرسول ﷺ يألو جهداً في تصحيح أفهام الصحابة، أو يتخرج من توضيح ما يشكل فهمه عليهم مرة بعد الأخرى.

مثال ذلك:

ما أخرجه الشيخان τ عن عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ (حَتَّى يَبَيِّنَ لَكُمْ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ) [البقرة: 187] عَمَدْتُ إِلَى عِقَالِ أَسْوَدٍ وَإِلَى عِقَالِ أَبْيَضٍ، فَجَعَلْتُهُمَا تَحْتِ وَسَادَتِي، فَجَعَلْتُ أَنْظُرُ فِي اللَّيْلِ فَلَا يَسْتَبِينُ لِي، فَغَدَوْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَذَكَرْتُ لَهُ ذَلِكَ، فَقَالَ: إِنَّمَا ذَلِكَ سَوَادُ اللَّيْلِ وَبَيَاضُ النَّهَارِ (2).

فقد فهم عدي بن حاتم من لفظ الآية أن المقصود به العقال الأبيض والأسود فبين له النبي ﷺ أن المراد من البياض والسواد بياض الصباح وسواد الليل، وبذلك يزول اللبس.

(1) والحديث في صحيح البخاري: كتاب التفسير، باب قوله تعالى (لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم)، 114/6، ح 4776.

(2) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الصوم، باب قوله تعالى [وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَبَيِّنَ لَكُمْ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ...]، 677/2، ح 1817.

وهذا أبو بكر يغرب عليه المعنى في بعض الآيات فيقربه له الرسول ρ يقول أبو بكر τ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ، كَيْفَ الصَّلَاحُ بَعْدَ هَذِهِ الْآيَةِ : (مَنْ يَعْمَلُ سُوءًا يُجْزَ بِهِ) [النساء:123] فَكُلُّ سُوءٍ عَمَلِنَاهُ جُزِينَا بِهِ ، قَالَ : " غَفَرَ اللَّهُ لَكَ يَا أَبَا بَكْرٍ " ، قَالَهُ ثَلَاثًا ، يَا أَبَا بَكْرٍ ، أَلَسْتَ تَمْرُضُ ، أَلَسْتَ تَحْزَنُ ، أَلَسْتَ تَنْصَبُ ، أَلَسْتَ تُصِيبُكَ اللَّأْوَاءُ(1)؟ قُلْتُ : نَعَمْ ، قَالَ : " فَهُوَ مَا نُجْزُونَ بِهِ فِي الدُّنْيَا(2) .

هل فسر الرسول ρ جميع القرآن؟

لكن هل معنى ما تقدم أن الرسول ρ، قد بين لأمته كل القرآن لفظاً لفظاً، وآية آية كما يفهم من قوله تعالى: (وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ)[النحل: 44] ؟ وإذا كان الرسول قد بين لأمته بعض ما خفي عليهم من ألفاظ لغتهم -كما رأينا- فهل يعقل أن يكون قد ترك لفظاً أو آية من كتاب الله دون أن يبيتها لهم؟

لقد تعرض كثيرون لهذه القضية، ويقف ابن تيمية(728هـ) على رأس من يقول: إن الرسول ρ بين لصاحبه القرآن كله، يقول: "يجب أن يعلم أن النبي ρ بين لأصحابه معاني القرآن كما بين لهم ألفاظه، فقوله تعالى: (وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) يتناول هذا وهذا، وقد قال أبو عبد الرحمن السلمى: حَدَّثَنَا مَنْ كَانَ يُقْرِئُنَا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ρ أَنَّهُمْ كَانُوا يَقْتَرِئُونَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ρ عَشْرَ آيَاتٍ، فَلَا يَأْخُذُونَ فِي الْعَشْرِ الْأُخْرَى حَتَّى يَعْلَمُوا مَا فِي هَذِهِ مِنَ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ، قَالُوا: فَعَلِمْنَا الْعِلْمَ وَالْعَمَلَ(3) .

ويسوق السيوطي ما يمكن أن يكون دعماً لما ذهب إليه ابن تيمية، فيقول: "ويؤيد هذا ما أخرجه أحمد وابن ماجه عن عمر τ أنه قال: إِنَّ مِنْ آخِرِ مَا نَزَّلَ آيَةُ الرَّبِّ(4) .

وإن كان رسول الله ρ قبض قبل أن يفسرها، دل فحوى هذا الكلام على أنه كان يفسر لهم كل ما أنزل، وأنه لم يفسر هذه الآية لسرعة موته بعد نزولها، وإلا لم يكن للتخصيص بها وجهه.

ومع أن السيوطي يقرر رأي ابن تيمية في أكثر من موضوع، إلا أن له رأياً آخر، فقد صرح بأن الذي صح من التفسير الكثير المنسوب إلى النبي ρ قليل جداً، بل إن أصل المرفوع منه في غاية القلة، وقال مبيناً مدى حاجة الناس إلى التفسير بعد عصر الصحابة: "ونحن محتاجون إلى

(1) اللأواء : الشدة والمشقة وقيل: القحط. المحكم والمحيط الأعظم، لابن سيده، 446/10.

(2) المستدرک على الصحيحين، كتاب معرفة الصحابة رضي الله تعالى عنهم - أبو بكر بن أبي قحافة رضي الله عنه - توضيح معنى من يعمل سوءا يجز به، 75/3، 4476

(3) مسند أحمد، 5538 /10، مقدمة في أصول التفسير، لابن تيمية ص 5-6.

(4) مسند أحمد، 312/1، وقال الشيخ أحمد شاكر: إسناده ضعيف، لانقطاعه. سعيد بن المسيب عن عمر:

مرسل، الإتيان، للسيوطي، 101/1 .

ما كانوا محتاجون وزيادة على ذلك مما لم يحتاجوا إليه من أحكام الظواهر لقصورنا عن مدار أحكام اللغة بغير تعلم، فنحن أشد احتياجًا إلى التفسير، ومعنى هذا أن القرآن لو كان مبينًا كله من الرسول ρ لصاحبه ما ظهرت حاجة الناس بعدهم إلى التفسير، بل ما زادت هذه الحاجة على حاجة الصحابة.

والواقع أن النبي ρ بين الكثير من معاني القرآن لصاحبه، كما تشهد بذلك كتب الصحاح، ولم يبين كل معاني القرآن؛ لأن مراتب التفسير أربعة كما قال ابن عباس:

1. وجه تعرفه العرب من كلامها. 2. تفسير لا يعذر أحد بجهالته.

3. وتفسير تعرفه العلماء. 4. وتفسير لا يعلمه إلا الله.

وبدهي أن ما تعرفه العرب من كلامها، وهو ما يرجع فيه إلى لسانهم من معاني الألفاظ والإعراب لم يفسره لهم رسول الله ρ ، كما لم يفسر لهم ما تتبادر الأفهام إلى معرفة معناه، ولا يعذر أحد بجهالته من النصوص المتضمنة شرائع الأحكام ودلائل التوحيد؛ لأنه لا يخفى على أحد إدراك الطلب من قوله: "أقيموا الصلاة" أو إفادة التوحيد من قوله: "فاعلم أنه لا إله إلا الله" كما لم يفسر لهم أيضًا ما استأثر الله بعلمه كقيام الساعة وحقيقة الروح، والمغيبات التي لم يُطلع الله عليها نبيه، وإنما فسر لهم بعض المغيبات التي أطلع الله عليها وأمره ببيانها، وما يعلمه العلماء، ويرجع إلى اجتهادهم كبيان المجل، وتخصيص العام وتوضيح المشكل وما إلى ذلك من كل ما خفا معناه، والتبس المراد به.

وننتهي من هذا إلى أن الرسول ρ لم يفسر آيات القرآن كلها، أو حتى معظمها، كما أدركه الرافعي إذ يقول: "لو كان ρ فسر للعرب بما تحتمله وتطبيقه أفهامهم لجمد القرآن جمودًا تهدمه عليه الأزمنة والعصور بآلاتها ووسائلها، فإنّ كلام الرسول نص قاطع، ولكنه ترك تاريخ الإنسانية يفسر كتاب الإنسانية، فتأمل حكمة ذلك السكوت، فهو إعجاز لا يكابر فيه إلا من قلع مخه من رأسه، والقرآن كتاب كل عصر، وله في كل دهر دليل من الدهر على الإعجاز (1).

(1) إعجاز القرآن للرافعي، ص 11-173، ط الاستقامة، سنة 1962م، بحوث في الدين والوحي والقرآن - د. محمد بلتاجي، ص 222.

المطلب الثاني: تفسير الصحابة للقرآن الكريم:

قلنا من قبل إن الصحابة قد فهموا القرآن الكريم إجمالاً، وبعضهم استشرف لمعرفة تفصيلاته من رسول الله ﷺ، وأقل منهم من رزق الفهم الصحيح بعد - البحث والنظر، وليس هذا التفاوت بقادح في أذهان الصحابة وصحة فهمهم للقرآن الكريم عامة: إذ أنه راجع إلى اللغة نفسها. وهي من أوسع الألسنة مذهباً وأكثرها ألفاظاً ولا يحيط بها غير النبي المعصوم، ولا بأس بغروب بعض ألفاظها على بعض الصحابة ما دام ذلك لا يذهب على عامتهم كما يقول الشافعي (1).

ومن الطبيعي أن تختلف حظوظ أهل اللغة في فهمها وإدراك أسرارها وليس بمقدور قوم أن يفهموا كل ما يكتب بلغتهم من العلوم على حد سواء، لذلك لم يكن الصحابة -ψ- على درجة واحدة في العلم والمعرفة في فهم القرآن، فما يشكل على بعضهم، يكون واضحاً جلياً عند غيرهم، وما يخفى من الألفاظ على هؤلاء، يكون ظاهراً عند أولئك، ولم يخرج عن هذا كبار الصحابة والقريبون من الرسول ﷺ.

يروى سعيد بن المسيب، بينما عمر بن الخطاب ر علي المنبر قال: أيها الناس ما تقولون في قول الله عز وجل: ﴿...﴾ [النحل: 47] فسكت الناس، فقال شيخ من هذيل: هي لغتنا يا أمير المؤمنين، التخوف: التنقص، فخرج رجل فقال: يا فلان ما فعل دينك؟ قال تخوفته أي تنقصته، فرجع، فأخبر عمر، فقال عمر: أتعرف العرب ذلك في أشعارهم؟ قال: نعم، قال شاعرنا أبو كبير الهذلي يصف ناقة تنقص السير سنامها: تَخَوَّفَ الرَّحْلُ مِنْهَا تَامَكَ قَرْدًا... كَمَا تَخَوَّفَ عُوْدَ النَّبَعَةِ السُّفْنُ (2).

وعن مجاهد عن ابن عباس قال: كنت لا أدري ما فاطر السموات، حتى أتاني أعرابيان يتخاصمان في بئر، فقال أحدهما: أنا فطرتها، يقول أنا ابتدأتها (3).

وأظهر ما يدل على تفاوت فهمهم -أي الصحابة- لنصوص القرآن ما روى أن الصحابة فرحوا عند نزول قوله تعالى: ﴿...﴾

(1) تفسير الإمام الشافعي، محمد بن إدريس الشافعي (204هـ)، تحقيق د. أحمد القران ط دار التدمرية - المملكة

العربية السعودية، 1427 - 2006 م، 1016/2.

(2) تفسير القرطبي، 110/10.

(3) البرهان، الزركشي، 293/1.

ديناً) [المائدة: 3]، حيث ظنوا أنها إخبار وبشرى بكمال الدين، ولكن عمر بكى وقال: ما بعد الكمال إلا النقص، مستشعراً نعي النبي (1)ρ.

روى البخاري عن ابن عباس قال: كَانَ عُمَرُ يُدْخِلُنِي مَعَ أَشْيَاحِ بَدْرٍ، فَكَأَنَّ بَعْضَهُمْ وَجَدَ فِي نَفْسِهِ، فَقَالَ: لِمَ تُدْخِلُ هَذَا مَعَنَا، وَلَنَا أَبْنَاءٌ مِثْلُهُ؟ فَقَالَ عُمَرُ: إِنَّهُ مِنْ حَيْثُ عَلِمْتُمْ، فَدَعَا ذَاتَ يَوْمٍ فَأَدْخَلَهُ مَعَهُمْ، فَمَا رُبِيتُ أَنَّهُ دَعَانِي يَوْمَئِذٍ إِلَّا لِيُرِيَهُمْ، قَالَ: مَا تَقُولُونَ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: (إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ...الآيات) [سورة النصر]؟ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: أَمَرْنَا نَحْمَدُ اللَّهَ وَنَسْتَغْفِرُهُ إِذَا نُصِرْنَا وَفُتِحَ عَلَيْنَا، وَسَكَتَ بَعْضُهُمْ فَلَمْ يَقُلْ شَيْئاً، فَقَالَ لِي: أَكْذَابُكَ تَقُولُ يَا ابْنَ عَبَّاسٍ؟ فَقُلْتُ: لَا، قَالَ: فَمَا نَقُولُ؟ قُلْتُ: هُوَ أَجَلُ رَسُولِ اللَّهِ ρ أَعْلَمَهُ لَهُ، قَالَ: إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ، فَذَلِكَ عِلْمٌ أَجَلُكَ، فَسَبِحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً. فقال عمر: لا أعلم منها إلا ما تقول (2).

ولقد أعان بعض الصحابة على فهم القرآن أمور:

أولاً: معرفة أوضاع اللغة وأسرارها.

ثانياً: معرفة عادات العرب.

ثالثاً: معرفة أحوال اليهود والنصارى في جزيرة العرب وقت نزول القرآن.

رابعاً: قوة الفهم وسعة الإدراك.

خامساً: معرفة أسباب النزول، وما أحاط بالقرآن من ظروف وملابسات، تعين على فهم كثير من الآيات القرآنية (3)

المطلب الثالث: تفسير التابعين وبدء التدوين في التفسير.

ويأتي بعد الصحابة، المفسرون من التابعين، وأشهرهم من كانوا عماد المدارس الثلاث بمكة والكوفة والمدينة، بالإضافة إلى مفسري المدرسة المصرية الذين لم يشتهروا مثل غيرهم كعطاء بن دينار الهذلي (ت 126هـ) وعبد الله بن وهب (ت 197هـ) وغيرهما.

وقد اعتمد هؤلاء في فهمهم للقرآن وتفسيره على ما تلقوه من الصحابة، وما أضافوه إلى ذلك من أهل الكتاب الذين رجعوا إليهم كثيراً، ثم ما فتح الله به عليهم من النظر الصادق في كتابه الكريم، وقد حفظت كتب التفسير قدرًا هائلاً من تفاسير هؤلاء، ولا شك أن تطور الزمن كان يضيف بعضاً من الغموض على ما كان واضحاً من الآيات قبل ذلك للسابقين، ومن هنا وجدنا لهؤلاء أقوالاً مستقلة، توردوا بها عن أساتذتهم، وقد أعانهم على ذلك قرب عهدهم بالنبوة والصحابة، ثم عدم فساد سليقتهم اللغوية.

(1) الموافقات، للشاطبي، 384/3.

(2) صحيح البخاري: كتاب التفسير، باب قوله تعالى {فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا}، 179/6، ح4970.

(3) تفسير ابن عطية 12/1، التفسير والمفسرون 45/1.

ولما كان ابن عباس نسيجًا وحده في التفسير، فقد وجدنا أن تلاميذه هم أعلم الناس بالتفسير من التابعين، يقول ابن تيمية: "أعلم الناس بالتفسير أهل مكة؛ لأنهم أصحاب ابن عباس كمجاهد، وعطاء بن أبي رباح، وعكرمة مولي ابن عباس، وسعيد بن جبيرة وطاووس وغيرهم وكذلك في الكوفة أصحاب ابن مسعود(1)، وعلماء أهل المدينة في التفسير مثل: زيد بن أسلم الذي أخذ عنه ابنه عبد الرحمن، ومالك بن أنس، بالإضافة إلى من اشتهر في التفسير ممن ينتمون إلى مدرسة مصر التفسيرية كعطاء بن دينار وعبد الله بن وهب المصريين وغيرهم.

وتعد هذه المرحلة من أهم مراحل التفسير؛ إذ وضعت فيها بذور المذاهب الإسلامية، من نزوع إلى العقل في فهم الآيات وتفسيرها، إلى تصرف في اللغة وإيغال في التأويل، وقد وجدنا هذا في مدرستي مكة والمدينة، بالقدر الذي وجد في مدارس - الكوفة والعراق ومصر بعامة، وإن اختلف الأساس الذي بنى عليه هذا الفهم في كل مدرسة على حدة، وقد حدث هذا نتيجة تطور المجتمع الإسلامي، بازدياد العناصر الجديدة الداخلة في الإسلام، في الوقت الذي بدأ التحرج الديني يخف أثره على الباحثين في القرآن، مع ما صاحب ذلك من اختلاف المسلمين السياسي، وفرع كل منهم إلى القرآن للاستدلال على ما ذهب إليه، كما دخل التفسير في هذه المرحلة كثير من الأباطيل والخرافات لكثرة من دخل في الإسلام من أهل الكتاب وغيرهم، وتساهل بعض التابعين في التلقي عنهم دون تحفظ ومراجعة، كما كان يفعل الصحابة، وأكثر من روى عنهم في هذا المجال كعب الأحمار ووهب بن منبه، بالإضافة إلى ما روى عن عبد الله بن سلام وتميم الداري، وقد وجد هؤلاء كثيرًا ممن يحمل عنهم أمثال السدى الكبير، ومقاتل والكلبي والضحاك، والسدى الصغير وعبد الملك بن عبد العزيز بن جريج، وغيرهم من أتباع التابعين، ومما ساعد على رواج هذه الأباطيل: القصاص والوعاظ بالمساجد، ولم يسلم من نسبتها أئمة ورعون كالحسن البصري بالكوفة، ومحمد بن كعب القرظي بالمدينة.

وشهدت هذه المرحلة أيضًا محاولات فردية في تدوين التفسير، وإن ظل محتفظًا بطابعه في عهد الصحابة من الرواية والتلقي الشفهي مثل الحديث، مع أخذه طابع الاختصاص، وسوف نقف قليلاً مع بعض المفسرين منهم ممن رأيناهم يمثلون مدارسهم التفسيرية خير تمثيل، أو تبرز في كل منهم خصائص هذه المدرسة واضحة جلية.

ومن أشهر مفسري التابعين: مجاهد بن جبر (المكي)، عكرمة أبو عبد الله البربري مولى ابن عباس، الحسن البصري، قتادة بن دعامة السدوسي، سعيد بن المسيب، أبو العالية الرياحي. ومن المدرسة المصرية يأتي: عطاء بن دينار الهذلي، عبد الله بن وهب.

(1) مثل علقمة بن قيس، والأسود بن يزيد، ثم الحسن البصري، وقاتادة بن دعامة وعامر الشعبي، وغيرهم. التفسير والمفسرون، للذهبي، 8/3.

المبحث الثالث: أهم المؤلفات في التفسير:

المطلب الأول: أهم المؤلفات في التفسير بالمأثور (المنقول)

1 . جامع البيان عن تأويل آي القرآن: والمعروف بتفسير الطبري: للإمام المفسر المؤرخ المحدث أبي جعفر محمد بن جرير الطبري، نسبة إلى طبرستان (224-310هـ) وهو أوثق وأقدم ما دون في التفسير بالمأثور (1)، كما أنه من أهم المصادر في التفسير بالمعقول، لما فيه من الاستنباطات العلمية الدقيقة، وتوجيه الأقوال وترجيح بعضها على بعض، مما يدل على حسن النظر وعمق البحث، وقال الإمام النووي: (أجمعت الأمة على أنه لم يصنف مثل تفسير الطبري) (2). والكتاب مطبوع متداول.

2 . معالم التنزيل: للمحدث الفقيه المفسر أبي محمد الحسين بن مسعود بن محمد الفراء البغوي الشافعي (المتوفى سنة 510هـ) وصف الخازن هذا التفسير في مقدمة تفسيره بأنه (من أجل المصنفات في علم التفسير وأعلامها، وأنبؤها وأسناها، جامع للصحيح من الأقاويل، عار عن الشبه والتصحيف والتبديل، محلى بالأحاديث النبوية، مطرز بالأحكام الشرعية، موشى بالتقصص الغريبة، وأخبار الماضين العجيبة، مرصع بأحسن الإشارات، مخرج بأوضح العبارات، مفرغ في قالب الجمال بأفصح مقال) (3) وقال ابن تيمية في تفسير البغوي (مختصر من الثعلبي، لكنه صان تفسيره عن الأحاديث الموضوعية والآراء المبتدعة) (4). وهو مطبوع متداول.

3. تفسير القرآن العظيم: للإمام الحافظ المحدث المفسر المؤرخ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن عمرو بن كثير البصري الدمشقي الشافعي (700 - 774هـ). من أشهر ما صنف في التفسير بالمأثور، وهو المرجع الثاني في التفسير بالمأثور - بعد تفسير الطبري، وقد اعتمد ابن كثير في تفسيره على تفسير القرآن بالقرآن ثم بالحديث وما ورد عن الصحابة والسلف، وكثيراً ما يشير إلى ضعف بعض المرويات في تفسير بعض الآيات، ويرجح بعض الأقوال على

(1) المقصود بالتفسير بالمأثور: يشمل التفسير المأثور ما جاء في القرآن نفسه من البيان والتفصيل لبعض آياته، وما نُقل عن الرسول p ، وما نُقل عن الصحابة رضوان الله عليهم، وما نُقل عن التابعين، من كل ما هو بيان وتوضيح لمراد الله تعالى من نصوص كتابه . التفسير والمفسرون، للذهبي، 5/4 .

(2) ينظر الإتيان، للسيوطي، 190/2، والتفسير والمفسرون، للذهبي، 208/1 .

(3) التفسير والمفسرون، 236/1 .

(4) ينظر مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية ص19، التفسير والمفسرون 2361/1، والثعلبي الذي ذكره ابن تيمية هو أبو إسحاق أحمد بن إبراهيم الثعلبي النيسابوري (-427هـ) وتفسيره (الكشف والبيان عن تفسير القرآن) (21) . طبقات المفسرين للسيوطي، ص28 .

غيرها، ويوجه بعض الأدلة، ويبين المنكرات والإسرائيليات وغير ذلك، وذاع صيت هذا الكتاب بين أهل العلم، وتداولته الأيدي وصار مما لا غنى لمشتغل بالتفسير عنه. طبع أكثر من مرة. وقد اختصره الأستاذ أحمد محمد شاكر اختصاراً دقيقاً، اجتهد في المحافظة على مزاياه وسماه (عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير).

4 . الدر المنثور في التفسير بالمأثور: للحافظ جلال الدين عبد الرحمن ابن أبي بكر السيوطي الشافعي (849-911هـ)، جمع السيوطي فيه ما ورد عن السلف في التفسير، فأخرج فيه عن البخاري ومسلم والنسائي والترمذي وأحمد وأبي داود والطبري وغيرهم، ولم يتصد للترجيح أو التعقيب، كما أنه لم يبين الصحيح من الضعيف، والكتاب جيد جامع، لم يخرج عن طريقة التفسير بالمأثور، إلا أنه بحاجة إلى بيان ما ضعف من المنقول. طبع الكتاب عدة طبعات مختلفة.

وهناك كتب كثيرة في التفسير بالمأثور لا يتسع المقام للتفصيل فيها.

المطلب الثاني: أهم المؤلفات في التفسير بالرأي (بالمعقول)(1)

1 . الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: للإمام أبي القاسم محمود بن عمر الخوارزمي الزمخشري، الملقب بجار الله (467-538هـ)، وقد اشتهر هذا التفسير بين أهل العلم بالكشاف وهو من أشهر تفاسير المعتزلة، وإذا نظرنا إلى هذا التفسير بعيداً عما فيه من الاعتزال حكمنا أنه: لم يسبق مؤلفه إليه لما أبان فيه من وجوه الإعجاز في غير ما آية من القرآن، ولما أظهر فيه من جمال النظم القرآني وبلاغته، وليس كالزمخشري من يستطيع أن يكشف لنا عن جمال القرآن وسحر بلاغته، لما برع فيه من المعرفة بكثير من العلوم، لا سيما ما برز فيه من الإلمام بلغة العرب، والمعرفة بأشعارهم، وما امتاز به من الإحاطة بعلوم البلاغة والبيان والإعراب والأدب، ولقد أضفى هذا النبوغ العلمي والأدبي على تفسير الكشاف ثوباً جميلاً لفت إليه أنظار العلماء وعلق به قلوب المفسرين(2)، وقد استفاد من تفسير الزمخشري جلّ

(1) والمقصود من التفسير بالرأي - التفسير المحمود عند العلماء، لا التفسير المذموم - تفسير القرآن الكريم في ضوء معرفة المفسر للقرآن الكريم والسنة الطاهرة مجتهداً فيما لم يرد فيه تفسير بالاستعانة بمناحي أقوال العرب وألفاظ العربية، ووجوه دلالتها، واستعمال العرب لها في مختلف تلك الوجوه في أشعارهم وخطبهم، هذا إلى جانب جميع الخصائص التي يجب أن تتوافر في المفسر من معرفة كتاب الله وناسخه ومنسوخه وأسباب النزول، والقراءات، إلى جانب تبصره بالعربية وعلومها، والفقه وأصوله وغير ذلك، وليس المقصود من التفسير بالرأي-التفسير بالهوى وفق الميول والشهوات كما تفعل بعض الفرق الضالة وبعض المنحرفين.

(2) التفسير والمفسرون، 4331/1.

المفسرين الذين جاؤوا بعده حتى من كان من أهل السنة، ولولا المسائل الإعتزالية التي فيه، ولولا تلك الروح الغالبة عليه، لكان هذا التفسير في طبيعة التفسير الكبرى لما فيه من الفوائد الجليلة، في مختلف العلوم(1).

ومما تجب الإشارة إليه أنه ذكر في نهاية كل سورة حديثاً في فضلها وثواب قارئها إلا أن جل ما ذكره ضعيف أو موضوع. وقد طبع هذا التفسير في أربعة أجزاء كبيرة، وطبع على هامشه عدة كتب، منها كتاب (الكافي الشافي في تخريج أحاديث الكشاف) للإمام شيخ الإسلام شهاب الدين ابن حجر العسقلاني (825هـ). وذلك سنة (1365هـ - 1946م). ولهذا التفسير طبعات أخرى متنوعة.

2 . مفاتيح الغيب: للإمام فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين بن الحسن الرازي (544 - 606هـ)، هذا التفسير كبير ضخمة، في اثنين وثلاثين جزءاً، يعد من أكبر كتب التفسير بالرأي، وهو كتاب جليل جامع، يمتاز على غيره بالأبحاث الفياضة في شتى العلوم، يذكر مناسبة السورة مع غيرها، ويذكر المناسبات بين الآيات(2) كما يكثر من الاستطراد في العلوم الكونية... وعلم الكلام، ويعرض لأقوال الفلاسفة ويناقشها ويردها بما يتفق ومذهب أهل السنة (منتصراً للأشاعرة)(3)، ويكثر الاستنباط والكشف عن أسرار الآيات، ولا يكاد يمر بآية من آيات الأحكام إلا ويعطيها حقها من البحث، ويذكر مذاهب الفقهاء واستنباطاتهم وأدلتهم، وقد يذكر بعض المسائل الأصولية والنحوية والبلاغية ويتوسع فيها توسعاً غير مغل، ويفند مذاهب وأقوال بعض الفرق الضالة في مواضعها... وغير ذلك مما رأى الرازي أنه يستوفي الغرض المطلوب من تفسيره.

وقد شاع لدى الكثيرين أن المنية اخترمت الإمام الرازي قبل أن يتم تفسيره، فأتمه بعض من جاء بعده، متبعاً أسلوبه ومنهجه، من غير أن يشير إلى الموضوع الذي انتهى إليه الرازي.

(1) ينظر: المصدر السابق، 454/1.

(2) ينظر على سبيل المثال سورة الفاتحة في تفسير (الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين).

(3) إنه لا يدع فرصة تمر دون أن يعرض لمذهب المعتزلة - فيذكر أقوالهم ويفندها ويرد عليها، ويستقرغ وسعه في عرض دليل الخصم ومذهبه، ثم يرد عليه، ولكن بعضهم يرى أن رده لا يكون كافياً شافياً. ينظر لسان الميزان، لابن حجر ص 427 ج4 وقارن بالتفسير والمفسرون 294 ج1. وقال ابن تيمية في صنيع الرازي: (.. وينصر الإسلام وأهله في مواضع كثيرة، كما يشكك أهله، ويشكك غير أهله في أكثر المواضع. وقد ينصر غير أهله في بعض المواضع، فإن الغالب عليه التشكيك والحيرة أكثر من الحزم والبيان. مجموع فتاوى ابن تيمية، 213/16-214.

إلا أن العلامة الطاهر بن عاشور رحمه الله، دلل على أن التفسير كاملاً ينسب إلى الإمام الرازي (1).

طبع الكتاب كاملاً مراراً وحقق إحدى طبعاته الأستاذ محمد محي الدين عبد الحميد سنة (1352هـ).

3 . البحر المحيط: للإمام النحوي المفسر أثير الدين أبي عبد الله محمد بن يوسف ابن علي (ابن حيان) الأندلسي الشهير بأبي حيان (654 - 745هـ) يعد هذا الكتاب المرجع الأول للوقوف على وجوه إعراب ألفاظ القرآن الكريم، حتى إنه أكثر من المسائل النحوية وذكر الخلاف بين أهلها، ولم يقصر أبو حيان في ذكر وجوه القراءات وأسباب النزول والناسخ والمنسوخ، ومذاهب الفقهاء، وأقوال السلف، وكثيراً ما يحيل إلى كتب الفقه والنحو، ويذكر ما في الآيات من علم البيان والبدیع، فيبدأ بذكر مفردات الآية جملة، ويبين جميع ما أسلفنا من نحو وفقه وبيان... ثم يشرحها بعبارة موجزة بليغة، كما أنه ينقل أحياناً عن بعض مؤلفات من سبقه، فجاء تفسيره جامعاً (2).

4 . فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من التفسير؛ للإمام المحدث المفسر الفقيه محمد بن علي محمد الشوكاني الصنعاني (1173-1250هـ). وهذا الكتاب من أحسن الكتب التي جمعت بين التفسير بالدراية والتفسير بالرواية (3)، ويعد أصلاً من أصول التفسير، وقد استفاد من كتب السابقين وأضاف عليها، واجتهد في بعض المسائل، وخالف بعض العلماء فيها، وطريقته في التفسير أنه يذكر الآيات، ثم يفسرها تفسيراً معقولاً، وكثيراً ما ينقل عن أصحاب كتب التفسير، ويذكر القراءات المتعددة وقراءها، كما يعتمد على أقوال اللغويين وينقل عنهم ويتعرض لإعراب كثير من الألفاظ ويذكر مذاهب الفقهاء في آيات الأحكام وأدلتهم، والترجيح بينها وهو أهل لذلك، ويذكر الأحاديث والأخبار التي وردت عن الرسول μ وعن السلف في تفسير تلك الآيات. ومما يؤخذ عليه أنه يذكر بعض الأخبار الضعيفة ولا يبين درجتها، إنما يترك ذلك للقارئ، وليته نص على درجتها - وهو من أهل الحديث - ليسهل على القارئ معرفة حقيقتها

(1) التفسير ورجاله، الطاهر ابن عاشور، سلسلة البحوث، 1417هـ/1997: 105-106.

(2) طبع الكتاب الطبعة الأولى في ثماني مجلدات كبيرة سنة (1328 - 1329هـ) في مطبعة السعادة بمصر وطبع على هامشه تفسيران موجزان (النهر الماد من البحر) لأبي حيان و (الدرر اللقيط من البحر للمحيط) لتلميذ أبي حيان الإمام تاج الدين أبي محمد أحمد بن عبد القادر القيسي النحوي (682 - 749هـ).

(3) عد بعض المؤلفين هذا الكتاب في جملة كتب التفسير التي صنفتها علماء الزيدية من الشيعة، ولكنك لن ترى فيه ما يخرج عن عقيدة السلف، ولن ترى فيه أي تعصب للزيدية، وقد أشار الأستاذ محمد حسين الذهبي إلى أن هذا الكتاب لا يعطي الصورة الواضحة للتفسير عند الزيدية. ينظر التفسير والمفسرون ص2/299.

ودرجتها، هذا إلى جانب سكوته عن بعض أخبار لم تثبت عند أهل السنة، وهي لا تخفي على أهل العلم. ومع هذا فالكتاب قيم يسد فراغاً كبيراً في المكتبة الإسلامية، لما جمع من الميزات الكثيرة التي لم تجتمع كاملة في غيره من التفاسير. طبع الكتاب في خمس مجلدات بمصر وتكرر طبعه.

وإذا انتهى بنا المطاف عند هذا القدر من أمهات كتب التفسير، فلا بد لنا من أن ننوه بأن هناك مؤلفات كثيرة لم نذكرها مخافة الإطالة، وهي جليلة وكثيرة، كتفسير البيضاوي(1)، وتفسير النسفي(2)، وتفسير الخازن(3)... وتفسير النيسابوري(4)... وتفسير الجلالين(5)... وغيرها.

(1) المسمى بـ (أنوار التنزيل وأسرار التأويل) لقاضي القضاة، ناصر الدين عبد الله بن عمر البيضاوي الشافعي المتوفى سنة (691هـ) وقيل غير ذلك. وهو تفسير جليل جمع بين التفسير والتأويل على أصول اللغة العربية، وقرر فيه الأدلة على منهاج أهل السنة والجماعة وقد استفاد من كتب السابقين. طبع الكتاب عدة مرات، كما طبع على هامش الخطيب الشربيني بالمطبعة الخيرية بمصر.

(2) المسمى (مدارك التنزيل وحقائق التأويل) للإمام عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي - نسبة إلى نسف من بلاد ما وراء النهر - الحنفي المتوفى سنة (701هـ)، استفاد النسفي من مصنفات السابقين وأحسن العرض والبيان، فخرج كتابه جليلاً، سهلاً، دقيقاً وصار بين الناس متداولاً مشهوراً. طبع في أربعة أجزاء متوسطة.

(3) المسمى بـ (الباب التأويل في معاني التنزيل) للشيخ علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم البغدادي الشافعي المعروف بالخازن (678 - 741هـ)، اختصر الخازن كتابه من كتاب معالم التنزيل للبغوي، وضم إليه بعض ما نقله من تفاسير المتقدمين، طبع الكتاب في سبعة أجزاء متوسطة. وهو متداول مشهور.

(4) للإمام الحافظ المفسر المقرئ، نظام الدين الحسن بن محمد الحسين الخراساني النيسابوري المتوفى في القرن الثامن من الهجرة، المسمى بـ (غرائب القرآن و رغائب الفرقان) اختصر النيسابوري في كتابه هذا تفسير الفخر الرازي وهذبه، وضمنه بعض ما جاء في تفسير الزمخشري وغيره من كتب السابقين، إلى جانب مرويات الصحابة والتابعين، وأعمل الفكر في كل هذا وعرضه بأسلوب سهل، وعبارة مشرقة، وحقق كثيراً من المسائل واستدرك فيها على الرازي كما استدرك على الزمخشري، طبع عدة طبعات.

(5) اشترك في تصنيف هذا التفسير الإمام جلال الدين محمد بن أحمد المحلي الشافعي (791 - 864هـ). والإمام جلال الدين السيوطي(849 - 911هـ)، فقد بدأ المحلي التفسير من أول سورة الكهف إلى آخر سورة الناس، ثم فسر سورة الفاتحة، واختارته المنية قبل أن يتم تفسير القرآن الكريم، وجاء الإمام السيوطي بعده، فأتم تفسير ما لم يفسره المحلي، فابتدأ بتفسير سورة البقرة، وانتهى عند آخر سورة الإسراء على منهاج الإمام المحلي، وبهذا أكمل هذا التفسير بجهد إمامين كبيرين من أئمة القرن التاسع، فكان تفسيرهما لطيفاً موجزاً، اعتمد فيه المحلي والسيوطي أرجح الأقوال في التفسير، ونبه كل منهما على القراءات المختلفة والمشهورة، وأعربا ما يحتاج إلى إعراب، فكان تفسيراً مختصراً جامعاً شاملاً .

أسئلة للمناقشة

- س: عرّف التفسير، والتأويل لغة، واصطلاحًا.
- س: بين أقسام التفسير عند ابن عباس.
- س: ما المراد بالتفسير بالمأثور؟
- س: اذكر بعض مصادر التفسير بالمأثور.
- س: للتأويل في اللغة معان عدة منها،،
-
- س: ما وظيفة المؤول؟
- س: ما الشروط التي يتوجب أن تتوفر في المفسر قبل أن يقدم على تفسير كتاب الله؟
- س: هل فسر النبي صلى الله عليه وسلم القرآن الكريم كاملاً، وضح ذلك بالأدلة.
- س: اذكر مختصراً مفيداً عن أهم المؤلفات في التفسير بالمأثور.

الخاتمة

الحمد لله الذي بفضلته تتم الصالحات، قال تعالى: (قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ) [يونس: 85]، فقد أنعم علينا ووفقنا لإكمال هذا الكتاب، فله الحمد والمنة على ذلك.

وحيث إن علوم القرآن: هي مجموعة المباحث التي تتعلق بالقرآن الكريم من ناحية نزوله وترتيبه، وجمعه وكتابته، وقراءاته، ومحكمه ومتشابهه، وناسخه ومنسوخه، وإعجازه،... إلخ، فقد جعلنا عنوان هذا الكتاب (مباحث في علوم القرآن) وكان من أهم هذه المباحث التي تناولها هذا الكتاب، الآتي:

- التعريف بعلوم القرآن والمؤلفات فيه.
 - التعريف بالقرآن الكريم، وأسمائه، وأوصافه، والفرق بين القرآن الكريم والحديث القدسي والنبوي.
 - الحديث عن الوحي وكيفية آياته، وصوره، وتنزلات القرآن والحكمة من ذلك، ونزول القرآن على سبعة أحرف وأقوال العلماء في ذلك، وحكمه، وفوائده.
 - البيان للمكي والمدني، وفوائدهما، وضوابطهما، ومقاصدهما.
 - بيان أسباب جمع القرآن الكريم وترتيبه، (ومراحل الجمع، وصفات كل مرحلة)، وترتيب الآيات والسور، الرسم العثماني.
 - وتناولت أسباب النزول، وبيّنت عناية العلماء به، وفصلنا القول في قاعدة عموم اللفظ وخصوص السبب، فوائده.
 - وعرّفت بالمحكم والمتشابه، وبيّنت أقوال العلماء في ذلك، والحكمة من المتشابه.
 - ووقفت على الناسخ والمنسوخ، تعريفًا، وبيانًا لأقسامه وأنواعه، وحكمته.
 - وتناولت القصص القرآني، والمراد بها، وأنواعها، وبيّنت أن القصة القرآنية حقيقة لا خيال، نقد لمذهب هدام، ووقفت مع المثل في القرآن الكريم، وأهميته، وأقسامه.
 - وتطرقت إلى القسم في القرآن الكريم، والغاية منه، وأنواعه، وتعريف الجدل، وأقسامه، وأوجهه، وطريق القرآن في الجدل.
 - ووقفت على فواتح وخواتيم السور، والمناسبات، وأهميتها، وأنواعها .
 - وتناولت تعريف إعجاز القرآن الكريم وبيّنا وجوه إعجازه.
 - وأخيرًا وقفت على علم تفسير القرآن، وتاريخه، وتطوره، مصادره، وأهم المؤلفات فيه.
- وقد حاولت . في كل ما سبق . أن أقدم المعلومة سهلة وبسيطة، كي يتمكن طلابنا الأعزاء من الاستفادة من كل ما قُدم، كما راعيت توثيق المعلومات من مصادرها الأصيلة ، لمن أراد الاستزادة، كل ذلك اشتمله منهج مبسط أكاديمي مرتب على حسب الأصول العلمية.

أضرع إلى الله عز وجل أن يحقق للمسلمين النجاح والتوفيق ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِأَمْرِهِ قَدَّ جَعَلَ
اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴾ [الطلاق:3] .

المصادر والمراجع

1. الإبانة عن معاني القراءات، لمكي بن أبي طالب القرطبي المالكي (ت437هـ)، تحقيق: الدكتور عبد الفتاح إسماعيل شلبي، دار نهضة مصر للطبع والنشر.
2. الإبتقان في علوم القرآن، للإمام جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي(911هـ)، تحقيق سعيد المنذوه، دار الفكر، لبنان، ط الأولى 1416هـ 1996م.
3. الأحرف السبعة للقرآن، لعثمان بن سعيد بن عثمان بن عمر أبي عمرو الداني (ت 444هـ)، تحقيق: د. عبد المهيم طحان، مكتبة المنارة - مكة المكرمة ط: الأولى، 1408م
4. الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان، ترتيب الأمير علاء الدين علي بن بلبان الفارس (739هـ)، تحقيق: كمال يوسف الحوت، دار الكتب العلمية - بيروت، ط الأولى 1407هـ -1987م
5. أحكام القرآن، لأبي بكر أحمد بن علي الرازي الجصاص(370هـ)، تحقيق: محمد الصادق قمحاوي، دار إحياء التراث العربي، بيروت1405هـ .
6. إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري لأحمد بن محمد بن أبي بكر بن عبد الملك القسطلاني القنبيي (ت923هـ)، ط المطبعة الكبرى الأميرية، مصر، ط: السابعة، 1323 هـ
7. إرشاد الفحول إلي تحقيق الحق من علم الأصول، لمحمد بن علي بن محمد ابن عبد الله الشوكاني اليمني (ت1250هـ)، تحقيق: الشيخ أحمد عزو عناية، دمشق- كفر بطنا، دار الكتاب العربي، ط الأولى 1419هـ - 1999م
8. أسباب النزول، لأبي الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي لنيسابوري(468هـ)، تحقيق: رضوان جامع رضوان، مكتبة الإيمان، المنصورة، ط الأولى 1427هـ 1996م
9. الأسماء والصفات لأحمد بن الحسين بن علي بن موسى الحُسْرُوْجْردي الخراساني، أبي بكر البيهقي (ت 458هـ)، تحقيق: عبد الله بن محمد الحاشدي، مكتبة السوادي، جدة - المملكة العربية السعودية، ط الأولى، 1413 هـ - 1993 م
10. الإصابة في معرفة الصحابة، لأحمد بن علي بن حجر أبي الفضل العسقلاني الشافعي ت (852) هـ، تحقيق علي محمد البجاوي، دار الجيل، بيروت، ط الأولى 1412هـ 1992م.

11. إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، لمصطفى صادق بن عبد الرزاق بن سعيد ابن أحمد بن عبد القادر الرفاعي (ت1356هـ)، دار الكتاب العربي - بيروت، ط الثامنة - 1425 هـ - 2005 م
12. الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء العرب والمستعربين والمستشرقين لخير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي ت(1396)هـ، ط دار العلم للملايين، ط، الخامسة عشر 2002 م
13. الإلماع إلى معرفة أصول الرواية وتقييد السماع، لعياض بن موسى ابن عياض بن عمرو اليحصبي السبتي، (ت544هـ)، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار التراث، القاهرة، ط الأولى، 1379هـ - 1970م
14. الانتصار للقرآن للأبي بكر محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر بن القاسم المعروف بالباقلاني، ط دار الفتح- عمّان، دار ابن حزم - بيروت، ط الأولى1422 هـ - 2001 م، تحقيق د. محمد عصام القضاة.
15. أنوار التنزيل وأسرار التأويل لإمام المحققين ناصر الدين أبي سعيد عبدالله ابن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي (791هـ)، دار الفكر، بيروت
16. أنيس الفقهاء في تعريفات الألفاظ المتداولة بين الفقهاء، لقاسم بن عبد الله ابن أمير علي القنوي الرومي الحنفي (ت 978هـ)، تحقيق: يحيى حسن مراد، دار الكتب العلمية 2004م-1424هـ
17. البحر المحيط لأبي حيان - أثير الدين أبي عبد الله محمد بن يوسف بن علي ابن حيان الأندلسي (654هـ)، مطابع النصر الحديثة - الرياض.
18. البداية والنهاية للإمام عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي ت(774)هـ ط مكتبة المعارف، بيروت.
19. البرهان في علوم القرآن للإمام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشى ت(794)هـ ط، دار المعرفة، بيروت 1391هـ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم.
20. تأويل مشكل القرآن، للإمام أبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، ت(276) هـ، ط: دار الكتب العلمية، تحقيق: إبراهيم شمس الدين.
21. التعريفات، لعلي بن محمد بن علي الجرجاني(816هـ) تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط الأولى 1405هـ.
22. تفسير الإمام الشافعي، لأبي عبد الله محمد بن إدريس الشافعي (ت204هـ)، تحقيق: د. أحمد بن مصطفى الفرّان، دار التدمرية - المملكة العربية السعودية، ط الأولى: 1427 - 2006 م

23. تفسير القرآن العظيم، للإمام الحافظ أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير
الدمشقي (774هـ)، دار الفكر، بيروت، 1401هـ.
24. تفسير القرآن العظيم مسنداً عن رسول الله ﷺ والصحابة والتابعين، لعبد الرحمن بن محمد
ابن إدريس الرازي (327هـ)، تحقيق: أسعد محمد الطيب المكتبة العصرية، صيدا.
25. تفسير عبد الرزاق، لعبد الرزاق بن همام بن نافع الصنعاني (ت211هـ)، دار الكتب
العلمية، تحقيق: د. محمود محمد عبده، دار الكتب العلمية - بيروت، ط الأولى، سنة
1419هـ.
26. التفسير والمفسرون، د. محمد السيد حسين الذهبي (ت1398هـ)، مكتبة وهبة، القاهرة.
27. التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، لأبي عمر يوسف بن عبد الله ابن عبد
البر (463هـ)، تحقيق: مصطفى بن أحمد العلوي، محمد عبد الكبير البكري، وزارة عموم
الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب 1387هـ.
28. تهذيب اللغة، لأبي منصور محمد بن أحمد الأزهرى، ط. دار إحياء التراث العربي -
بيروت 2001م، ط : الأولى ، تحقيق: محمد عوض مرعب.
29. التيسير في القراءات السبع، لعثمان بن سعيد بن عثمان بن عمر أبي عمرو الداني
(ت444هـ)، دار الكتاب العربي - بيروت، ط الثانية، 1404هـ، 1984م
30. جامع البيان عن تأويل آي القرآن لابن جرير - تحقيق: محمود محمد شاكر، وأحمد محمد
شاكر، دار المعارف.
31. الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي)، لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح
القرطبي، تحقيق: أحمد عبد العليم البردوني، دار الشعب، القاهرة، ط الثانية 1372هـ.
32. جمع القرآن الكريم في عهد الخلفاء الراشدين، لأبي طاهر عبد القيوم
لعبد الغفور السندي، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف، المدينة المنورة
33. الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، لأبي العباس، شهاب الدين، أحمد ابن يوسف
بن عبد الدائم المعروف بالسمن الحلي (ت756هـ)، تحقيق: الدكتور أحمد محمد
الخرائط، دار القلم، دمشق.
34. الدر المنثور في التفسير بالمأثور، للإمام عبد الرحمن جلال الدين السيوطي
(ت911هـ)، دار الفكر، بيروت 1993م .
35. دراسات في علوم القرآن، لمحمد بكر إسماعيل (ت1426هـ)، دار المنار، ط الثانية
1419هـ-1999م.
36. دراسات في علوم القرآن الكريم، أ. د. فهد بن عبد الرحمن بن سليمان الرومي، ط الثانية
عشرة 1424هـ - 2003م

37. دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، لأبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي، تعليق د: عبد المعطي قلعجي، دار الكتب العلمية . بيروت، ط الأولى 1405 هـ 1985 م.
38. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، لأبي الفضل شهاب الدين محمود الألوسي البغدادي (1270 هـ)، دار إحياء التراث، بيروت.
39. زاد المسير في علم التفسير، لعبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (597 هـ) المكتب الإسلامي، بيروت، ط الثالثة 1404 هـ.
40. سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد لمحمد بن يوسف الصالحي الشافعي (942 هـ)، تحقيق: إبراهيم التريزي، وعبد الكريم العزباوي . طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.
41. سنن ابن ماجة، لأبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني: المعروف بابن ماجة (273 هـ)، تعليق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية.
42. سنن الترمذي (الجامع الصحيح)، لأبي عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي (279 هـ)، تحقيق أحمد محمد شاكر، المكتبة الثقافية، بيروت.
43. السنن الكبرى، لأحمد بن شعيب أبي عبد الرحمن النسائي (303 هـ)، تحقيق: د. عبد الغفار سليمان بندار، وسيد كروي حسن، دار الكتب العلمية، بيروت، ط الأولى 1411 هـ 1991 م .
44. شرح الكوكب المنير، لأبي البقاء محمد بن أحمد بن عبد العزيز بن علي الفتوحى المعروف بابن النجار (ت 972 هـ)، تحقيق: محمد الزحيلي - نزيه حماد، مكتبة العبيكان، ط الثانية 1418 هـ - 1997 م
45. شرح طيبة النشر في القراءات العشر، لمحمد بن محمد بن محمد النُّوَيْرِي (ت 857 هـ)، دار الكتب العلمية - بيروت، تحقيق: الدكتور مجدي محمد سرور سعد باسلوم، ط الأولى، 1424 هـ - 2003 م
46. شعب الإيمان، لأبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي (458 هـ)، تحقيق محمد السعيد بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، ط الأولى 1410 هـ.
47. صحيح البخاري، لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم البخاري الجعفي (256 هـ)، حققه: طه عبد الرؤوف سعد، مكتبة الإيمان، المنصورة 1419 هـ 1998 م.
48. صحيح مسلم، لمسلم بن الحجاج أبي الحسين القشيري النيسابوري (261 هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
49. صحيح مسلم بشرح النووي لأبي زكريا يحيى بن شرف بن مري النووي (676 هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط الثانية 1392 هـ..

50. طبقات المفسرين، الحافظ شمس الدين محمد بن علي بن أحمد الداودي، تحقيق سليمان ابن صالح الخزي، مكتبة العلوم والحكم، السعودية، ط الأولى 1417هـ 1997م.
51. فتح الباري بشرح صحيح البخاري، لأبي الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني الشافعي (852هـ) تحقيق: عبد العزيز بن عبد الله بن باز، ومحمد فؤاد عبد الباقي، دار الحديث، القاهرة، ط الأولى 1419هـ 1988م.
52. فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، لمحمد بن علي ابن محمد الشوكاني ت(1250)هـ، دار الفكر، بيروت.
53. فضائل القرآن لأبي عبيد القاسم بن سلام ت (224)هـ، دار الصحابة للتراث، طنطا، ط أولى 1430هـ، 2009م.
54. القاموس المحيط، لمجد الدين أبي طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادي (ت817هـ)، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، ط: الثامنة، 1426 هـ - 2005 م
55. القراءات وأثرها في علوم العربية، لمحمد محمد محمد سالم محيسن (ت1422هـ)، مكتبة الكليات الأزهرية - القاهرة، ط الأولى، 1404 هـ - 1984 م
56. كتاب السبعة في القراءات، لأبي بكر أحمد بن موسى بن العباس بن مجاهد البغدادي ت(324) هـ، ط دار المعارف - مصر 1400هـ، ط: الثانية، تحقيق: شوقي ضيف.
57. كتاب المصاحف، لأبي بكر بن أبي داود، عبد الله بن سليمان بن الأشعث السجستاني (ت316هـ)، تحقيق: محمد بن عبده، الناشر الفاروق الحديثة - مصر، ط الأولى، 1423هـ - 2002م
58. كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، محمد بن علي ابن القاضي محمد حامد ابن محمد صابر الفاروقي الحنفي التهانوي (ت 1158هـ)، تحقيق: د. علي دحروج، مكتبة لبنان ناشرون - بيروت، ط: الأولى - 1996م.
59. الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون التأويل في وجوه التأويل، لأبي القاسم جاد الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي (538 هـ)، تحقيق عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث، بيروت.
60. لباب التأويل في معاني التنزيل، لعلاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم ابن عمر الشحبي، المعروف بالخازن (ت 741هـ)، تصحيح: محمد علي شاهين، دار الكتب العلمية - بيروت، ط الأولى، 1415 هـ
61. لسان العرب، لابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم. بيروت-لبنان، دار صادر، ط الثالثة 1414 هـ.

62. مباحث في التفسير الموضوعي، لمصطفى مسلم، دار القلم، ط الرابعة 1426 هـ - 2005م
63. مباحث في علوم القرآن، لصبحي الصالح، دار العلم للملايين، ط الرابعة والعشرون كانون الثاني، يناير 2000م
64. مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، علي بن أبي بكر الهيثمي (807 هـ) دار الريان للتراث، دار الكتاب العربي، القاهرة، بيروت 1407.
65. مجموع فتاوى ابن تيمية، لأبي العباس أحمد بن عبد الحلیم بن تيمية الحراني (728 هـ)، جمع وترتيب، عبد الرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي. دار الرحمة.
66. محاسن التأويل، لمحمد جمال الدين القاسمي، تعليق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية.
67. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، للقاضي أبي محمد عبد الحق ابن غالب بن عطية الأندلسي (546 هـ)، تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، لبنان، ط الأولى 1413 هـ 1993م.
68. مختار الصحاح. لزين الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي الرازي، تحقيق: محمود خاطر، بيروت-لبنان، مكتبة لبنان ناشرون، ط، 1415 هـ-1995م.
69. مختصر التبيين لهجاء التنزيل، لأبي داود، سليمان بن نجاح بن أبي القاسم الأموي (ت496 هـ)، مجمع الملك فهد - المدينة المنورة سنة 1423 هـ - 2002 م
70. مدارك التنزيل وحقائق التأويل، لأبي البركات عبد الله بن أحمد بن محمود حافظ الدين النسفي (ت710 هـ)، حققه وخرج أحاديثه: يوسف علي بديوي، دار الكلم الطيب، بيروت، ط: الأولى، 1419 هـ - 1998 م
71. المدخل إلى علوم القرآن الكريم، لمحمد فاروق النبهان، دار عالم القرآن - حلب، ط الأولى، 1426 هـ - 2005 م
72. المدخل لدراسة القرآن الكريم، لمحمد بن محمد بن سويلم أبو شهبه (ت1403 هـ)، مكتبته السنة - القاهرة، ط الثانية، 1423 هـ - 2003 م.
73. المرشد الوجيز إلى علوم تتعلق بالكتاب العزيز، لشهاب الدين عبد الرحمن ابن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي الدمشقي المعروف بأبي شامة (ت665 هـ)، تحقيق: طيار آلتی قولاج،: دار صادر - بيروت 1395 هـ - 1975 م
74. المستدرك على الصحيحين أبي عبد الله لمحمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري (405)، ط دار الكتب العلمية، بيروت 1411 هـ - 1990م، ط: الأولى تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا.

75. مَصَاعِدُ النَّظَرِ لِلإِشْرَافِ عَلَى مَقَاصِدِ السِّيَرِ، لإبراهيم بن عمر بن حسن البقاعي (ت885هـ)، مكتبة المعارف - الرياض، ط الأولى 1408 هـ - 1987 م
76. المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي، لأحمد بن محمد بن علي المقرئ الفيومي ت (770) هـ، ط: المكتبة العلمية - بيروت.
77. معالم التنزيل في تفسير القرآن لمحيي السنة، أبي محمد الحسين بن مسعود ابن محمد بن الفراء البغوي الشافعي (ت510هـ)، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط الأولى 1420 هـ
78. المعجزة القرآنية حقائق علمية قاطعة، لأحمد عمر أبي شوفة، دار الكتب الوطنية - ليبيا، سنة2003م.
79. المعجم الوسيط، لمجمع اللغة العربية بالقاهرة، (إبراهيم مصطفى، أحمد الزيات، حامد عبد القادر، محمد النجار)، دار الدعوة
80. المفردات في غريب القرآن لأبي القاسم الحسين بن محمد الأصفهاني(502هـ) تحقيق محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، لبنان.
81. مقاييس اللغة، لأحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبي الحسين (ت395هـ)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر1399هـ - 1979م.
82. مقدمة في أصول التفسير، لتقي الدين أبي العباس أحمد بن عبد الحلیم بن عبد السلام، ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (ت728هـ)، دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان1490هـ/ 1980م
83. المقنع في رسم مصاحف الأمصار، لعثمان بن سعيد بن عثمان بن عمر أبي عمرو الداني (ت444هـ)، تحقيق: محمد الصادق قمحاوي، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة.
84. مناهل العرفان في علوم القرآن، للشيخ عبد العظيم الزرقاني، ط، دار الفكر - لبنان، ط الأولى 1416 هـ 1996م.
85. منجد المقرئين ومرشد الطالبين، لشمس الدين أبي الخير ابن الجزري(ت833هـ)، دار الكتب العلمية، ط الأولى 1420 هـ -1999م
86. الموسوعة القرآنية المتخصصة، لمجموعة من الأساتذة والعلماء المتخصصين، ط المجلس الأعلى للثئون الإسلامية، مصر، سنة1423هـ - 2002 م
87. موسوعة علوم القرآن، لعبد القادر محمد منصور، دار القلم العربي - حلب، ط الأولى، 1422 هـ - 2002 م.
88. موطأ الإمام مالك أبي عبد الله مالك بن أنس الأصبحي عالم المدينة شرفها الله ت(179)هـ، ط دار القلم، ط الثالثة 1419 هـ 1999م.

89. النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن الكريم، لمحمد بن عبد الله دراز (ت1377هـ). قدم له: أ. د. عبد العظيم إبراهيم المطعني، دار القلم للنشر والتوزيع، ط: طبعة مزيدة ومحققة 1426هـ - 2005م
90. النشر في القراءات العشر، لمحمد بن محمد بن يوسف ابن الجزري (ت833 هـ)، تحقيق: علي محمد الضباع (ت1380هـ)، المطبعة التجارية الكبرى.
91. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، لأبي الحسن برهان الدين إبراهيم ابن عمر البقاعي ت(885هـ)، ط، دار الكتب العلمية - بيروت - 1415هـ - 1995م، تحقيق: عبد الرزاق غالب المهدي.
92. نفحات من علوم القرآن، لمحمد أحمد محمد معبد (ت1430هـ)، دار السلام - القاهرة، ط الثانية،: 1426 هـ - 2005 م
93. نواسخ القرآن لجمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (ت597هـ)، تحقيق: أبو عبد الله العاملي السلفي الداني بن منير آل زهوي، شركه أبناء شريف الأنصاري - بيروت، ط الأولى، 1422 هـ - 2001 م
94. الهادي شرح طيبة النشر في القراءات العشر، لمحمد محمد محمد سالم محيسن (ت1422هـ)، دار الجيل - بيروت، ط الأولى، 1417 هـ - 1997 م
95. الواضح في علوم القرآن، مصطفى ديب البغا، محيي الدين ديب مستو، دار الكلم الطيب / دار العلوم الانسانية - دمشق، ط الثانية، 1418 هـ - 1998 م

فهرس الموضوعات

- المقدمة
- الدراسات السابقة
- المشتملات
- الأهداف العامة لدراسة مقرر " دراسات في علوم القرآن "
- التمهيد
- المبحث الأول: علوم القرآن.... التعريف والنشأة والتطور
- المطلب الأول: تعريف علوم القرآن
- المطلب الثاني: نشأة علوم القرآن
- المطلب الثالث: ظهور اصطلاح علوم القرآن
- المبحث الثاني: القرآن الكريم أسماؤه وأوصافه (وسوره)
- المطلب الأول: تعريف القرآن الكريم
- المطلب الثاني: أسماء القرآن الكريم:
- المطلب الثالث: أوصافه
- المطلب الرابع: سور القرآن
- المطلب الخامس: هل تسمية السور القرآنية توقيفية أم اجتهادية؟
- المبحث الثالث: الحديث القدسي
- المطلب الأول: تعريفه، ووجه التسمية
- المطلب الثاني: الفرق بين القرآن الكريم والحديث القدسي
- أسئلة للمناقشة
- ✓ **الفصل الأول: الوحي**
- المبحث الأول: تعريف الوحي، كفيته وصوره، إثباته
- المطلب الأول: تعريف الوحي
- المطلب الثاني: كفيته وصوره
- المبحث الثاني: إثبات وإمكان ظاهرة الوحي
- المطلب الأول: هل يمكن أن تتحقق ظاهرة الوحي؟
- المطلب الثاني: أدلة إمكان الوحي وتقريبه للعقول
- المطلب الثالث: بعض الأدلة التي تثبت أن الوحي من الله تعالى
- أسئلة للمناقشة

✓ الفصل الثاني: نزول القرآن

- المبحث الأول: تنزلات القرآن
- المطلب الأول: التنزيل الأول
- المطلب الثاني: التنزيل الثاني
- المطلب الثالث: التنزيل الثالث
- المبحث الثاني: نزوله منجماً
- المطلب الأول: أدلة نزول القرآن منجماً
- المطلب الثاني: الحكمة من نزول القرآن منجماً
- المطلب الثالث: ملاحظة على مدة التنزيل
- المطلب الرابع: بين العبرة من نزول القرآن منجماً والواقع المعاصر
- المبحث الثالث: معرفة أول وآخر ما نزل، وفوائد
- المطلب الأول: أول ما نزل من القرآن على الإطلاق
- المطلب الثاني: آخر ما نزل
- المطلب الثالث: أوائل موضوعية
- فوائد معرفة أول ما نزل وآخر ما نزل
- المبحث الرابع: القراءات القرآنية، والأحرف السبعة
- المطلب الأول: تعريف القراءات، وعلاقتها بالقرآن
- المطلب الثاني: أقسام القراءات، وأركان القراءة الصحيحة
- المطلب الثالث: حكم تعلم القراءات
- المطلب الرابع: أهم المؤلفات في علم القراءات
- المطلب الخامس: الأحرف السبعة
- المطلب السادس: فوائد اختلاف القراءات وتعدد الحروف
- المطلب السابع: مراتب القراءة
- المطلب الثامن: آداب التلاوة
- أسئلة للمناقشة

✓ الفصل الثالث: المكي والمدني

- المبحث الأول: تعريف المكي والمدني
- المبحث الثاني: فائدة العلم بالمكي والمدني
- المبحث الثالث: كيفية معرفة المكي والمدني، وضوابطهما
- المطلب الأول: كيفية معرفة المكي والمدني

- المطلب الثاني: ضوابط معرفة المكي والمدني
- المطلب الثالث: مقاصد المكي والمدني
- المطلب الرابع: مقاصد الشريعة والعلاقة بين المكي والمدني
- أسئلة للمناقشة
- ✓ **الفصل الرابع: في جمع القرآن وكتابته وترتيبه**
 - المبحث الأول: جمع القرآن
 - المطلب الأول: جمع القرآن في الصدور
 - المطلب الثاني: جمع القرآن في عهد أبي بكر الصديق ؓ
 - المطلب الثالث: الجمع في عهد عثمان ؓ
 - المبحث الثاني: ترتيب الآيات والسور
 - المطلب الأول: ترتيب الآيات
 - المطلب الثاني: ترتيب السور
 - المطلب الثالث: تغيير رسم المصحف العثماني إلى الرسم الإملائي
 - أسئلة للمناقشة
- ✓ **الفصل الخامس: أسباب النزول**
 - المبحث الأول: تعريف سبب النزول لغة واصطلاحًا
 - المطلب الأول: تعريف سبب النزول لغة
 - المطلب الثاني: تعريف سبب النزول اصطلاحًا
 - المبحث الثاني: كيفية معرفة سبب النزول؟
 - المبحث الثالث: فوائد معرفة أسباب النزول
 - المبحث الرابع: التعبير عن سبب النزول
 - المبحث الخامس: تعدد الروايات في سبب النزول
 - المطلب الأول: تعدد الأسباب والمنزل واحد
 - المطلب الثاني: تعدد النزول وتكرره
 - المطلب الثالث: تعدد النازل والسبب واحد
 - المبحث السادس: العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب
 - المبحث السادس: الاستفادة من هذه المباحث في المنهج التعليمي والتربوي
 - أسئلة للمناقشة
- ✓ **الفصل السادس: المُحْكَمُ والمُتَشَابِه**
 - المبحث الأول: تعريف المُحْكَمِ والمُتَشَابِه لغة واصطلاحًا

- المطلب الأول: المعنى اللغوي للمُحكّم والمتشابه
- المطلب الثاني: المعنى الاصطلاحي
- المطلب الثالث: آراء العلماء في معنى المُحكّم والمتشابه
- المطلب الرابع: القرآن الكريم محكم ومتشابه
- المبحث الثاني: هل المتشابه مما يمكن معرفته؟
- المبحث الثالث: أنواع المتشابهات
- المطلب الأول: أنواع المتشابهات
- المطلب الثاني: آيات الصفات
- المطلب الثالث: أقوال العلماء في آيات الصفات
- المبحث الرابع: الحكمة من المتشابه
- المطلب الأول: حكم المتشابه الذي لا يمكن علمه
- المطلب الثاني: حكم المتشابه الذي يمكن علمه
- أسئلة للمناقشة

✓ الفصل السابع: الناسخ والمنسوخ

- المبحث الأول: تعريف، وحكمه، وشروطه
- المطلب الأول تعريف النسخ لغة واصطلاحًا
- المطلب الثاني: حكم النسخ: قبل وقت الفعل
- المطلب الثالث: شروط النسخ
- المبحث الثاني: ما يقع فيه النسخ
- المبحث الثالث: أهمية النسخ، وحكمته، وطرق معرفته
- المطلب الأول: أهمية معرفة النسخ
- المطلب الثاني: حكم النسخ
- المطلب الثالث: طرق معرفة النسخ
- المبحث الرابع: آراء العلماء في حقيقة
- المبحث الخامس: أقسام النسخ في الكتاب والسنة
- المبحث السادس: أنواع النسخ في القرآن
- المبحث السابع: النسخ إلى بدل وإلى غير بدل
- أسئلة للمناقشة

✓ الفصل الثامن: القصص في القرآن الكريم

- المبحث الأول: معنى القصص

- المبحث الأول: أنواع القصص في القرآن
- المبحث الثاني: أهداف قصص الأنبياء
- المبحث الثالث: فوائد القصص القرآني
- المبحث الرابع: تكرار القصص وحكمته
- المبحث الخامس: القصة القرآنية حقيقة لا خيال
- المطلب الأول: مع دراسة لفكر هدام
- المطلب الثاني: نقض وتقويم
- المبحث السادس: ما يستفاد من دراسة القصص القرآني
- أسئلة للمناقشة

✓ الفصل التاسع: المثل في القرآن الكريم

- المبحث الأول: تعريف المثل
- المبحث الثاني: أنواع الأمثال في القرآن
- المطلب الأول: النوع الأول: الأمثال المصرحة
- المطلب الثاني: النوع الثاني: الأمثال الكامنة
- المطلب الثالث: النوع الثالث: الأمثال المرسلة في القرآن الكريم
- المبحث الثالث: ما يتمثل به من قصص الأنبياء
- المبحث الرابع: أغراض الأمثال
- المبحث الخامس: الدور التربوي للأمثال
- أسئلة للمناقشة

✓ الفصل العاشر: القسم في القرآن الكريم

- المبحث الأول: القسم وأنواعه
- المبحث الثاني: لم أقسم الله تعالى
- المبحث الثالث: بم يقسم الله؟
- المطلب الأول: القسم بالله تعالى بذاته
- المطلب الثاني: القسم بالقرآن الكريم
- المطلب الثالث: القسم بالنبي ρ
- المطلب الرابع: القسم بمظاهر الطبيعة
- المطلب الخامس: القسم بالأزمنة
- المطلب السادس: القسم بيوم القيامة
- المطلب السابع: أعم قسم في القرآن الكريم

- المبحث الرابع: علام يقسم الله تعالى
- المبحث الخامس: الظواهر الأسلوبية التي يتميز بها القسم في القرآن
 - المطلب الأول: الظاهرة الأولى
 - المطلب الثاني: الظاهرة الثانية
 - المطلب الثالث: الظاهرة الثالثة
 - المطلب الرابع: الظاهرة الرابعة
 - المطلب الخامس: الظاهرة الخامسة
 - المطلب السادس: الظاهرة السادسة
 - أسئلة للمناقشة
- ✓ **الفصل الحادي عشر: الجدل في القرآن**
 - المبحث الأول: الجدل
 - المطلب الأول تعريف الجدل لغة واصطلاحًا
 - المطلب الثاني: أقسام الجدل في القرآن الكريم
 - المطلب الثالث: أوجه الجدل في القرآن الكريم
 - المبحث الثاني: طريق القرآن في الجدل
 - المبحث الثالث: أنواع من مناظرات القرآن
 - المطلب الأول: ما يذكره سبحانه وتعالى من الآيات الكونية المقرونة بالنظر والتدبر
 - المطلب الثاني: ما يرد به على الخصوم، ويلزم أهل العناد، ولهذا صور مختلفة
 - المبحث الرابع: الأنواع المصطلح عليها في علم الجدل
 - **الفصل الثاني عشر: المطلق والمقيد .**
 - المطلب الأول: تعريفهما.
 - المطلب الثاني: دلالة المطلق والمقيد .
 - أولاً : دلالة المطلق.
 - ثانيا: دلالة المقيد.
 - المطلب الثالث: متى يحمل المطلق على المقيد.
- ✓ **الفصل الثالث عشر: فواتح وخواتيم السور، والمناسبات.**
 - المبحث الأول: فواتح السور
 - المبحث الثاني: خواتم السور
 - المبحث الثالث: المناسبات بين الآيات والسور

- المطلب الأول: تعريف المناسبة
- المطلب الثاني: أهمية علم المناسبات
- المطلب الثالث: عناية المفسرين بعلم المناسبة
- المبحث الرابع: أنواع المناسبات
- المطلب الأول: المناسبة بين أول السورة وخاتمة ما قبلها:
- المطلب الثاني: المناسبة بين فواتح السور وخواتمها:
- المطلب الثالث: مناسبة الآية لما قبلها ولما بعدها:
- المطلب الرابع: المناسبة بين الآية وفاصلتها:
- المطلب الخامس: وقد تكون المناسبة في مراعاة حال المخاطبين.
- أسئلة للمناقشة

✓ الفصل الرابع عشر: إعجاز القرآن الكريم

- المبحث الأول: تعريف الإعجاز وإثباته
- المطلب الأول: تعريف الإعجاز
- المطلب الثاني: أنواع التحدي .
- المبحث الثاني: شروط المعجزة الإلهية
- المبحث الثالث: بم كان إعجاز القرآن
- المبحث الرابع: وجوه إعجاز القرآن الكريم
- أسئلة للمناقشة

✓ الفصل الخامس عشر: مصطلح "علم تفسير القرآن"

- المبحث الأول: تاريخ التفسير - تطوره
- المطلب الأول: التفسير لغة واصطلاحاً
- المطلب الثاني: التأويل لغة واصطلاحاً
- المطلب الثالث: حاجة الناس إلى التفسير
- المطلب الرابع: أقسام التفسير
- المطلب الخامس: شروط المفسر وآدابه
- المبحث الثاني: مصادر التفسير وأهم المؤلفات فيه
- المطلب الأول: تفسير النبي ρ للقرآن الكريم
- المطلب الثاني: تفسير الصحابة للقرآن الكريم
- المطلب الثالث: تفسير التابعين وبدء التدوين في التفسير
- المبحث الثالث: أهم المؤلفات في التفسير

- المطلب الأول : أهم المؤلفات في التفسير بالمأثور (المنقول)
- المطلب الثاني: أهم المؤلفات في التفسير بالرأي (بالمعقول)
- أسئلة للمناقشة
- الخاتمة
- المصادر والمراجع
- فهرس الموضوعات